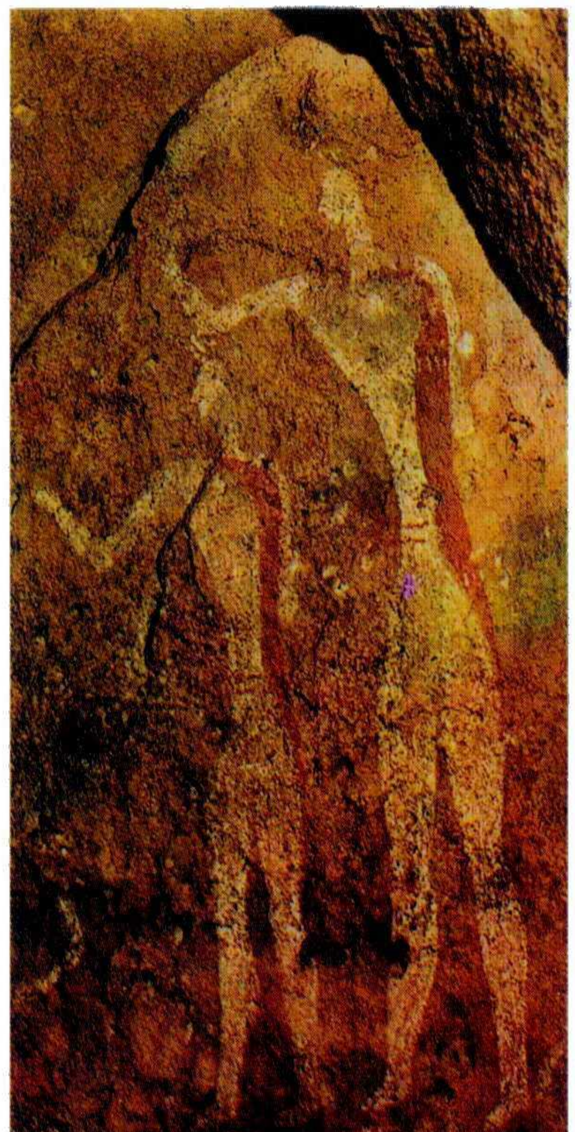
إبراهيم الكوني



الدنيا أيام ثلاثة

رواية

دار الملتقى
للطباعة والنشر

إبراهيم الكوني

الدنيا أيام ثلاثة

[redacted]

دار الملتقى
للطباعة والنشر

إبراهيم الكوني

الدُّنيا أيّامٌ ثلاثة

رواية

دار المُلتقى
للطباعة والنشر

الدنيا أيام ثلاثة

روايـــة

لوحة الغلاف: لفّناني ما قبل التاريخ

الصحراء الليبية ـ منطقة تادرارت ـ الألفية السابعة ق.م

للناشر: دار المُلتقى للطباعة والنشر

بيروت ـ لبـــنان ـ ص. ب: 136582

ليماسول ـ قبرص ـ ص. ب: 6527

أوّل الأيّام - الطّلسم

«عَزَّى أكثم بن صيفي عمرو بن هند ملك العرب على أخيه، فقال له: أيّها الملك، إنّ أهل الدّار سفر لا يحلّون عُقد الرّحال إلاّ في غيرها، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك، وارتحل عنك ما ليس براجعٍ إليك، وأقام معك مَنْ سيظعن عنك ويدعك، واعلم أن الدنيا ثلاثة أيام: فأمس عِظةٌ وشاهد عدلٍ فَجَعَكَ بنفسه، وأبقى لك عليه حكمك؛ واليوم غنيمة وصديق، أتاكَ ولم تأته، طالتْ عليك غيبته، وستسرع عنك رحلته؛ وغدٌ، لا تدري مَنْ أهله، وسيأتيك إن وجدك».

عن ابن عبد ربّه
«العقد الفريد»

1 ـ الدّابّة

ـ بغلة بيضاء! بغلة بيضاء! بغلة بيضاء!

تدافع الصغار، عبر عراء الحضيض، وهم يردّدون النّداء، ثمّ تفرّقوا عندما بدأوا يتسلقون السفح، وانطلقوا ليلجوا بيوتهم ويبشّروا ذويهم بالخبر.

لكنّ ولداً هزيلاً، نحاسيّاً، معفّر الوجنتين بالتربان، توقّف عن صعود الجبل، وانحرف، عبر دروب السفح، شرقاً، حتى اعترضه بنيان الضريح الجليل حيث ينام ثعبان الأزل. هناك تلكّأ، ثم استند إلى الجدار لاهثاً. لهث زمناً قبل أن ينطلق عبر درب متعرّج، هزيل، يخترق الوعر الجبلي، ويؤدي إلى أدغال الحقول في الأسفل؛ ينحرف غرباً فيلاصق البيوت الحجريّة المتناثرة عبر السفوح، وينكسر شرقاً، فيجاور مجرى النبع القديم الذي يوشوش في مسيره الخالد من مكان مّا في

الأعالي، وينطلق ليروي أحراش الحضيض في الأسافل. في الأسافل، في الخلوة التي تحدّ نخيل الحقول من جهة الغرب، استقرّ بنيان المعبد أيضاً. أمام سور هذا البنيان القديم، المشيّد بحجارة صلد بدأ يتفتّت ويتآكل ويبيد من فرط القدمة، توقّف. استند بكفّه إلى الجدار المقدّس وانكبّ على وجهه وبدأ يلهث مرّة أخرى. ولكنّه، عندما شيّع رأسه، وهمَّ بأن ينطلق، وجد الشبح يقف فوق رأسه. كان شيخاً هزيلاً أيضاً، طويلاً، نحاسيّ البشرة، يرتدي ثوباً كئيباً، ويخفي وجهه بلثام أكثر كآبة. لم يستفهم. لم ينتهر. لم يجرجره إلى الاستجواب. ترصّده بعينين غامضتين يفزّ منهما إيماء كالابتسام، كالاستفهام الذي لا يُرى إلاّ في عيون الكهّان، أو أصحاب الخلوات، أو العابرين الخالدين. آلمه الاستفهام الخفيّ، فقرّر أن يضع حدّاً للمواجهة فلوّح بالبشارة كأنّه يلفظ غصّة:

ـ البغلة!

في عين الشبح الهزيل كاد يتحوّل الاستفهام إلى استهزاء. ولا يعرف لماذا أفزعه تحوّل الإيماء إلى استهزاء، فاستبسل، وغالب الإعياء، كي يوضح:

ـ البغلة بيضاء، يا مولاي!

ـ البغلة بيضاء؟!

ـ في الطريق إلى البيوت غريب يعتلي بغلةً بيضاء!

في مقلة الشيخ تراجع إيماء الخفاء، وحلّ في العين ابتسام. انحنى. أسند بدنه النحيل بتثبيت يديه على ركبتيه. سأل بِحِلْم الأوّلين:

ـ أيّ أعجوبة رأى وليدي في البغلة البيضاء؟

حدجه الصبيّ بنظرة استنكار. ويبدو أنه تنبّه إلى الجسارة، فاربدّ، وشحب، وطأطأ. قال:

ـ ألم تخبرونا في الوصايا أن البغلة البيضاء لا تنزل المنازل إلاّ في يوم النحس؟

ـ ماذا تقول؟

ـ ألم تقولوا إن «وانتهيط» اللئيم سينزل الديار يوماً على بغلة بيضاء ليستدرج القوم إلى الوليمة؟

ـ عن أيّ وليمة تتحدّث يا شقيّ؟

ـ ألم تخبروا أن اللئيم سيجرّ القبائل إلى الوليمة ليسحب البساط فتهوي القبائل في الهاوية؟

تضاحك الشيخ. فرّك أذن الصبيّ. قال بحزن حاول أن

يخفيه بلكنة الهزء:

ـ للشيخوخة آفة اسمها النسيان، فاغفر لي!

ـ هذا أيضاً فأل سوء!

ـ ماذا؟

ـ ألم تخبروا أن اللئيم لن يستطيع أن يستدرج القبائل إلى الوليمة إلاّ في اليوم الذي تموت فيه القلوب بعلّة النسيان؟

تضاحك الشيخ مرّة أخرى. ثم طأطأ مكتئباً. في مقلتيه تألّق غموض. قال بنبرة أخرى:

ـ يحسن بنا أن ننطلق لملاقاة الزائر حتى لو أخفى في جلده «وانتهيط» اللئيم. هذه وصيّة الناموس أيضاً!

انتصف النهار، وحلّ ميعاد القيلولة. تمادى السراب فغمر العراء المجاور. ثم اندلق كالطوفان وبدأ يلتهم الأبنية والأحراش والحجارة. غزا المسافات المجاورة أيضاً. ثم تجاسر ومدّ لساناً لئيماً على بُعد أشبار، وكاد يتعلّق بنعل الشيخ. انطلقا مسافة قصيرة عندما استدرك العجوز:

ـ ها هو النسيان يستغفلنا مرّة أخرى فنذهب لملاقاة عابر بأيدٍ خاوية!

هرش الصبي شعراً يشطر رأسه إلى نصفين. هتف كمن اكتشف كنزاً:

ـ هل يتحدّث مولاي عن الماء؟

ـ أحسنت!

ـ سأذهب لأجلب القلّة!

انطلق الصبي نحو المعبد راكضاً. تابعه العجوز باسماً. كانت ألسنة السراب قد هرعت لملاقاته بعد خطوات، لتبتلع قدميه الحافيتين، وتطوّق ساقيه النحاسيتين، العاريتين، كأنّها ألسنة اللّهب.

2 ـ العُزلـة

مرّ زمان لم تستقبل فيه الواحة المجيدة أضيافاً، ولم تأوِ بين جدرانها أهل السبيل، ولم تفتح أسوارها أمام قوافل التجّار. ويقول أهل الخبر إن علّة الانطواء كانت ذلك الخوف المجهول من الدخلاء والأغراب الذي عرفته القبائل في كل قوم تنعّموا وأترفوا وتمرّغوا في أحضان الكنوز الأرضيّة. وكان بالإمكان النظر إلى هذه الخطيئة كعمل من الأعمال الجديرة بالغفران، لولا نزعة المغالاة التي ترفع الخشية من ناموس السجيّة الصحراوية (التي علّمت الإنسان أن يستنفر ويتيقّظ ويحترس كلّما اجتمع إلى أخيه الإنسان)، لتبلغ بالخشية حدّ الكراهة لكل مخلوق دخيل، والعداء حتّى لعابر السبيل. وكان على أهل الواحة أن يجرّبوا بأنفسهم كما جرّبت الأمم من قبلهم، أن الكنز الذي لم نَجُد به على الأغيار واستأثرنا به لأنفسنا فلم نشرك به أحداً، لا يتحوّل هبةً خطرةً أو لقمة مسمومة فحسب، ولكنه

ينقلب بلاءً أسوأ من الوباء. ففي الأزمان التي التأم فيها القوم حول خاصرة الجبل الجليل، وأقاموا جدران الحجارة وأبنية الطين على السفوح التي تطوّق الغار الذي يتدفّق منه النّبع ويواري في ظلماته الكنز المجهول، انتعشت الواحة، واستيقظت في الأرض اليباب حياة لم يعلم حتّى الدهاة والكهّان في أيّ ركن كانت تتخفّى في ذلك الوطن العاري المفروش بالسراب والحجارة والموت؛ وكان مألوفاً أن يسبق الشعراء إلى الساحة لتأويل الأعجوبة عندما شبّهوا، في أشعارهم، هذا الميلاد المبهم بسيرة الصحراء أعوام الجفاف المميت، حيث يندثر حتى ييبس النّبوت، وتفنى حتى البذار ولا يبقى في الخلاء الخالد إلاّ الحصباء وحجارة كئيبة حرقتها ألسنة السراب، فانطرحت في الوضع الأفقي لتستجير من رمضاء الفضاء برمضاء الصحراء. ولا أحد يعرف سرّ البعث الذي يبدّل جرم الصحراء ما إن تتبدّل الأحوال، فتهبّ من الشمال أنفاس البلل، وتتلبّد الآفاق بالغيوم، ويبتدع المجهول النبوءات بشرر البروق، فيرتفع من جسد الأرض، من جوف الأرض، ذلك العطر النفيس الذي لم يعرف الصحراويون له مثيلاً (فشبهه الشعراء في ملاحمهم بعطر جسد العذراء ليلة القران على سبيل الاستعارة) ما إن يهوي الغيث، ويهارش الأرض الظمأى بنباله الحميمة، فلا يطول

بالقوم الانتظار، لأن الصحراء تأبى المماطلة والاستنساء، فتشرع في حبك سرّها ما إن تطلع الشمس، فتلد من بطنها صحراءً أخرى، أجنّة أخرى، فيطلع اللّعاع من جوف الترىان بحماس لا يُقارن إلاّ بالحماس الذي تنبثق به الجداء من أرحام أمهاتهم. يطلع النبت في كلّ مكان، في السهول، في الوديان، في الشعاب، في السفوح الجبلية، يعتلي الألواح الجبليّة أيضاً، ويخترق في بعض الأوطان الصلد ليستولي على شعاف أشدّ الأجبل صرامة وكبرياءً، ثم ينتظر النبت الرياح ليبدأ مراسم الفرح. تهبّ الانسام فينوس ويتطاول ويتثنّى إلى كل الأجناب في رقصة البهجة كأنّه يحاكي صبايا الصحراء عندما يركعن حول طبول الأفراح مسدلات الشعور، ثم يبدأ في التمايل وتلويح الخصلات في الهواء، غائبات الأبصار، مسبلات الجفون، كأنّ الانتشاء، كأن الشهوة إلى الغناء، تدفعهن للارتواء من ينابيع لا وجود لها إلاّ في وطن اسمه الحنين. بمثل هذه الأعجوبة انبثقت الواحة أيضاً.

يقول الدهاة إن جدول الصّلد كان علّة الميلاد، لأن الأرض لم ترتوِ من ماء سلسال يتدفّق قبل ذلك اليوم الذي تحوّل فيه داهية الجنّ افعواناً اندسّ في الغار ليحرس الكنز الخفيّ بعد

تسليمه لداهية الإنس بالغلبة، فانشقّ الصخر عن سلسبيل مضى يتشلشل من شعاف الجبل (حيث يستقرّ الكهف) يتلوّى بشقاوة ليجتنب الصخور، ويحرث السفوح بلؤم، وعناد، وشهوة، في الوقت الذي انهمّ فيه صاحب الغلبةّ بالغلبة، ومشى في الأرض فرِحاً، كما يفرح كلّ مَنْ حققّ في الصدام غلبة، يسائل الصحراء وسماء الصحراء عن سرّ الخير والشرّ.

ويؤكّد فريق آخر أن الجبل لم يتمخّض ليلد من صلبه ذلك الجدول الفتّان إلاّ بعد أن نطق بالنبوءة وأسمع سليل الإنسان الوصيّة الخالدة عن الخير. ويزعم فريق ثالث أن الجبل تمخّض في ذلك النهار المجيد فولد من صلبه الوصيتين في وقت واحد، لأن أجيال الصحراء لم تجد الفرق يوماً بين كنز اسمه النبع، وكنزٍ اسمه الخير. بل ذهب جُلّ الدهاة إلى حدّ الجزم بأن الكنز المزعوم المدسوس في غار الجبل (الذي لا تأتي سيرته على ألسنة القبائل إلاّ بإجلال يفوق الإجلال الذي يستولي على القوم عندما يأتون على سيرة الخفاء) لن يكون إلاّ هذا الفيض النفيس الذي أنبت في البيداء المميتة واحة حيّة كما يُنبت الغيث في الصحراء النبوت بعد جفاف تسلّط أجيالاً.

الشلاّل الجبلي يروي الأحاضيض ويتدفّق عبر الوادي الكبير

الذي يفصل الجبل عن سلسلة جبلية تمتد من جهتي الشرق والشمال، في حين تنهض مرتفعات من جهة الجنوب أيضاً، فانعزل الجبل بواديين عميقين ينشقّ أحدهما ليطوّق امتداد الجبل من جهتي الشمال والشرق، ويهوي ثانيهما ليطوّق حضيض الجبل من جهة الجنوب، في حين استلقى غرباً في قنطرة صارمة كحدّ السيف ليتواصل في مرتفعات الحمادة الغربية. ولم يكن الخلق ليحتملوا الماء يتدفّق ويتجمّع في مستنقعات، ويتبدّد في الخلاء دون أن يفتّشوا عن حيلة تضع حدّاً لهذا الإثم، وهم الذين جرّبوا الظمأ، وذاقوا طعم الجفاف، ولم يعرفوا في تاريخهم الطويل إلاّ الحرمان والمجاعات بسبب غياب الماء. تحسّروا كثيراً ، وتفجّعوا طويلاً، بل تملّكتهم العلل، وأصيب المسكونون منهم بالمسّ المجهول الذي لم يعرفوه إلاّ في الفئة الغامضة التي توجعها اللحون، وتوقظ فيها أغاني الأشجان آلام الحنين، فتغنّوا في الأشعار بالكنز الضائع، وكشفوا عن أمانيهم الخبيثة فقالوا في الأغاني أن لعنة القوم الظمأ، وبرغم أنهم لم يسألوا أنفسهم يوماً عما إذا كان ذلك الظمأ القديم ظمأً إلى الحنين، أم إلى الخفاء، أم إلى الماء، إلاّ أنهم كانوا دائماً على يقين أنهم لن يرتووا إلى الأبد. وبرغم هذا اليقين الفاجع إلاّ أنهم سلالة كانت على استعداد أن تنذر نفسها لو ألهمها الخفاء

سرًّا تمنع به الإثم الفظيع، أو حيلة تمكنّها من وضع حدّ للنزيف الموجع، لأنهم عرفوا قديماً أن الماء إذا سال وتبدّد في الخلاء عبثاً، فإن دماء القوم أيضاً ستسيل. وآمنوا بنبوءات الكهنة عندما قالوا في الوصيّة: «الماء ليس ماءاً. الماء هو أنتم: إنْ أضعتموه أضاعكم وأضعتم، بضياعه، أنفسكم؛ وإنْ نلتموه نالكم، ونِلْتُم، بنيله، أنفسكم، فاحترسوا!». لم يطيقوا على الأمر صبراً فزرعوا. حرثوا الأرض وزرعوا البذار والأشجار، فجنوا وحصدوا وأكلوا. ذاقوا ثمار أرض أفلحوها بأيديهم فانتشوا انتشاءاً يشبه ذلك الإنتشاء الذي استولى على ربّ الواحة يوم سمع بنبوءة الجبل التي زيّنت له الخير وأخبرته أن سفك الدّم ونشر الفساد وفعل الشرّ عمل قبيح، أمّا السكون إلى الأرض، وحقن الدماء، وزرع الصحراء حُبّاً، عمل نبيل، فابتهج وجَذَب، وغنّى وجثم ليقبّل تربان الترباء. القوم أيضاً حجلوا، وجدبوا، وغنّوا وجثموا ليقبّلوا التربان تعبيراً عن الإمتنان. جاءوا بالنذور، ونحروا للخفاء القرابين لأنه ألهمهم وَحْياً مكّنهم من إيقاف النزيف وحقن دم أمّهم الأرض.

في الأزمان الأولى ظلّوا يتنقّلون في صحاري الجوار، يقودهم حنينهم الأبدي إلى الترحال بعيداً فينطلقون ويسلّمون

أمرهم إلى الآفاق، ولكن الأرض ما لبثت أن استدرجتهم إلى الوراء، وشدّتهم إلى صدرها بوتد الزروع، فوجدوا أنفسهم يحومون حول الواحة زمناً. ثم ما لبثوا أن ركنوا إلى الحضيض واستقروا إلى جوار زروعهم وأشجارهم، إلى أن جاء زمان وجدوا فيه أنفسهم يتطاولون في البنيان ويشيّدون بالحجارة البيوت. تسلّق الكثيرون السفوح، وأقاموا الجدران على خاصرة الجبل، ومع مرور الزمن وجدوا أنفسهم يتجاورون على كلا الحَيْدَيْن، ويتلاصقون في الهامة العليا التي يتحصّن في معقلها الزعيم نفسه، بل وخنقوا، في مرحلة أخرى، غار الكنز نفسه (حيث يأوي الأفعوان القديم)، فاكتضّ الجبل بالأبنية، وتزاحم بالبيوت وصفوف الجدران حتى فاض فلفظها إلى الميمنة، ثم إلى الميسرة، ثم إلى الواجهة حيث اعتلت العشائر (التي ألقت عصا الترحال أخيراً) هامة التلال الجبلية التي تواجه الجبل من جهة الجنوب، في حين تناثرت هنا وهناك أخبية تلك الفئات التي لم تستسلم للإغواء، وأبقت على وفائها للصحراء، فاتخذت من الواحة محضراً ترده في الأصياف، وتهجره ما إن يحلّ موسم الأمطار، كأنّها تستفظع الاسترخاء، وتفرّ من حياة الاستقرار كما تفرّ الأقوام من أرض استوطنها الوباء. ولكن الواحة لم تنكمش، ولم تطوّق نفسها بالأسوار إلاّ بعد الانتعاش

الذي عاشته بفضل سخاء الحقول ووفرة المحصول من جانب، وبفضل تدفّق قوافل التجارة (التي غزت الواحة لتتزوّد بحاجتها من مياهها السّخيّة لتتمكّن من بلوغ شطآن البحار في أقصى الشمال، أو الوصول إلى شطآن الأنهار في أقصى الجنوب) من جانب آخر. القبائل جرّبت من قديم أن الخوف على ما امتلكت اليد من عدوان الأغيار هو السرّ الذي يستفزّ الأغيار ليعتدوا على صاحب اليد؛ لأن الإنسان لا يقدم على نهب الإنسان إذا قرأ فيه النيّة لأن يهب ما امتلكت يداه طوعاً، والخلق لم يلتئموا في جحافل لينظّموا الحملات ويغزوا بعضهم بعضاً إلاّ يوم استأثروا بالثروات، واحتجب بعضهم عن بعض حرصاً على ما امتلكوا، فأقام أهل الاستقرار الحصون ليحتجبوا ويمنعوا عن الآخرين ما وُهبوا، فانتعش في النفوس الارتياب، وترعرعت الكراهة، واختنقت الصدور بالشرور، فلم تجد الأمم متنفّساً إلاّ في الغزو والغارات ونهب ما امتنع بسلطان القوّة. وبرغم مرارة التجربة، وفجائع الملاحم الدموية التي عاشتها الأجيال إلاّ أن الحرص على ما امتلكت اليد كان أقوى. بهذه العلّة عجزت القبائل عن تغيير ما بنفسها، فمنعت، دائماً، عن الأغيار ما امتلكت، وسارعت إلى الاحتماء بجدران الحجارة وحصون الأسوار ما إن يمنّ عليها الخفاء برخاء وتكتشف أنها صاحبة ثروة ظنّاً منها أنها

تستطيع أن تردع، بالأسوار، طمع الأغيار، ولا تدري أنها بهذا الانزواء القبيح لا توقظ رذيلة الجشع في نفوس الأغيار فحسب، ولكنّها تستفزّ الغيوب، وتوقظ الغضب في الخفاء الذي كان لنعمتها سبباً.

بمياه النبع، وبزروع الأرض، وُلدت، في الصحراء، الواحة من المجهول، وبقوافل التجارات، ومقايضات السّلع، وتبادل البضائع، تنامت، وأينعت، وأترفت إلى حدّ كابر فيه أهلها، وتباهوا بالثراء، فوجدوا أنفسهم في يوم من الأيام يستخفّون بالوصايا، ويبخلون بما امتلكوا. بخلوا بما امتلكوا فلم تتأخّر اللعنة. بخلوا بما امتلكوا فتوجّسوا، وشكّكوا، واحترسوا، ثم.. احتجبوا. غاب عنهم أن الإنسان الذي يمتلك هو الذي يُمتلك، ولا شيء أقدر على سلب الحرية مثل الثروة، فلم يمضِ زمن طويل حتى ابتنوا حول أنفسهم أسواراً ليشيّدوا معتقلاً فظيعاً أطلقوا عليه اسم الحُصن، ولم يدروا إلاّ بعد فوات الأوان أنهم فقدوا ذلك الكنز الذي تباهوا به دائماً وكان للصحراويين علامةً ورايةً وسجية أبديّة: الحرية!

لم يفقدوا، ببناء المعتقل، الحريّة فحسب، ولكنهم فقدوا حُسن ظنّ أهل الجوار من قبائل الإنس والجنّ، فتململت

الكراهة في النفوس، واستيقظت ريبة الأغيار، فأقبلت عليهم جحافل الغزاة من أركان الصحراء الأربعة. ويُقال إن البلاء الذي أنزلته قبائل الخفاء بالواحة يفوق البلاء الذي أنزلته بها قبائل الخلاء أضعافاً، لأنّهم كانوا يتستّرون بالظلمات، ويخترقون الأسوار، ويتلفون الزروع، وينهبون الممتلكات، ويستبيحون البيوت، ويختطفون الأبكار، ويخلّون بالسلم أزمان الهدنة. وعندما أيّس الزعيم من ردعهم بمفاوضاته العصيبة مع قادة جندهم، استقدم الكهنة، وبعث بهم إلى سادتهم رسلاً. ولكن دهاة الجنّ أبوا، واستكبروا، واحتكموا إلى الناموس. قالوا في رسالتهم إلى الزعيم: «كيف تبيحون لأنفسكم الاستهانة بناموس السماء، وتنكرون علينا الاستهانة بناموس الأرض؟» تساءل الزعيم عن ناموس السماء الذي استهان به في بعثة الكهنة الثانية، فأجاب دهاة الجنّ في رسالتهم الثانية ببيان غامض يليق بدهاة الجنّ: «أُصطفيتم، فاستكبرتم؛ نلتم فمنعتم». استعان الزعيم بأدهى كهنة الواحة لتأويل النبوءة، وعندما أصابه تباين التفاسير بالصداع أرسل بعثة أخرى يستجدي الإيضاح، فاضطرّ دهاة القوم أن ينقلوا النبوءة من لغة التمائم إلى لغة الشعر فقالوا: «الخفاء لا بدّ أن يهب قوماً هنا، ما يحجبه عن قومٍ هناك، لأنّه لو زرع الصحراء كلّها كنوزاً، لما كلّف أحد نفسه عناء، أو

جهداً، أو طلباً. وإذا توقّفت الأقوام عن التدافع والمجاهدة والتفتيش عمّ الاسترخاء أركان الصحراء، ومات في الوطن أهل الوطن وهم أحياء. وقد اختاركم للهبة اليوم، كما سيختارنا للهبة غداً، لأن الكنوز لا تسكن الأرض كالحجارة، ولكنّها تتنقّل في الأرض، وتسعى في الصحراء سعياً. وإذا حجبتم ما نلتم اليوم، حُرمتم ما سنناله نحن غداً. والخفاء لم يلوّح بهذا الناموس إقراراً للقصاص، ولكنّه وضع أمام سلالة الظلال (التي تسمّونها في لغتكم أُناساً) خياراً نبيلاً يسترضون به صاحب الهبة عندما يهبون مما وهبهم نصيباً، فبأيّ حقّ منعتم ما نلتم، وأخفيتم ما امتلكتم، واستقطعتم من الوطن الصحراوي العظيم ركناً اعتقلتموه بالأسوار، واحتكرتموه لأنفسكم، فوضعتم بهذا العمل القبيح، بيننا وبينكم حدوداً كريهة، ولم تكتفوا بكلّ هذه الخطايا، ولكنكم صددتم أهل السبيل، ولم ترووا ظامئاً، ولم تأووا عابراً، ولم تقروا ضيفاً، وسددتم أبواب حصونكم وبيوتكم عن رسل الخفاء الذين أقبلوا عليكم من أجناب الوطن الأربعة متنكرين في أسمال الرعيان، أو أقنعة العابرين الأبديين الذين لم يمنعهم قوم يوماً ماءً أو مأوى أو قِرَى إلاّ أحاقت بهم اللعنة ونزل على ديارهم وباء؟ ألا تدرون، أيها الأشقياء، أنكم قتلتم بالظمأ أخياراً كثيرين يوم سددتم في وجوههم أسواركم

الكئيبة؟ ألا تدرون أنكم أهْلَكْتُم قوافل كثيرة كانت تحمل قوتاً لليتامى والأرامل والجياع في شرق الصحراء وغربها، في جنوبها وشمالها؟ ألا تدرون أنكم أسأتم للخفاء الذي كان لنعمائكم ربّاً عندما صددتم أنبياءه مراراً ومنعتموهم جرعة الماء؟ فكيف أردتم أن تحيوا إذا لم تجودوا بما ملكتم؟ وكيف لم تموتوا وقد منعتم ما نلتم؟ وكيف تنكرون علينا أن نقاتلكم وقد آثمتم في حقّ أنفسكم وفي حقّنا، وفي حق كائنات الصحراء، وفي حقّ الخفاء وأنبياء الخفاء؟ وكيف تعيبون علينا الإساءة لشرائع الغزوات إذا كنتم قد أسأتم قبلنا لناموس الحياة؟». ويتناقل الرواة بإسهاب كيف أغتمّ الزعيم في ذلك اليوم الذي عاد فيه الرسل بالرسالة، وقالوا إنه لم يغتمّ فحسب، ولكنه دمع وأجهش وارتجّ عليه ثم أمر بهدم أسوار الواحة في الحال.

منذ ذلك اليوم صار القوم يستبشرون بفلول الزائرين، ويهرعون بأوعية الماء لاستقبال السابلة ما إن يتبدّوا في الخلاء أشباحاً يتناهبها السراب، بعد أن كانوا يتطيّرون من الضيفان، ويصدّون الأبواب في وجه العابرين. ولكن مع تلاحق الأيام استيقظت في النفوس روح أخرى ظلّت ضائعة لزمن طويل جدّاً. استيقظت في قلب الإنسان عاطفة أخرى. استيقظ في

قلب الإنسان التعاطف. استيقظت في قلب الإنسان الرحمة. استيقظت في قلب الإنسان المحبّة. هذا الكنز الذي استيقظ في نفوس قوم ذاقوا طعم الكراهة والحسد والثأر والخراب هو الذي دفع الأهالِي للتسابق بالماء لإرواء أهل الظمأ، والتشاجر بالأيدي للاستئثار بالأضياف؛ لأنهم جرّبوا أن الخير لا ينمو ولا يعمّ إلاّ في البيت الذي آوى أكبر نصيب من العابرين والتائهين وأهل السبيل.

3 ـ النقائض

لا أحد يعلم من أين يأتي. لا أحد يعلم متى يأتي. لا أحد يعلم إلى أين يذهب. لا أحد يعلم له سرّاً، ولا هويّة، ولا ميعاداً، ولا رسالة، حتى إن الأقوام كثيراً ما راق لها أن تشبّهه بتلك الأوبئة الخفيّة التي تأتي بها رياح المواسم، وتستوطن حتى يحين ميعاد رياح موسميّة أخرى، فتذهب بها كما أتت بها. ويجمع الرواة أن زائر الخفاء لا يختلف في جرْمه عن أجرام كل الخلق، ولا يتميّز عن الأغيار لا بأثواب، ولا بعمائم، ولا ببشرة، ولا بمسلك، برغم أن الكُلّ يعترف له بالتفوّق على الكلّ إذا تعلّق الأمر بالنوايا. ويحذّر الكثيرون من التزوير، ويقولون إن شخصه تعرّض للتزييف كما تعرّض للزيف كل شيء في الصحراء الخالدة، فلم يكتفِ الأرذال بانتحال شخصه، ولم يقنعوا باتخاذ دابّته الغامضة (بعضهم يسمّيها بغلةً، وبعضهم الآخر يسميها أتاناً)، ولكنهم كثيراً ما استعاروا رسالته، ونزلوا

نجوع القبائل للتبشير بنواياه، فادّعى الأشقياء أنهم أتوا الأقوام حاملين في أعطافهم البشرى، وكابر آخرون فقالوا إنهم رسل البلوى، فتبلبلت النفوس، واضطربت الأمم، واختلط الأَمر حتى على الدهاة، لأنّهم لم يدروا ما إذا كان «وانتهيط» (وهو الاسم الذي أطلقوه على داهية الأجيال تيمّناً بدابّته الخفيّة) رسول خير، أم نذير شرّ. وبرغم أن حكماء كثيرين حذّروا، عبر أجيال وأجيال، من سليقة الزّور، وحثّوا القبائل على ضرورة الإيمان بالأضداد التي لا يروق لها أن تتنكّر إلاّ في أجرام الأضداد، بالطريقة نفسها التي يتنكّر بها سليل الجان في بدن سليل الإنسان، إلاّ أن فريقاً آخر، أكّد في زمان آخر، أن زائر النجوع الأبدي زائر واحد أحد لا شريك له سواء أجاء يحمل في عُبّه شرّاً، أم جاء يحمل في أعطافه البشارة. ويسرد هؤلاء عن تحوّلاته أنباءً كثيرة لا تخلو من طرافة، فيروون سيرة تتحدّث عن لقاء قديم جرت به الأقدار بين الرسولين: رسول الحقيقة، ورسول الأكذوبة؛ بين صاحب البشارة، وبين مريد الخسارة، فأمسك «وانتهيط» بخناق القرين الأبدي ونفث في وجهه أنفاس الغضبة سائلاً:

ـ ما الذي يحمّلك على معاندتي واقتفاء آثاري لتفسد ما

أصلحت، وتصلح ما أفسدت؟

فطاف القرين الخلاء الخالد ببصره وقال ببرود الأوّلين:

ـ أنت رسول الخفاء، وأنا رسول ناموس الخفاء. رسالتي إعادة كل أمر إلى نصاب الأمر، ولولاي لما عاد كل شيء إلى المستقرّ، ولما نال الأمر سبيله إلى جدول السيرة الأولى.

ـ ولماذا على الأمر أن يتدحرج، ويتقلّب، ولا يتوقّف إلاّ في يوم يستعيد فيه السيرة الأولى؟

ـ هذا ناموس الخفاء. ناموس الخافية يسمّي ذلك نصاباً.

ـ بأيّ حقّ تكلّمني بلسان خفاء أنا به أعلم؟

ـ لا يدّعي العلم بعلم الخفاء مَنْ ظنّ نفسه عالماً بسرّ الخفاء. أوتينا من علم البادية قليلاً وأوتينا من علم الخافية قدراً يقلّ كثيراً عن القليل.

ـ مهلاً.

ـ ما نحن في كفّ الخفاء إلاّ جند تذهب بالبلاغ إلى الأوطان لتنقل للناس شرّاً، فاسعى في أثرك لأصلح الأمر، وأقلب الوصيّة خيراً، وإن نزلت النجوع لتبلّغ القوم خيراً، سرت وراءك، واحتكمت إلى السرّ الذي أوجب أن ينقلب الخير

شرّاً، لأن مصير الأشياء في العودة إلى أصل الأشياء، وأصل كل أمر في نقيض الأمر.

ـ لماذا كُتب على الأشياء أن تتحوّل إلى نقيض الأشياء؟

ـ لأن الأشياء التي لا تنقلب إلى ضدّها ليست أشياء حقيقيّة.

ـ عجباً!

ـ مآل الفعل نقيض الفعل، ولا قرار لأمر لم يرتدّ إلى أصل.

ـ حقّاً؟

ـ في المنطلق الأكذوبة تلاحق الحقيقة، والحقيقة تلاحق الأكذوبة. في المنقلب الحقيقة لا تتآلف مع غريمتها الأكذوبة فحسب، ولكن الحقيقة، في هذا الوطن، تستحيل أكذوبة، والأكذوبة تجبّ الحقيقة.

ـ حدثني قليلاً عن مسلك النقائض.

ـ ناموس الباديات النقائض، وناموس النقائض الانقضاض على النقائض لانتحال ناموس النقائض.

ـ ولكن ماذا يقول الناموس عن الكيد؟ ماذا يقول الخفاء عن مخلوق قرّر أن يلوى العصا في كفّ الناموس، فيرفض يوماً تلبية نداء النقائض؟

ـ المخلوق، كل مخلوق، رسالة، وصاحب الرسالة يتنكّر لنفسه يوم يتنكّر للرسالة.

ـ ماذا يحدث لو فعلت بك شرّاً؟

ـ ذلك يوم ستفعل فيه بنفسك شرّاً، لا بي.

ـ ماذا تقول أيها الشقيّ؟

ـ أما زلت تشكّ أنّك لست أنت، وأنا لست إلاّ أنت؟

ـ ماذا؟

ـ ما أنا إلاّ أنت، وما أنت إلاّ أنا، ولا حياة في الصحراء إلاّ بكلينا، لأن الأمر كلَّه كان مقدّراً له منذ أول يوم ألاّ يستقيم إلاّ بكلينا.

أمسك سليل الدهاء عن الجدل، ثم انطلق في السبيل، فردّد الفريق الأخير الزعم القائل إن الأوطان جرّبت أن الهلاك الذي ذاقته القبائل على أيدي المدّعين والمزيفين وأصحاب الزّور يفوق الخراب الذي لحقها قضاءً منزّلاً من المجهول، سواء أجاء محمولاً على دابّة «وانتهيط» الرهيب، أم تنزّل في عُبّ قرينه اللئيم. ولم يفتهم أن يعيدوا على الأسماع الشكوى من الزيف، ومن قدرة المخلوقات على التنكّر والتخفّي وتدبير

الكيد سواء أكانت تلك المخلوقات سليلة جان أم ذرّية إنسان، فنال أهل الصحراء الأشقياء على يدها شرّاً لم ينالوه على يد الرسول الغامض الذي توعّد بعضهم بعضاً بكيده، وأقسموا باسمه فزعاً من بطشه، وتقرّب له آخرون بنحر القرابين سرًّا، وأسموه، بلسان التوْرِيَة صاحب الأتان العظيم.

ولكن الأجيال لم تعدم وجود مللٍ أخرى أنكرت السيرة كلّها، وروّجت لسيرة أخرى تقول إن صاحب الأتان كابر واستعلى يوم اصطفاه الخفاء فدسّ في جوفه ضدّه، ونسب دهاة هذه الملل زعماً مثيراً للداهية تباهى فيه بالرسالة الخفيّة، وردّد هؤلاء نداء المكابر عندما أعلن بأعلى صوت أنه لن يُغلب بعد ذلك التاريخ أبداً ما حمل في الجوف الضدّ؛ لأن من أخفى في جؤجوئه نقيضه وحده يملك حقّ الاستيلاء على الآخر، على الخصم، على الأغيار، على الصحراء الأبديّة كلّها. ذلك أن السرّ لا ينكفىء حول نفسه، انكفاء العساعس حول نفسها، ليصير كُلاّ، ليصير حقّاً، ليصير سرّاً، إذا لم يستعر من الدينونة دنياه، إذا لم ينتحل من المجهول طلسمه، إذا لم يعرف في الآخر، كل آخر، نفسه، إذا لم يستردّ من الآخر كنزه الضائع، إذا لم ينقلب ليولد في بطن الضدّ، لأن دائرة الكمال لا تكتمل،

لأن دائرة البهاء لا تتكامل ولاتتلاءم ولا تحكم الطوق حول نفسها إلا باستعادة الكنز المفقود في الضدّ، إلاّ بالحلول الموجع في الضدّ، في الكلّ، في الخصم، في الخصوم، في الباديات الأبدية بأسرها. في تلك الساعة فقط تحين الساعة. في ذلك الميعاد حسب يتعطّل الزمان. في ذلك الأوان يكفّ الأوان ويفقد سجيّته كأوان. لأن الميزان، يومها، سينقلب، والأحجية المسمّاة بلسان القبائل زماناً ستتلكّأ وستتقهقر، وستندثر لتولد في الأبديّة. ساعتها سيتحقّق القران الخالد الذي سيأتي بالخفاء إلى الخلاء، كما أتى الخلاء بالخفاء إلى وطن الصحراء يوماً، ساعتها سيتحوّل الشرّ خيراً، وينقلب الخير شرّاً، لأن الضدّ لا يولد من جوف الضدّ إلا في وطن الخلود.

زعموا أن المكابر أعلن يومها أنه وجد في نفسه سرّ المبتدأ، وسرّ المنتهى يوم استلهم الناموس الخفيّ، فنال الداهية، بالتميمة، الخلود، ولكنه فقد، في اليوم نفسه أيضاً، تميمة أخرى تقول إن العزلة قدر المخلوق الذي تجاسر وقرّر أن يحمل على منكبيه يوماً وزراً اسمه الرسالة.

4 ـ الغريبُ

بدن ككلّ الأبدان، سيماء ككلّ السّيماء، وقار ككلّ وقار، فبأيّ حقّ يُرجم الغرباء بالظنون؟

ترجّل العابر عن المطيّة ما إن اقترب الرّهط، وخَطَا نحو القوم بمهل الأكابر ووقار الأغراب الذين يجلّون الصيت، ويخافون هجاء الشاعرات إذا أرادت بهم الحظوظ سوءاً فأنستهم وصيّة من وصايا المراسم، أو أغفلوا طقساً من طقوس الناموس. الخلوة رأس الاستنفار، والاستنفار رأس الحذر، والحذر رأس الناموس، والناموس رأس الحربة التي تلجم الإنسان في علاقته بأخيه الإنسان. بالمغالاة في مراسم الإجلال احتال الإنسان على نفسه ليقمع شهوته للبطش بأخيه الإنسان، وبالمغالاة في مراسم الإكبار جاهد ليقي نفسه شرّ أخيه الإنسان. بالزمان غدت المراسم تميمة للدفاع عن النفس، وبالزمان غدت المراسم حصناً لاتّقاء شرّ نفس مجبولة، بالفطرة، على السوء،

وبالزمان، أخيراً، صارت مراسم الوقار بين أبناء القبائل سليقة أصليّة وسرّاً من أسرار السلالة الصحراوية. ويقال إنهم لم يعتنقوا هذا الناموس إلاّ بعد اشتباك مميت تنازع فيه الكلّ مع الكلّ، وكاد الكلّ أن يبيد فيه الكّل، ولولا تدخّل قبائل الجن لقطع دابر الخلاف بينهم لفتكوا ببعضهم، ولقطعوا سلالتهم من دنيا الصحراء. وقد أوحى لهم الجنّ بالوقار لأنّهم كانوا احتكموا قبلهم إلى هذه الحيلة يوم نزلوا ليسكنوا الوطن الصحراوي فتنابزوا، وتباغضوا، وتقاتلوا حتى هلكوا وأشرف نسلهم على الانقطاع من دنيا الصحراء، فاختلقوا اللثام طمعاً في إخفاء نواياهم، وابتدعوا أساليب الإجلال لزرع الاطمئنان وإيهام الخصم بالجنوح إلى السلم المستحيل، واحتموا بمراسيم التبجيل ليقنعوا أنفسهم قبل أن يقنعوا الأغيار بوجود الهدنة التي لا وجود لها. ولكنهم اكتشفوا أن الأكذوبة يمكن أن تتحوّل حقيقة عندما نقنع بها أنفسنا، والأشياء التي نتظاهر باعتناقها قد تنقلب طبعاً عندما نألفها ونحياها في السلوك، فحقن لهم الوقار دماً كاد يفنيهم، وردّت لهم مراسم لا تساوي شيئاً روحاً أشرفت على الضياع، فازدادوا إيماناً بما فعلوا، وأكبروا حيلة أهل الخفاء كثيراً، وسنّوها لحياتهم شريعة سبقت كلّ تلك الشرائع التي عرفتها الأجيال التالية باسم الناموس المفقود. لهذه العلّة

ترفّع صاحب الأتان في ظهيرة ذلك اليوم الذي تحرّر فيه من سرابيل السراب وأشرف على الواحة الصحراويّة المجيدة، فهرع إليه أهلها أفواجاً ليتلقّف بعضهم من يديه رسن الدّابة الخالدة ليحتدم في ألسنتهم البيان، ويتنازعوا فيما بينهم الزمام كما اعتادوا أن يفعلوا مع مطايا الرّسل، لأنّهم جربوا عبر أجيال وأجيال أن إطعام دابّة الرسول لا يختلف كثيراً عن إطعام صاحب الدّابة، والخير الذي تطرحه في كلّ أرض تنزلها لا يختلف كثيراً عن الخير الذي يطرحه صاحبها في كل أرض ينزلها. أمّا الفئة الثانية فتدافعت في ظهيرة ذلك اليوم للاستيلاء على صاحب الأتان نفسه، ذلك أنّ جُلّ الذين خرجوا لملاقاة الزائر في تلك الظهيرة كانوا من أهل البلوى. فقد جرّب القوم، عبر أزمان وأزمان، أن الأوبئة لا تخشى إلاّ الخفاء الذي أتى بها، والعلل التي حيّرت العطّارين والسّحرة ودهاة الكهانة لا تنهزم إلاّ بيد تلك المخلوقات الغامضة التي اعتنقت العبور وصار لها المنفى وطناً. فكانوا، لهذا السبب، يستجدون العابرين لنزول بيوتهم لأن هذه السلالة الخفيّة هي التي استطاعت أن تقهر بلاء المجهول فتنقل الدّاء في أعطافها عندما ترحل، فيفوز المرضى بالشفاء إن كانت البلوى علّة أو وباء، وكما يحملون الحاجة في أردانهم إن كانت البلوى فقراً.

في ذلك النهار احتدم الشجار طويلاً، وقد حاول العجوز النحيل أن يضع حدّاً للهرج فخاطب الجمهرة قائلاً إن العابر، كل عابر، هو مملوك من مماليك الخفاء ما دبّ في وطن العراء، ولا يصير العابر مخلوقاً من ذريّة الإنسان أو من ملّة الجان إلاّ ساعة يحتجب وراء الجدران، ولا يوجد وطن أحقّ بإيواء ابن الخفاء غير جدران الخفاء التي شيّدها الأسلاف من قديم الزمان لهذا الغرض، فسمّت الأجيال اللاحقة تلك الجدران معبداً. ولكن صوت العجوز ضاع في الهرجة المنكرة، فاضطرّ صاحب الأتان أن يتدخّل ليحسم الأمر. التجأ إلى حيلة صغيرة، ولكنها كما أتّضح فيما بعد، كانت حيلة داهية حقاً. قال المكابر في ظهيرةِ ذلك اليوم إن الإنسان مخلوق بليد، يتباهى بامتلاك كنز اسمه العقل، ولكنه لا يمتلك العقل، في حين سارت الدواب عكساً، لأنها امتلكت عقلاً أدهى، لأنها لم تتظاهر بامتلاكه يوماً، فاعرفوا، يا قوم، عقلاً لم تعترفوا به ولم تعرفوه، واتركوا الأمر للدّابة. تخلّت الأكف عن الزمام، فدبّت الدابة حتى توقفت عند طلول السّور المحاط بالمعبد القديم.

في تلك الساعة قفز صبي البشرة النحاسية ليقف أمام العابر راجفاً. تأمّل الضيف بعينين فضوليتين يفزّ من إحدى مقلتيهما

وسم غامض، ومدّ كفه المعفّرة بالتربان ومسحوق الغبار ليتناول طرف جلبابه الكئيب، ثم شرع يلفّ طرف الجلباب السفلي حول بنصره النحيل. أرتجّ فيه البدن كله كالمسكونين المغلوبين بسلطان الحنين عندما سأل بصوت محموم:

ـ هل أنت «وانتهيط» يا مولاي؟

حدّق فيه العابر ببلاهة. ويبدو أنه لم يفهم السؤال في البداية، لأن في العينين القاسيتين تولّد ارتياب خفيّ، ثم استفهام، ثم استنكار، ثم مزيج من الدهش والحيرة والسخرية قبل أن يستلقي في وقفته إلى الوراء ويتزلزل بدنه كلّه بضحكة منكرة دمعت بسببها عيناه الصارمتان، واسترخى لثامه حتى تكشّفت نواجذه. ثم توقف ومسح الدموع بردن جلبابه الفضفاض وتساءل:

ـ ما الذي حمَّلك، أيها الشقيّ، على هذا الظنّ القبيح؟

كان الولد النحاسي ما زال يلوي طرف جلبابه الكئيب حول بنصره عندما هبّ ليجيب بحماس:

ـ الأتان، يا مولاي، الأتان! أليست دابة مولاي أتاناً؟

تابعه العابر بفضول قبل أن يجيب بحِلْم الأقدمين:

ـ بعضهم يقول إنها أتان، ويجزم آخرون أنها بغلة، فإلى أي فريق ينحاز ولدي الشقيّ؟

حدّق الولد في عين الضيف بحثاً عن إيماء الاستخفاف، وعندما أعجزه البحث التفت إلى العجوز المنتصب إلى الجوار، ثم جدّ في طمس إصبعه بطرف جلبابه قبل أن يقول بلسان الشّك:

ـ الحقّ أني لا أدري!

ولكن الغريب تجهّم فِلتةً، وانحنى حتى لامس طرف لثامه السفلي فروة الغلام الشقيّ. تفحّص عين الولد بفضول المغامرين الذين شقّوا الصحراء طلباً للكنوز الجوفية، ويبدو أنه لم ينتبه لوجود الطلسم المبهم إلاّ في تلك الغمضة، لأن وميضاً خفيّاً التمع في مقلتيه الصارمتين، فسحب من كُمّه الأيسر يداً غريبة مدسوسةً في قطعة جلديّة كئيبة اللون، موسّمة بالطلاسم والألغاز والسيماء، أنزلها على رأس الصبي، ثم تسلّل بها، عبر الجبين، حتى توقفت عند جفن العين اليمنى حيث استقرّت العلامة. قال الصبي:

ـ فليهبني مولاي دابتة ولو لليلة!

تساءل العابر بصوت غائب:

ـ وما الذي ستفعله بها؟

ـ سأطعمها برسيماً طازجاً إكباراً لمولاي!

تقهقر في مقلة الغريب إيماء المهاجرين الأبديين، وتزعزع في صدره الوقار عندما تهدّج صوته بالقول:

ـ وأنا سأفعل ما شئت إكباراً لهذه العلامة!

5 ـ الدّاهية

تروي الأجيال أن صراع الدّاهيتين (داهية الإنس وداهية الجنّ) كان بسبب الكنز.

لم تتحدّث عن سجيّة هذا الكنز إلاّ قِلَّة الرواة، ولكن الكُلّ رووا سيرة العراك بفضول لم تعرف له القبائل نظيراً إلاّ في ملاحم البطولة التي توارثتها الأجيال عن شعراء المجهول منذ أزمان فطحل كانت فيها الأرض خالية، والحجارة رخوة، والإنسان في تيهه ما زال ينعم بالنسيان.

قالوا إن الداهيتين عندما اكتشفا الكنز الرهيب في صلد الجبل حاولا، في البدء، حسم الأمر بينهما بالحُسْنَى. باتا ليلتهما في سفح الجبل، تحت غار الكنز، ولكنهما لم يناما. تظاهر سليل الجنّ بالاستغراق في السبات، فتسلّل سليل الإنس وهمّ بأن يطعنه بمدية جنونيةّ، ولكن داهية الخفاء تصدّى للطعنة

بترس من حجر، ثم ضحك حتى تزلزل الجبل، وتدحرجت من شعافه العليا الحجارة عبر السفوح، وخاطب الخصم بالقول: «هل ظننتَ، أيها الأبله، أني سآمن إنسياً أنافسه على الكنز؟ ألا تدري أن أوّل وصيّة تلقي بها أمّهات سلالتنا في آذان ذرّيتنا هي الوصيّة التي تحذّر من غدر الأغيار، وجشع الإنسان، وعدم الاطمئنان إلى المخلوق الذي ننافسه على كنز؟ وإذا كان الغدر سلاح الإنسان، فإن الحذر سلاح الجان. بالغدر يخسر الإنسان، بالحذر يفلح الجان!». استسلم الإنسان. تخلّى عن الخصام، وقبل اقتسام الغنيمة. في الصباح خرج الخصمان إلى المراعي في بُغاء التحكيم. ساءلا الرعاة عن الدهاة والمعتزلة وكلّ من لمس الصحراويّون في مسلكه غرابة أطوار. اهتدوا، بعد طلب طويل، إلى حكيم بائد يهيم مع قطعان الغزلان في صحراء الحمادة الغربيّة. ساءلوه عن الانتماء وعن السلالة فضحك حتى اغرورقت عيناه بدموع حقيقية. كانتا صغيرتين مخفيتين وراء ستور من الغضون الفظيعة، ولكنهما ما زالتا تومضان بإيماء مجهول لم يعرفه الداهيتان إلاّ في عيون المخلوقات التي تفوقهما وتفوق كل المخلوقات دهاءً. لأن كلاهما جرّب أن الدّهاء هبة نفيسة حقاً، كلاهما جرّب أن الدهاء، كالنبوءة، أنفس الهبات على الإطلاق، ولكنها هبة

ناقصة دائماً، لأن المخلوق لا بدّ أن يكتشف أن فوق كل داهية داهية أدهى كلّما وسوس وحاول أن ينتزع بها لنفسه نفعاً. ولكنهما جرّبا أيضاً أن الهبة لا تفقد طلسمها أبداً عندما يتطوّع صاحبها لينتزع بها النفع للأغيار؛ فلم يكن أمامهما إلاّ أن يعلما أن الدهاء كالكنز لم يوهب ليستأثر به من وضعته الأقدار في يده، ولكن الدهاء، كالكنز، لم يُخلق ليناله من وجده، ولكن خُلق ليناله من وهبه. كفّ الداهية عن الضحك في ذلك اليوم، ومسح الدمع بطرف جلبابه، ثم سرح بعينيه عبر فراغ الخلاء الأبدي كعادة كل الدهاة عندما يجدّون في طلب النبوءة. انتظر الخصمان طويلاً قبل أن يعود الحكيم من سفره ويسمعا في فمه النبوءة: «أيّ أبله يسائل سليل الخلاء عن السلالة؟ بأي حقّ نرى الصحراء جزءاً إذا كان الخفاء قد أوجدها كُلاًّ؟ بأي علم أجزم أن هذا المخلوق إنس، وذاك المخلوق جنّ؟ كيف أستطيع أن أخبركما عن سلالتي إذا كنت لا أستطيع أن أخبر بغدي، ولا حتى بيومي، ولم أملك، يوماً، من أمري شيئاً؟ هل تصدّقاني إذا قلت لكما إنّي خسٌّ نصفه جنّ من ناحية الأم، ونصفه إنس من ناحية الأب؟ بلى، بلى. أنا خُسٌّ! أنا خُسٌّ! أنا خسٌّ! لا أعرف كيف اهتديت إلى هذا! ينبغي أن أنحر للخفاء قرباناً إذْ هداني إلى هذا! ها ـ ها ـ ها..». ركع سليل الإنس عند قدمي

الكاهن القديم وتكلّم بلسان الامتنان: «لا نملك، يا مولانا، إلاّ أن نحمد الخفاء، وننذر له قرباناً آخر إذْ هدانا إلى جلالة مولانا، لأن الخُسّ بغيّتنا!». تساءل الداهية القديم بلهجة ارتياب: «هل قلت إن الخسّ غايتكما؟ لماذا على الخُسّ أن يكون غايتكما أيها المخلوقان الشقيّان؟» هنا قرّر سليل الجان أن يتولّى الأمر فقال ساخراً: «لأننا، يا مولانا، ننتمي إلى سلالتين متخاصمتين أنكرهما المولى علينا!» اسكته الداهية بلكنة غضب: «احترس! لا تقل إنكما من سلالتين متخاصمتين أبداً! فما أنتما إلاّ جان يظنّ أنه إنسان، وإنسان يظن أنه جان!». بهت الخصمان. تبادلا إيماء الدهش، وجالا بالأبصار هنا وهناك، وفرّا إلى أبعد خلاء، ثم إلى أبعد سماء، ولكنهما لم يجدا مفرّاً من العودة إلى رحاب داهية الدهاة. تساءل داهية الجنّ: «هل يعني مولاي ما يقول؟». حدجه الشبح البائد بنظرة صارمة من عينيه الفتاكتين، ولكنه لم يجب. افترست صدر داهية الإنس وسوسة فكلّم داهية الأوّلين بلغة الأحاجي: «إن كان مولانا في شأن السلالة صادقاً، فليخبرنا بالسرّ، وليقل لنا بأي أمرٍ جئناه!». ساعتها تبسّم الشبح. تناول حصاةً وألقى بها صوب شاة غزال وقفت قبالته تجتر. سافر إلى الآفاق مرّة أخرى قبل أن يعود من المجهول بالنبوءة: «جئتماني في أمرٍ لن أحتاج

للنبوّة كي أكشف لكما عن سرّه، لأن الخصام لا ينشب بين الملل إلاّ لعلّة النفع!». احترق الأفق الشمالي بشرر البروق، ولكن قعقعة الرعد لم تُسمع. تكلم سليل الجنّ: «هل لمولانا أن يأتينا بحجّة أبْيَن؟» رمى الحكيم الغزال بحصاة أخرى. ولكن الغزال لم ينتهر، بل تقدّم من الشيخ وشرع يتمسّح بثوبه الجلدي البالي. احتضن الشيخ رقبته بذراعيه النحيلتين، وأغمض عينيه حتى غابتا في ثنايا جفنين موسّمتين بالغضون، ثم قال: «لن يختصم اثنان إلاّ على غنيمة! لن ينازع الإنسان قرينه الجان إلاّ على اللقية! لن يقاتل الجان قرينه الإنسان إلاّ على الكنز!». هبّ سليل الإنسان. هبّ سليل الجان. صاحا بصوت أجفل القطعان: «بمولانا آمنّا، وبه رضينا للقسمة بيننا حَكماً!». ولكن الشبح تخلّى عن غزاله وهبّ واقفاً أيضاً. رمى بحصاة أخرى في الفراغ، وتعلّق بالآفاق الشمالية المسربلة بأضواء البروق. قال أخيراً: «أخشى أني لن أستطيع أن أكون لكما عند حسن ظنّ!». خيّم السكون. سُمع رزّ الرعد البعيد لأوّل مرة. أضاف شبح الأقدمين: «مخلوق لم يخلق ذلك الذي يستطيع أن يقسم الكنز بين مخلوقين!». هتف الداهيتان بصوت واحد: «ماذا يقول المولى؟». ولكن داهية المجهول ألقى في الفراغ بآخر حصاة في يده، قبل أن يلقى في أذنيهما بآخر وصيّة: «لم

تُخلق الكنوز لتقتسم! الكنز الذي يقبل الاقتسام ليس كنزاً! الكنز سرّ، والسرّ لا يظلّ سرّاً إذا أشركنا به أحداً. فكفّا عن الطلب، وفتّشا عن حيلة أخرى لنيل الكنز غير حيلة القسمة!». ثم انطلق. انطلق بحيوية لا تتناسب من قدمته، فتبعه غزاله الخفيّ حتى أخفتهما هاوية وادٍ مجاور.

عاد الخصمان إلى جبل الكنز ليتشاورا في أمر الحيلة، ولكنهما لم يهتديا إلى هدنة ولم يجدا إلى الوئام سبيلاً. صار الكنز في قلبيهما بلبالاً، وانقلبت الرغبة في الاستيلاء على السرّ شهوةً ووسواساً وجنوناً. أعيتهما الحيلة، أخيراً، فاقتتلا. اقتتلا زماناً طويلاً. اقتتلا قتالاً مميتاً قيلت في ضراوته أشعار ملحميّة ما زالت تردّدها القبائل إلى اليوم. ولكن الخصمان لم يقتتلا قبل أن يضعا بينهما عهداً. قيل إنهما اتّفقا أن يتنازل المغلوب عن كنز الجبل، ويتخلّى له عن كنز النفس أيضاً. وبرغم غموض العبارة الأخيرة إلاّ أن دهاة الأجيال أجمعوا أن «كنز النفس» لم يكن شيئاً آخر غير السجيّة الأنفس التي دسّها الخفاء في قلب المخلوق عندما قرّر أن يبعث به إلى دنيا الباديات رسولاً. فصار، بموجب العهد، لزاماً على المغلوب أن يتخلّى لصاحب الغلبة عن أنفس خصلة من خصاله. ولمّا كان داهية الجنّ أشدّ

أهل الخفاء علماً بمزايا الإنسان، كما كان داهية الإنس أشدّ خلق الصحراء علماً بمزايا الجان، فقد تعاهدا، أيضاً، أن يشطرا العراك إلى نصفين: نصف يتقرّر فيه المصير بسلطان الجِرْم، ونصف يتقرّر فيه المصير بسلطان الدّهاء. تنازعا في أمر السلطانين أيضاً، ولكنهما احتكما إلى القرعة، فجاء الابتداء من نصيب سلطان الجرم، فتلاحما، وتصارعا صراع الفحول في مواسم قرع النوق.

في الزمان الأوّل لم تُكتب الغلبة لأيّ منهما. ولكن الميزان أختلّ في زمانٍ تالٍ، وبدأ جرم الإنسان يتزعزع ويتضعضع فاستمهل الخصم أمداً مستعاراً من بنود الميثاق المبرم بينهما. في زمن الهدنة هاما في الوديان، وسرحا في شعاب البريّة، وفرّق بينهما إغواء المسافة. ولكن داهية الإنس لم يبدّد المهلة عبثاً. استغفل خصمه والتجأ إلى صاحب القطعان. وجده يهجع عند أرومة رتمةٍ هرمةٍ فكلّمه الشبح الهزيل بلسان الكهنة ولا مبالاتهم أيضاً:

ـ هل لي أن أرحّب بسليل الجان الذي يحسب نفسه سليلاً لبني الإنسان؟

ـ حسبت مولاي مازحاً يوم أخبرنا بلغز السلالة.

ـ هل فاتك أن المخلوق المهجور لا يمزح أبداً؟

ـ كيف لا يفوتني أن المخلوق المهجور لا يمزح إذا كان قد فاتني أنّي أحمل في دمي سلالة الضدّ؟

ـ لا يستقيم الضدّ إلاّ بالضدّ. لا يصير الإنسان إنساناً إلاّ إذا حمل بين جنبيه جاناً، كما لا يصير الجان جاناً إلاّ إذا حمل في جوفه إنساناً.

ـ الحقّ أني اعتصمت بحرم مولاي جريا وراء أمرٍ آخر.

ـ لن أحتاج لامتلاك النبوّة كي أحدس أن الإنسان لا يقطع البرّ في طلب أخيه الإنسان إلاّ بُغاء حاجة.

ـ اعترف لمولاي بأنه أهلكني.

ـ حقّ لك أن تمرح، لأنّك لن تهلكه غداً إن لم يهلكك اليوم.

ـ ولكنه سيتمكّن منّي يا مولاي، وسيتمكّن الدّعيّ من الكنز إذا تمكّن منّي.

ـ سيتمكّن منك بالجرم، ولكنّك ستتمكّن منه بالعقل.

ـ ولماذا على الداهية أن يتمكّن مني بالجرم؟ أيّ سرّ في جِرم هذا الكائن الذي لا جِرم له؟

ـ الجِرم القويّ في الجِرم الخفيّ. هل نسيت؟

ـ ولكنه قويّ يا مولاي. آه ما أقواه يا مولاي! الحقّ أنه ليس قوياً فحسب، يا مولاي، ولكنه مميت. بلى، بلى. بدن هذا المخلوق مميت يا مولاي.

ـ قوّة الجنّ من قوّة الخفاء. هل نسيت أن خصمك جنّ؟

ـ لم أنسَ يا مولاي، ولكني لا أخفي على مولاي غروري بقوّتي التي لم ينازعني فيها أبطال الصحراء، وذاع صيتها بين القبائل.

ـ تستطيع أن تتباهى بقواك بين الناس، ولكن كيف سوّلت لك النفس الكريهة أن تتباهى بالقوى أمام الخفاء؟

ـ لقد حسبنا أننا نستطيع أن نحتال وننال الكنز بالقسمة أو بأيّ حيلة غير القتال، ولكن مولانا أخبرنا بسرّ الكنز الذي لا يقبل الاقتسام، فلم أجد حيلة للاستيلاء على الغنيمة غير العراك.

ـ من هُزم بالجسد، غلب بالخيال.

ـ ماذا يقول مولاي؟

ـ قوّة البدن بهتان، وقوّة العقل سلطان.

ـ ماذا يريد مولاي أن يقول؟

ـ الإنسان قويّ بالعقل، ضعيف بالبدن، والجان قويّ بالبدن، ضعيف بالعقل.

ـ ماذا يقول مولاي؟

ـ هذه قسمة الأزل، هذه قسمة الأصل: أودع الخفاء في الضدّين سرّاً، فنال الإنسان نقطة ضعفه بما ظنّ أنه قوّة، ونال قرينه الجان نقطة ضعفه بما ظنّه سرّ قوة.

ـ هيهات أن يفهم الإنسان أحاجي الكهّان!

ـ صار الإنسان أضعف الكائنات بجِرم صيّره جزءاً من جِرم الباديات، وصار الجان أقوى المخلوقات بجرم صيّره جزءاً من دنيا الخافيات.

ـ ما زال عقلي، يا مولاي، يتبلبل.

ـ بالبدن ذهب الإنسان إلى الباطل، بالتحرّر من الجسد ذهب قرينه الجان إلى الخلود.

ـ عجباً أسمع.

ـ ولكن هبة العقل قلبت الأمر رأساً على عقب.

ـ ماذا؟

ـ بالعقل ذهب الإنسان إلى الخلود، بالتحرّر من العقل ذهب الجان إلى النسيان.

ـ عجباً!

ـ السرّ، كما ترى، ليس فيما يُرى، ولكن السرّ، كلّ السرّ، فيما لا يُرى.

ـ مرحى!

ـ إذا غلبك القرين اليوم بسلطان الجِرم، فاستعن عليه غداً بسلطان الدهاء!

ـ هذا دهاء لا يخطر على بال إنسان، فهل مولاي إنسان أم جان؟

ـ وهل ترى فرقاً بين إنسان يحسب نفسه جاناً، أم جان يحسب نفسه إنساناً؟

ـ فليغفر لي مولاي. كدت أنسى وصيّة مولاي.

ـ في داء النسيان يكمن هلاك الإنسان، فاحترس!

هبّ واقفاً بخفّة الجنّ، وانطلق وراء قطيع الغزلان دون أن يلقي له بتحيّة الوداع. اجتاز أَكَمة هزيلة قبل أن يبتلعه الفراغ.

اختفى الحكيم فعاد الداهية على عقبيه. في السبيل قرّر أن يستخدم رأسه ويحتال في جولة العراك التالي. تساءل عن السبب الذي منعه من الاحتيال ما دام الناموس يبيح له استعمال هبة العقل، فتذكّر أخاه الذي نشأ عاشقاً للأنصاب، منكبّاً على

الدُّمى، مُنهمّاً بالألعاب، يمضي نهاره بين أصنامه الخشبية العجيبة ويبيت ليله بين آلهته التي حبكتها يداه حتى ذاع صيته بين الأقران، وتناقلت الألسن أمر عشقه المريب، فما لبث أن نُعِتَ بغرابة الأطوار، وخلع عليه القوم، لهذه العلّة، لقب «الأبله»، برغم أنّهم اعترفوا له بالتفوّق، مع مرور الزمان، وافتتنوا بتلك الأصنام البديعة التي اعتاد أن ينحتها من عيدان الأحطاب ويركّبها بمهارة، ويلبسها أثواباً من قطع الجلود وخرق الكتان، فيبدع من هذا اللّهو أجراماً مدهشة أيقظت حسداً في نفوس الكثيرين. وبرغم الافتتان ببراعة صاحب الأجرام إلاّ أن الموهبة لم تعصم الشقيّ من الاستنكار، لأن أهل الصحراء ملّة، ككلّ الملل، يمكن أن تغفر كل شيء (يمكن أن تغفر حتى الجُرْم)، ولكنها لا تستطيع، بسليقتها، أن تغفر الانهمام بأي شأن من تلك الشؤون الغامضة التي تختلس المرء من نفسه وتستولي عليه إلى الحدّ الذي يخرج فيه من ساحة القبائل ويرتمي في أحضان هاوية انقطاع تستبدل المخلوق وتصيّره، في أعين الأغيار، غريباً. وشقيق الداهية انتمى لهذه السلالة مبكّراً. فلم يكن المسكين يرى في الصحراء الأبديّة شيئاً غير الدمية. ويُقال إنه كان يستيقظ في الفجر الملفوف بالظلمات، عندما كان في المهد صبيّاً، ليستبق الرعاة إلى المراتع. هناك يختلي بنفسه

في الأحراش، يتغنّى بلحونٍ خفيّة، ينتقي عيدانه بعناية العشّاق، ولا يعود من الرحلة إلاّ وقد استقطع أصنافاً سخيّة من شتّى الأشجار. يترك أهل البيت، يفرّ من الأنداد، ويتستّر بأركان الأخبية ليبدأ إبداع سيرته المجهولة بأعواد الأحطاب. في البدء لم يأبه لانهمامه أحد. بل بارك الكلّ هذا الانهمام، لأن الصّبا هو من وهب الأولاد حقّ اختيار ألعابهم، فلم يلحظ أحد كيف ابتلعت الدمية الولد إلاّ في اليوم المشؤوم الذي اكتشفت فيه القبيلة غولاً عندما خنق ولداً شقيّاً عبث بألعابه في غيابه، فمات بين يديه. يومها وجد حكماء القبيلة فرصتهم للاستشهاد بالناموس الضائع فقالوا إن الانهمام بالأشياء الخفيّة ليس وسواساً فحسب، وليس علّة منكرة فحسب، وليس هوساً عابراً أيضاً، ولكنه جنون مميت. حاولوا أن ينزعوا الدّاء من رأس الشقيّ بحرق رأسه بالنّار، ثم قيّدوه بحبال المسد ورموه في حريق الظهيرة أياماً بلا غذاء وبلا ماء. طوّقوا صدغيه بعصاتين متوازيتين، وانهالوا على العصاتين بالهراوة ليقتصّوا منه على طريقة الأوّلين، ولكن أسيرهم الأبله لم يقلع عن بلاهته، ولم يتخلَّ عن سرّه. فكّوا وثاقه عندما يئسوا، فعاد العاشق إلى دنياه. وكلّ ما استطاع القوم أن يفعلوه لتجنّب تكرار مصاب جديد هو التحذير من الاقتراب من ألعاب كانت إلى وقت قريب

ألعاباً ككلّ الألعاب، ولكن المغالاة صيّرتها ألعاباً مميتة. انتبه القوم صغاراً وكباراً لخطر لم يألفوه في اللّعب، واجتنبوا الأركان التي اعتاد فيها العاشق أن يتخذها ساحة لنصب أصنامه.

وعندما احتدم الصراع في ذلك الزمان بين الداهية وخصمه، وتدافعا في قيعان الوديان، وصعدا سيوف الروابي، وغاصا في منحدرات الكثبان، وتمرّغا في غبار السهول، تعمّد داهية الإنس التراجع إلى أركان الخطر التي تجنبتها القبيلة، واتخذها شقيقه الأبله أرضاً يأوي فيها مخلوقاته الأبديّة. لم يتحدّث الرواة عن القهقرى اللئيمة بالتفصيل، ولكنّهم أجمعوا أن داهية الإنس (الذي استنار بوصيّة الكاهن وقرّر أن يستخدم كرة الحنظل المثبتة بين منكبيه) لم يوقف تراجعه الخبيث إلاّ في الساعة التي دهم فيها، مع خصمه المارد، حرم الألعاب، ومضى يداور ويخاتل، ليستدرج الغريم، ليرمي بالعدوّ في قلب المعبد المكتظّ بالآلهة المميتة. ويُقال إن الشقيق لم يرفع رأسه عن آلهته طوال الصدام. كان يطلق هتملة بصدره، ويروّض لحونه الشجنيّة (التي قيل إنها ليست سوى ابتهالات إلهيّة استلهمها من دنيا الخفاء منذ كان في المهدّ صبيًّا)، ولم يفق من غيبوبته الأبدية إلاّ في الساعة التي دهس فيها مارد الجنّ الحرم

بقدميه مدفوعاً بهجمة بطوليّة من الخصم، فلم ينتهك الحرم فحسب، ولكنه داس دميةً بهيّة ملفوفةً في أردية كتانيّة زرقاء، فجُنَّ جنون المريد، وانطلقت في جوفه جحافل مردة أعتى من مردة الجنّ، فزلزل أركان الصحراء بصيحة جنونيّة، ثم وثب ليمسك عنق مارد الجنّ بكفّه اليمنى، وعنق شقيقه بالقبضة اليسرى، وشيّعهما في الهواء كما يشيّع الرعاة الجداء الوليدة. لم يكتفِ الوحش بتشييعهما في الفراغ فحسب، ولكنّه بدأ ينفضهما نفض الثياب وهو يزأر زئير السباع، حتى أيقنا بالهلاك، ثم طوّح بمارد الجنّ بعيداً، فطار الداهية في الفراغ طويلاً قبل أن يهوي في قاع التيهورة، ثم طوّح بالشقيق أيضاً، فطار طيران الطير قبل أن يهوي إلى الأسافل ليجد نفسه صريعاً بجوار خصمه في التيهورة الظلماء.

غاب الداهيتان في المجهول زمناً، وعندما أفاقا وجدا نفسيهما مطروحين في قاع تكشكش فيه الأفاعي، محطّمين، مستنزفين، داميين، يئنّان، ويجاهدان ببسالة لالتقاط الأنفاس. مكثا في الظلمات زماناً، وفي اليوم الذي تمكنا فيه من الخروج من ذلك القمقم الفظيع، انتصب فوق رأسيهما الشبح القديم. سمعاه يهأهىء ويغالب ضحكةً حقيقية لم يعتادوا سماعها من فم

مخلوق حكيم. ولكن الشبح تكلّم أخيراً.

ـ يسرّني أن أرى سليل الإنس الذي يتنكّر في جرم جان، وسليل جان يتنكّر في جرم إنسان، كما يسوءني أن أراهما وهما قعيدي الاستهانة بالوصايا. هيء ـ هيء.. الاستهانة بالوصايا دائماً فعل قبيح!

تحامل سليل الإنس على نفسه فتكلّم:

ـ لم أتجاسر على الاستهانة بالوصايا يوماً.

ـ النسيان آفة الوصايا، وقد فاتك أن الأخ أيضاً ينقلب عدوًّا عندما يتعلّق الأمر بالألعاب.

ـ الألعاب؟

ـ الدمية كنز الإنسان في هذه الأرض، ومَنْ مسّ دمية الإنسان بالسّوء، فقد مسّ صاحب الدمية بالسّوء.

ـ ظننت أن أخوّة الدّم رباط أقوى من كل رباط.

ـ أخطأت! الدّم رباط قويّ حقًّا، ولكن رباط الدمية أقوى!

ـ أيعقل هذا؟

ـ اللهو ليس فردوس الإنسان فحسب، اللهو ليس ربّ أرباب الإنسان فحسب، اللهو ليس رسالة الإنسان فحسب، ولكن

ألم تعلم أن اللهو هو الإنسان نفسه؟

ـ ظننته أبلهاً يا مولاي. أعترف، يا مولاي، أنّي راهنت على بلاهة الأبله!

ـ هذا خطأ أفظع! الأبله ينقلب مخلوقاً أدهى من أدهى الدهاة عندما يتعلّق الأمر بألعاب صارت له أرباباً، ويستميت للدفاع عن الأرباب كما لا يستطيع الأغيار أن يستميتوا، لأن البلهاء (أو تلك المخلوقات التي نعتقد أنها بلهاء) أمّة لا تعترف بشيء غير ما ملكت اليد، لأن البلهاء استودعوا أنفسهم ما تعشقّوا منذ أوّل يوم، ولا يتخلّون عن غنيمتهم إلاّ إذا هلكوا؛ وهم لا يهلكون بيسر لأن استبسالهم استبسال أهل اليأس الذين لا بد أن يغلبوا لأن حياتهم ليست سوى هزيمة.

ـ ما أعسر الاشتباك يا مولاي. ما أعسر أن نحيا!

ـ لا يصير لنا عبئاً إلاّ مَنْ حسبناه عوناً، ولا نُقتل إلاّ بيد عدوّ أمِنّا جانبه لأننا حسبناه صديقاً.

ـ ما أبشع هذا!

ـ لا نموت بيد الأعداء. لا نموت بيد الغرباء. ولكننا نموت بسواعد أقرب الأقرباء، فاحترس!

ـ لا نموت بساعد مَنْ نخشى، ولكنّا نهلك بساعد مَنْ أمِنّا.

صدق مولاي!

ـ وأمّا أنت، يا سليل الإنسان الذي يحسب نفسه جاناً، فقد اقترفت ذنباً لا يغفره ناموس الجنّ.

ـ عن أي ذنب يتحدّث مولاي؟

ـ سحق ألعاب الأغيار أمر، وسحق ألعاب البلهاء أمر يختلف.

ـ وهبني الخفاء قوّة يا مولاي، والقوّة سلطان أعمى!

ـ في صدور البلهاء قوّة تفوق قوّة الجان، فاحترس!

ـ هذا ما لم أكن لأعلمه يا مولاي لولا رمية هذا المخلوق الفظيع. اعترف أن تلك قوّة لم أعرفها لا من إنس ولا من جان قبل اليوم، فأين السرّ يا ترى؟

ـ السرّ في اللعب. السرّ دائماً في اللعب!

ـ عجباً!

ـ الألعاب سرّ الدهاة. الألعاب كنز البلهاء!

ـ عجباً.

ـ كيف تتعجّب إذا كنت تقاتل قرينك دهراً على الكنز الخَفيّ؟

- صدق مولاي.

- اجتنب دمية الإنسان إذا شئت أن تصرع الإنسان. إليك عن ألعاب الإنسان إذا أردت أن تغلب الإنسان.

- ولكنّي كيف اجتنب عراك الإنسان إذا كنت على يقين من قوّة لم يهبها الخفاء للإنسان؟

- لا تراهن على قوّة الأبدان، لأن الأجرام تزول، ولكن في الصحراء سرّ لا يزول بزوال الأجرام.

- القوّة قدر الجنّ، لأن الجنّ بغير قوّة ليس جنًّا.

- أخشى أنّك لن تجد إلى الغلبة سبيلاً إذا راهنت على سلطان زائل اسمه القوّة.

- هذا يخالف السجيّة.

- القوّة شيء آخر. القوّة دوماً في وطنٍ آخر.

- رسالة المخلوق استخدام سجيّة كانت له قدراً منذ القدمة الأولى.

- رسالة المخلوق أن يُهزم أيضاً بغُلّ القدرة الأولى.

- هل يلقي مولاي في أذني بالنبوءة؟

ـ رسالة المخلوق أن يُهزم بغلّ القدرة الأولى.

ـ هل في جعبة مولاي نبوءة أخرى؟

ولكن الشبح اختفى.

اختفى الشبح فتلاحما واشتبكا في عراك أشدّ ضراوة. حققّ داهية الإنس غلبة باهرة في جولات الأزمان الأولى، ولكنّه لم يستطع أن يستدرج الخصم إلى ساحات شقيقه الشقيّ مرّة أخرى خوفاً من تعريض حياته للخطر، فاعتمد على قواه، وعلى تضعضع سليل الجان أثر الشلل الذي اعتوره من جرّاء المسّ الذي أصابته به يد الأبله الرهيب. ولكن مفعول المسّ لم يُقدّر له أن يبقى إلى الأبد، فاستعاد المارد قواه في الزمان التالي، وتولاّه بعنف جديد لم يتمكّن من صدّه زمناً طويلاً، فتراجع، وخار، وانهار.

انهار بعد عراك بطولي دامٍ، فلم يجد سبيلاً إلاّ التسليم. سلّم بهزيمة الأبدان، ولكنّه استعاد الوصيّة، فاحتكم إلى سلاح العقل. حرقت تلك الصرخة المميتة التي أطلقها خصمه عندما اعتلى صدره، فآلى على نفسه أن ينتقم. ولولا الاستفزاز، لولا المرارة، لولا الشهوة إلى الثأر، لما اشتعل شرر الإلهام يوماً، ولما تنزّلت في الأعماق الوصيّة الضائعة، ولمّا هام في الخلوات

أزماناً ليتلقّى النبوءة من المجهول، ويذهب إلى الخصم الكريه ليلقنه الدّرس بالأحجية القاتلة: «مخلوق يزحف على أربع في اليوم الأوّل، ويدبّ على اثنتين في اليوم الثاني، ويسعى على ثلاث في اليوم الثالث. فَمَنْ هو؟». بدأ حساب العقل، فكان حساب العقل أعسر من حساب البدن، وأعسر من كلّ حساب. هام سليل الخفاء طويلاً، وفتّش في رأسه الخاوي أمداً أطول، وحطّم جمجمته على جدران الكهوف، وعوى بسبب الفجيعة كما تعوي الذئاب، ولكنه لم يستطع أن يفكّ الطلسم، ويهتدي لسرّ الكائن الخرافي الذي يؤكّد اللغز الماكر أنه يزحف في اليوم الأوّل على أربع، ويدبّ في اليوم الثاني على اثنتين، ويسعى في اليوم الثالث على ثلاث. طلب المارد مهلة، وعندما انقضت، توسّل الخصم أن يستنسئه أزماناً أُخر، وكلّما تعاقب الصريم تلو الصريم، ازدادت الأحجية غموضاً، فئس بعد أجيال، وتمرّغ في التربان كلديغ الثعبان، وتوجّع بأنين زعزع أركان الأجبال، ثم.. استسلم. لم يكن تسليم مارد الجنّ ليشبه تسليم مارد الإنس، ولكنه تسليم من جنس آخر لم يكن ليدرك سرّه إلاّ من عاشر سلالة الجن زمناً طويلاً: ركع عند قدمي الغالب، وحثا التراب على فروة رأسه، قبل أن يخاطب البطل قائلاً إن الفرق بين سلالة الإنسان وسلالة الجن يتجلّى عندما يقبل الموت:

الإنسان يموت وهو يريد أن يحيا، والجان لا يموت إلاّ ساعة يريد أن يموت. فما أنبل اليوم الذي نموت فيه. وما أعسر يوماً نولد فيه! قال له أيضاً إن شريعة الخصام قضت أن يستعير الغالب أنفس ما يمتلك المغلوب، والجنّ ملّة لا تستطيع أن تهب مخلوقاً ينتمي إلى ملّة الإنس إلاّ خلودها، لأن المغلوب لا بد أن ينال من الغالب أيضاً هبة، ولكنها لا بد أن تكون هبة يراها صاحب الهبة أرذل ما امتلك، ولا شيء أرذل عند الإنسان من ذلك الغول الذي يطارده كظلّه ويسمّيه فناءً. فهنيئاً للغالب بخلوده، وهنيئاً للمغلوب بفنائه! يومها نال ابن الإنسان خلوداً أمهله في حياة الباديات أجيالاً، ونال سليل الجنّ فناءً حشره في قمقم الجرم الزائل أجيّالاً. نال ابن الإنسان، بالدهاء، ما خسره ابن الجان بالجسد.

ذهب الإنسان ليستردّ كنزه المدفون في غار الجبل، فسبقه إلى المكان سليل الجان الذي تنكّر في جرم الأفعوان، وذهب ليقف حارساً على كنز الجبل. ولكن ابن الإنسان لم يكترث، لأنه عرف أنه بالغلبة، حقّق خلوداً سيحيا بموجبه ما شاء أن يحيا، ولن يموت إلاّ إذا أراد أن يموت، لن يموت إلاّ إذا أهلكه الضجر ودفعه لخيار الموت دفعاً. ذلك أن الإنسان

المجبول على النسيان بالسليقة لم ينس وصيّة الناموس التي تقول إن الموت أنبل ما خلقه الخفاء تحت قبّة السماء، ولو لم يُختلق الموت، لمات الإنسان بسبب غياب الموت. لو لم يُخلق الموت، لهلك الإنسان بسبب ضجرٍ لا ترياق له إلاّ الموت. وها هو يتحرّر أخيراً فيحيا ما شاء له أن يحيا، ويهلك في الزمان الذي ينقلب فيه الضجر قصاصاً أقسى من الموت. قال لنفسه إنه، منذ اليوم، سيصير إلهاً خالداً، ولن تحاسبه لا الصحراء ولا السّماء لا على خير، ولا على شرّ. بل يستطيع أن يختار خيراً إذا رأى أن الخير أبهى أو أجدى، ويستطيع أن يختار شرًّا، إذا رأى أن الشرّ أجدى أو أبهى. ويجمع الرواة أن الفضل في ترجيح كفّة الخير في قلب هذا المخلوق يرجع إلى الصّدى. ذلك أن الإنسان صرخ عند حضيض الجبل بأعلى صوت: «فلتسمع يا ملكوت السماء! فلتشهد يا ملكوت الصحراء! أنا سليل الإنسان، قررت منذ اليوم أن ارتكب شرًّا، وأسفك دماً، وأزرع في الأرض الفساد، فهل من منازع؟».

تمخّض الجبل فولد النبوءة، وزلزل أركان الصحراء بالنّداء المنكر: «فلتسمع يا ملكوت السماء! فلتشهد يا ملكوت الصحراء! أنا سليل الإنسان، قرّرت منذ اليوم أن ارتكب شرًّا،

وأسفك دماً، وأزرع في الأرض الفساد، فهل من منازع؟». النداء أفزع الإنسان، وعرف أن الشرّ عمل قبيح، فجرّب النداء المضاد: «فلتسمعي يا سماء، ولتشهدي يا صحراء، أنا سليل البَرّ، قررت منذ اليوم أن أسكن الأرض، وأحقن الدّم، وأزرع الصحراء حُبًّا، فهل من منازع؟». تمخّض الجبل مرّة أخرى وولد النبوءة الجليلة، فتغنّت أركان الصحراء بالنداء النبيل، فطرب قلب الإنسان، ووجد النداء حَسَناً، والصدى بهيًّا، فبكى، ورقص، وركع ليقبّل قدم الجبل الجليل الذي قبّح له الشرّ في النداء، وزيّن له كل فعل حَسَنٍ عندما تغنّى بأنشودة الحنين التي اصطفاها المريد لتكون لأجيال الصحراويين لحناً يروي الظامئين الذين صرعهم الحنين والفَقْد، وتداوي الممسوسين الذين بلبلهم الفوز والوَجْد. ويُقال إن الكنز الخفيّ هو الذي تكلّم في نداء الجبل في ذلك اليوم المجيد، لأن الكنوز لا تصير كنوزاً حقيقيّة إذا لم تنطق بالحقّ، فتقبّح القبيح، وتحسّن الحُسْن. قالوا أيضاً إن الداهية القديم لم يندفع في ذلك التاريخ البعيد ليشيّد في الصحراء الواحة إلاّ استجابةً لإلهام الكنز الخفيّ الذي سمعه يتكلّم في نداء الجبل الرهيب. قيل بعدها إن الداهية شوهد في زمان آخر يجوب الوديان السفلى، يعتلي الآكام، ويتمسّح بالأحاضيض، يصدح بأغاني الشجون بأعلى

صوت، يفرّك يديه احتفاءً بانتصاره على خصمه القديم، تلتمع مقلتاه بوميض الشهوة إلى الخلود، وفي قولٍ آخر، بالشهوة إلى الفوز بالكنز، وفي قول ثالث، بالشهوة إلى تضييع الأثر. ثم.. ثم جاء زمان آخر غاب فيه الداهية طويلاً ليعود من منفاه المريب بحيل السحرة الذين تعلّموا كيف يفرّون من أيدي أعدائهم بالتخلّي عن أجرامهم والتخفّي في ظلالهم. احتال الداهية أيضاً فاستعار بدن الأفعوان الفظيع ليضلّل البلهاء وليضمن نيل كنزٍ اسمه الخلود. ولا يزال حكماء بعض القبائل يردّد الزعم القائل إن زعيم اليقين لا وجود له بين جدران حصنه الجبليّ المنيع، والجرم البائد الذي يراه الناس زعيمهم مخلوق بئيس لا يختلف عن بقية الخلق، لأنه ليس سوى دمية جوفاء لا تملك من أمرها شيئاً كبقية الخلق برغم أعوامها التي سلخت من عمر الزمان أجيالاً.

6 ـ السّعادة

لم يبخل أهل واحة بالقرابين.

نحروا، على شرف الضيف، أنعاماً سخيّة، وأراقوا على طلول الحائط القديم دماً جزيلاً، لأنهم تمثّلوا وصية صاحب الحظوظ الذي سكن صحراء الجوار يوماً، وسعت إلى يده الكنوز التي غاب سرّها حتّى عن السحرة والعقلاء وأصحاب الإلهام. أورد الخبر أنّه استيقظ يوماً فوجد السماء عارية، حميمة، تتنزّل وتقترب حتى أيقن أنها ستلامس البيداء، فأغمض عينيه إجلالاً وفزعاً لأنه أدرك مدى العسر الذي تخفيه البشارة ساعة اللقاء مع السماء، وأحسّ بالوجع الذي ينتظر صاحب قلب تمخّض عن النبوءة. لا يدري أيّ زمن استغرق الإغفاء، ولكنه لم ينسَ إحساساً عرفه بعد انقشاع الوحي: ابتعدت السماء، وعادت لتستقرّ في وطنها الخالد. لم تبتعد السماء فحسب، ولكنها استعادت السيماء الأبدية فوجدها نائية،

صارمة، مستكبرة، لا مبالية؛ فاكتأب للفراق، وانقبض القلب بالغمّ برغم النبوءة، ولكن نشوة اللقاء لم تتقشّع، بل صارت مِلْكاً إلى الأبد، ملكه الوحيد الذي لم يكن، لولاه، ليعرف ما تسمّيه الأقوام سعادة حتى في الزمان الذي أعقب الوحي، وفتحت فيه الصحراء قلبها لتهبه كنوزها من دون الخلق جميعاً. وربما كان ذلك الانتشاء الغامض سرّاً لجوده الشهير، وبديلاً عن السرور المزوّر الذي يستشعره أولئك الذين جرت في أيديهم الخيرات الأرضية. ويقال إن صاحب الحظوظ السماوية وُلد في تلك الإغفاءة ليهب، بل جاء، منذ تلك الوهلة، رسولاً ليحوّل الحجارة ذهباً، ويزرع الأرض نبتاً وكلأً وكمأً أينما وضع قدماً: كانت كنوز الصحراء تسعى إلى يديه سعياً، فيستخرج التبر ليهبه للعابرين وأبناء القبائل وأصحاب السبيل، وتتكاثر أنعامه تكاثراً لم تعرف له أمم الصحراء مثيلاً، فيمنح ما وُهِب، ويعطي كل ما أُعطي. وكلّما أعطى تضاعفت في المراعي قطعانه، وكلما مَنَّ على الأغيار بالكنوز تسابقت إليه الكنوز، حتى اضطرّ أن ينقطع ويعتزل ويستجدي الخفاء قائلاً إنه لا يريد في الصحراء شيئاً غير شفاء القلب الذي ذاق طعمه يوماً، وسمع الأمم الصحراويّة تسمّيه في رطاناتها سعادةً. ويقال إنه قال إن القربان ليس أن تهب نصيباً مما وُهِبت، ولكن القربان هو أن تجعل كل

ما امتلكتَ قرباناً، فتهب كل ما ملكت يداك، لأن صفاء القلب كنز لا يُنال إلاّ بغسل اليد من كلّ ما امتلكت اليد. ولكن وسواساً لئيماً ظلّ يوشوش له بضرورة أن يجرّب الامتلاك طوال تلك الأعوام، فاستبعده ببسالة الأبطال برغم لجاجة الهتاف، واستعان عليه بالبذل، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي انتابته فيه إغفاءه خبيثة، فغاب قليلاً وذهب في الرؤيا بعيداً، وعندما استيقظ، وعاد إلى أجناب الوطن تساءل بفضول الدهماء: ما يعيب في التجريب؟ وأيّ خطل في استطعام اللقمة؟

زعزعه النداء المجهول، ولكنه لم يستسلم بيسر. كان يذهب بعيداً كلّما غفا، ولا يستيقظ من غيبته المشبوهة إلاّ ليلقي على نفسه السؤال: ما يعيب في التجريب؟ وأيّ خطل في استطعام اللقمة؟ فيذهب ليغالب النداء بالجود بما ملكت يداه، والتنصّل حتّى من حقير المقتنيات، وبوائد الأثواب، وقطع التمائم، فمشى في الفلاة حافياً، حاسراً، مجرّداً من حصون السِّحْر حتّى استفزّ أهل الخفاء، ونال منه مردة الجنّ. ظنّه الخلق شقيّاً، ورموه بالمغالاة في بادىء الأمر، ثم ما لبثوا أن اشتطّوا، كعادة الأنام دائماً، فرجموه بالجنون. كان يدبّ في الخلاء حافياً، عارياً، ظامئاً، جائعاً، ليستخرج لهم من الجوف

كنوز التّرباء، ويحوّل الصلد سبائك من ذهب بلمسة الكفّ، ويقلب كثبان الرمل تبراً إبريزاً، ويقايض معادن البيداء بالبضائع والحبوب والغلال التي تحملها القوافل القادمة من الشمال أو العائدة إلى الجنوب ليهبها لأبناء الصحراء. ولكن الملّة الصحراوية لم تكفّ عن الاستخفاف بمسلك صاحب الحظوظ، بل تمادت في نكرانها فسلّطت عليه صبيان القبائل ليرجموه بالحجارة، وأطلقت السفهاء فلاحقوه بأرذل الألقاب، ولم يهنأ بال القوم إلاّ في اليوم الذي تمكنوا فيه من صاحب الإحسان، فأغاضوه إلى حدّ سلّم فيه الزمام، وقرّر أن يرمي بنفسه في اليمّ ويجرّب تربية المال.

اشترى بالكنوز قطعاناً، وقايض العبيد بالذهب، وابتاع الحسان والأعوان والأتباع والمتاع، وسيّر القوافل إلى أرباع الصحراء الأربعة، فصار في زمان يسير أثرى أثرياء الوطن الصحراوي كلّه، ولم يمض سوى زمان أيسر عندما امتلك الصحراء بأسرها، فدانت لسلطانه القبائل، وخضعت لملكه الممالك، وبايعته أقصى أمم الأرض على البادية ملكاً وحيداً. نال صاحب الإحسان مجداً، وقال الشعراء في مدحه الملاحم، وتغنّت باسمه مغنيات الأقوام كلّها، فنال الإنسان البائس الذي

كانت العشائر ترميه بالخبل سلطاناً على كلّ الأرض، وصار محرّماً على المخلوقات أن تأتي على ذكره دون أن تسبق الاسم بلقب «مولانا». ولكن ماذا بشأن الطلسم القديم الذي تسمّيه الألسن سعادةً؟ الحقّ أن صاحب السلطان كان قد نسي هذه التميمة الغامضة منذ ذلك اليوم الذي تخلّى فيه عن السّخاء وقرّر أن يصير من أصحاب الأملاك. ولم يسترد السرّ من مارد النسيان إلاّ في ذلك اليوم المشؤوم الذي نزل عليه رسول الأبديّة ضيفاً ليستصحبه في رحلة الأبديّة. قيل إن الرسول خاطبه ببيان الأحاجي في بادىء الأمر، ولكن سلطان الزمان كان قد نسي هذا اللسان أيضاً، فاضطرّ الرسول أن يحتكم إلى لغة الدهماء عندما أسمعه قولاً مبتسراً: «وُهِبت فوَهَبتَ، استَبدَلْتَ، فاستُبدِلتَ». تفكَّر سلطان الزمان طويلاً، طويلاً، وعندما استرجع الذاكرة، عرف أنه زلّ وسار في التّيه طوال ذلك الزمان. اكتشف، أيضاً أنه عاش مبلبلاً، غائباً، محموماً ومسموماً طوال ذلك الزمان. اكتشف (وهذا أسوأ ما في الأمر) أنّه لم يحيا على الإطلاق، فبكى. بكى حزناً على الصفاء الضائع المسمّى بألسنة الأقوام سعادةً، ولكن بعد فوات الأوان؛ لأن الحبل انقطع، وميعاد الرحيل قد حان، فخرج. خرج ليشيّع الرسول الخفيّ، فذهب، ولم يعد إلى الوراء قطّ.

من أهل الصحراء استعار أهل الواحة العهد الجليل الذي كبّلوا به أنفسهم، منذ ذلك التاريخ، بنحر القرابين إكباراً للسابلة والعابرين ورسل المجهول.

7 ـ الحقول

رحل بالأتان إلى الحقول، فتحلّق الصبيان حول الدّابّة طوال الطريق. كانوا يتهارجون حولها، ويتدافعون على جانبيها ويتنافسون في الفوز بلمسها، أو مداعبتها، أو إطعامها بحفنات التمر، أو قبضات الشعير، أو ربطة عليق أو برسيم أو قضب، ولكن الدّابّة الخفيّة لم تكترث؛ ولم تستجب لدعابات الصغار، كما لم تلتفت لقبضات الإغواء التي لوّحت بها أيديهم. مضت تدبّ بكبرياء لا مثيل له في سلالات الدواب، تتخذ من الوجوم قناعاً يماثل أقنعة السحرة والرسل والعابرين الخالدين الذين استمرأوا المنافي فصار لهم السبيل وطناً أبدياً؛ تطلق بين الحين والحين بمنخريها صوتاً منفراً كأنّها تستنكر أمراً، وتحدّق في الفراغ بعينين كحلاوين موسَّمتين بإيماء كإيماء المجهول في عيون أولئك الدهاة الذين يروق لهم أن يتسكعوا في أركان الصحراء ويطوفوا نجوع القبائل متنكرين في أثواب الإنس. ولم

يكن عسيراً حتى على الصغار أن يكتشفوا في تجاهلها لقرابينهم، وعدم اكتراثها بالكائنات، شأناً مريباً، وسرّاً منكراً حاول أحدهم أن يعبّر عنه بقول طفولي، ولكنه بدا في ذلك الموقف نبوءة حقيقية: «هذه ليست أتاناً ولا بغلة!». استنكرت النبوءة المنكرة أصوات، فتمادى الصوت وأفاد بأن الواحة ستنال شرّاً، لأن الأيام ستفضح حقيقة المخلوق الذي يتخفّى في جلد دابّة من الدواب، وسيعرف الأهالي في القريب أنه ليس دابة أيضاً. وعلّ البياض الذي رآه أهل الأوطان الصحراوية أكثر الألوان جلالاً وقداسة، هو ما أثار اشمئزاز الصغار في قيلولة ذلك اليوم، كما أثار شكوك الكبار في كلّ الأيام التالية. فقد اعتاد الأنام أن يروا في البياض بشارة، ويقرأوا في سيمائه حُسن الأضواء، برغم أن فئة قليلة شكّكت في الأمر وطعنت في أصالة البياض قائلة إنه أكثر الألوان شؤماً وإثارة للشكوك، لأن الشرّ لا يتستّر إلاّ في جرم الخير، والقبح لا يتوارى إلاّ وراء أقنعة الحُسن، والنجاسة لا تتخفّى إلا في طلعة الطهارة، والأكذوبة لا تتنكّر إلاّ في أردية الحقيقة. وكان بإمكان سرب الغوغاء أن يتجاهل سيرة النجاسة، وينسى كلّ ما يروى عن الشؤم والبياض وتنازع الأضداد لولا المسّ الذي أصاب الأنعام ما إن دخل الأشقياء بالدابة الحقول:

فزّ المعز واستنفر كما يفعل عندما تدهمه الذئاب، وتراكضت الجداء هنا وهناك، ونهقت الحمير في أصوات جماعية مريبة، وصهلت الخيول وجاهدت للتحرّر من القيود، أمّا البعائر المتناثرة في الحقول أو بين أشجار النخيل فقد انتصبت برقابها إلى الأعالي، وفزّ في عيونها الارتياب والقلق، وتأهبت للانطلاق في ذلك الضرب من الفرار الذي تحترفه البعائر المستعارة من قبائل الأوطان البعيدة عندما تنتوي الهجرة الأبديّة للعودة إلى أوطانها البعيدة.

تبدّت الحقول، المحصورة في ذلك الفجّ الصحراويّ الصارم، أعجوبة خُلَّب من ضربٍ اعتاد الوطن المهيب أن ينصبه شَرَكاً منسوجاً بذيول السراب ليستدرج به الدخلاء، أو شبحاً من أشباح تلك الواحات المفقودة التي تحلم بها الأجيال وتقول القبائل إن الإنسان لا يدخل أرضها مرّتين أبداً.

في أطراف الحقول الجنوبية تتراءى حرجة دائرية مطوّقة بسيقان النخيل، تتشبّث بأسافلها فسائل نخل كثيف، تتضافر كلها لتنكفىء حول أرض نذرها أهل الواحة قديما للمعبد، وزرعوها غلالاً وخضاراً وبقولاً يجنون محاصيلها ليطعموا بها الجياع وأضياف الواحة الذين يختارون المقام في الحَرَم، وأقاموا

حول الأرض سواراً من أشجار نخيل نذرها أصحاب القرابين عبر أجيال، فصار لها الطوق حصناً يعزلها عن الأراضي التي يستزرعها الأهالي. بعد الشريط المعشوشب المحشور بين شطآن الوادي الممتد جنوباً تستلقي صحراء صارمة مفروشة بصنف آخر من الزروع: الحجارة، والظمأ، وسرابيل السراب، وأسراب أولئك الفرسان الذين قطعوا على أنفسهم عهداً بحماية الواحة من جشع المغامرين، ومظالم القبائل المعادية، مقابل أن تحميهم الواحة من غول عرفوه في ثالوث الظمأ والجوع والشيخوخة؛ لأن الفرسان مخلوقات لا تصرعها أنصال السيوف، ولكنها تهلك بالظمأ؛ ولا تموت بأيدي الأعداء، ولكنها تبيد بالمجاعات؛ ولا ينالها جبروت الصحاري، ولكنها تنهزم بطغيان الشيخوخة.

الواحات فراديس السلالات المهاجرة: من مياهها ترتوي، من تمور نخيلها تحيا، بين جدران أبنيتها تغالب شيخوختها في انتظار يوم النزع الأخير. تلتجىء السلالات المهاجرة إلى الواحات دائماً عندما يعمّ الجفاف، أو تتسلّط المجاعات، أو يتبرّم الدهر، لأن القبائل جرّبت أن القوافل التي تحمل الخلق ليعتصموا بجدران الواحات من بلايا الأزمان أسوأ حظّاً من

القوافل الأخرى التي تخرج من أسوار الواحات فراراً من أوبئة الجدران والاستقرار والاسترخاء حتّى لو أسَنَّ رجالها وقطعوا في رحلة العمر شوطاً رذيلاً.

8 ـ المَعْبَد

الحنين لملاقاة الخفاء تسبّب في إجلال الأعالي. كان الأمر، في البدء، لا يعدو أن يكون رَزّاً خفيّاً، ثم تنامى الرَّزّ في لجلجة مبهمة في الصدر، ثم اكتمل الإيماء في الهتملة، والهتملة اللجوج هي التي استقامت في ذلك النسق المزموم الذي سمّته القبائل لحناً، شِعْراً، أغنيةً امتدحها الكهّان ونادوا بها ترياقاً وحيداً لداء الحنين.

انتحلها السحرة ونمنموا بها التمائم، واستعار الشعراء من تمتماتهم المجهولة أنساق البيان وحاكتها صبايا الظمأ في أغاني الشجن، ثم رتّلها الكلّ فصار الغناء أول كلم في ملحمة الديانات.

أنهكت العذارى شهوة الاستكشاف، وصرع الظمأ المجهول المحمومين والممسوسين والمسكونين وروّاد الآفاق، فانطرحوا

أرضاً وتطلعوا إلى الأعالي، ولم يجدوا ما يطفئون به عطشهم، وينالوا به معشوقهم، فبحثوا عن الضّالّة في كل الأركان، وطافوا كل الأوطان، واستجدوا الخلوات والفراغ الأبدي المميت، فلم يعثروا على السرّ الضائع، فانكفأوا، وانكسروا، ويئسوا، ولم يجدوا العزاء إلا في ترويض الصوت الملحون. شهدت الصحراء ميلاد الغناء، ولكن أهل الصحراء لم يرتووا بالإيقاع، ولم يقنعوا ببلسم الغناء، فاحتالوا، وحاولوا أن يستخرجوه كما تستخرج الكنوز من قماقمها، فقرّروا أن يقبلوا الإلهام جِرْماً ككل تلك الأجرام التي اعتادوا أن يروها تنتصب في الصحراء، وتنتهك بوجودها بكارة الخلوة الخالدة. تغنّوا بأكثر اللحون اغتسالاً بسلسبيل الحنين، واعتلوا أكثر الشعاف الجبلية استكباراً، ونحتوا في الصلد هناك نصباً استوحوه من لحون المجهول. عبدوا الأنصاب منذ ذلك اليوم، ورأوا، مع تدفق السرّ المسمّى زماناً، في كل صلد نبوءة مبهمة لأنهم اكتشفوا أن الحجر هو الجرم الوحيد الذي يشتبك مع الزمان، ويجاهد ليغلب هذا المارد الخالد. وكانوا يقيمون الحجارة المطروحة أرضاً، ويشيّعون قاماتها إلى أعلى ليقينهم بأن كلّ الكائنات التي لا ترنو إلى الأعالي كائنات لا تخاطب السماء، والكائنات التي لا تخاطب السماء كائنات خرساء، والكائنات الخرساء أكذوبة

لا وجود لها في وطن الكائنات حتى لو احتلّت حيّزاً، أو اكتسبت بدناً. كانوا قوماً استهواهم التكوين وحوّلوا، مدفوعين بحمّى الحنين، كل ما وقع في أيديهم إلى شعر، ولحن، وإيماء. ولم يكتفوا بإبداع الأجرام وتحويلها إلى أرباب وآلهة ومعبودات، ولكنهم احترفوا الاستعلاء، وذهبوا إلى رؤوس الأجبال لينصبوا فوق قممها كل لقية طمرتها تربان الأحاضيض، لأن الجرم، كل جرم طلسم لا بد أن يدلي بالبيان إن كان جرماً حقيقيّاً، لا بدّ أن يغنّي ملحمته، لا بدّ أن يُسمع صوته، لا بدّ أن يقول كلمته، لأنه بالتغنّي، بالبيان، بالصوت، لا يخبر الجرم بأمره فحسب، ولكنه يخبر بأمر الخفاء؛ ولا يقدّم للكائنات برهان وجوده بين الكائنات فحسب، ولكنه يقدّم برهان وجود الخفاء بين الكائنات.

ولكن الصنم المهيب، المشدود إلى صخرة القيعان، لم يتزحزح، ولم يتسلّق ليعتلي شعفة الجبل؛ ربما لأن الصخرة أعجزت الأجيال بسبب ضخامة الحجم، وربما لأن الأقوام فشلت في فكّ الرباط الذي يشدّ تكوين النصب في التحامه الحميم بخاصرة الجلمود، وربما لأن الأمم أدركت أخيراً أن الحجر الذي وقع عليه الاختيار سرّ يصلح بياناً للتعبير عن

لهفتهم الأبديّة لملاقاة المجهول سواء حلّ برأس الأجبال، أو تسلق السفوح، أو استقرّ في الحضيض، لأن زعزعة الأجرام المقدّسة من أوطانها يُفقِد الأجرام سلطانها الخفيّ المستعار أصلاً من لغز المكان، والطلسم المعبود كالتميمة التي تستنزف مفعولها بتحويلها من جلدتها، كما تفقد أضرحة الأسلاف قواها الخفيّة التي تجير الدهاة الفارّين من بطش الجنّ إذا انتهكت واستخرجت رمماً تُنقل كقطع المتاع. وبرغم ضياع الحقيقة في شأن الإبقاء على الحجر في الأسافل، إلاّ أن الرواة لم يختلفوا في شأن السيرة التي قادت إلى اكتشاف الجلمود فقالوا إن صاحب الخلوة اغترب بعد أن يئس من نيل الذريّة، وعندما اقترب المساء حطّ رحاله بالوادي ليقضي ليلته، ولكن شبحاً مهيباً أيقظه في قلب الظلمات وأنبأه أنه سيهبه الوعاء الذي سينقل للأجيال وصيّته المسمّاة في لسان أهل الصحراء اسماً، شريطة أن يتلقّف بالوعاء الموعود النطفة من مخلوق سيلتقيه عند منعطف الوادي قبيل الشروق. وشيّع الشبح المهيب في وجهه ذراعاً مشوّهة مبتورة الكفّ، وتوعّده بلهجة واضحة لا تحتمل أي تأويل قائلاً قبل أن يتوارى إنه سيعرف كيف يثأر إذا أخلّ بالوعد، لأن لا شيء أيسر في شرع العطايا مثل استعادة الكنز الذي بخل عليه صاحبه بالقربان. استيقظ العابر في الصباح

مبكّراً، واستعاد في قلبه الرؤيا مراراً، واعتصر الذاكرة ليستعيد ملامح زائر بلا ملامح، فلم يجد إلا جلمود يعتليه جرم مخلوق صارم بلا ملامح، يشيّع في الهواء ذراعاً مبتورة اليد، فشدّ رحله في طريقه إلى الشمال عندما اعترضه عند الجزع مخلوق كريه لم يرَ لبشاعته نظيراً في الصحراء كلّها: كان أبتر اليد اليمنى، أعور العين اليسرى، أحول العين الأخرى، ناتىء الجبين، أفطس الأنف، موسّم الوجنتين ببثور الجدري، فابتأس وتشاءم وقال لنفسه إنه لم يرَ إلاّ ما تكشّف عنه اللثام، وما لم يكشف عنه اللثام باليقين أسوأ مما لم يخفه اللثام. ولم يدرِ يومها أنه التقى في جرم أبشع المخلوقات جِرْماً، أكثر مخلوقات الصحراء نبلاً؛ لأن الأنام عرفت من قديم أن الأرواح الشريرة لا تتستر إلاّ في أكثر الأبدان فتنة وبهاءً، والأرواح النبيلة لا تتوارى إلاّ وراء أكثر الأجسام قبحاً وبشاعة.

وجد العابر في جرم الشؤم كنزاً نفيساً، وصار له منذ ذلك اليوم في خلوته الأبدية عزاءً وقريناً، وانقلب من ظنّه أوّل الأمر نحساً فأل خير، لأن أياماً قليلة مضت حين أسرّت له امرأته بالبشارة وقالت له إنها حبلى.

أنجبت المرأة وعاءً فريد البهاء، فنذره العابر القديم لقرينه

الذي تولّى له رعي القطعان، ولم يمضِ زمان آخر حتى وجد صاحب الخلوات ابنته شهيّة للعين، وبهجة للقلب، فأخذها من يدها، وذهب بها إلى الوادي. هناك أزاح عن الجلمود الجليل أكوام قشّ كان قد ستره بها في الأيام الخالية، فتبدّى الجرم الصارم المشدود إلى الصلد، يرفع ذراعاً مبتورة الكف في الفراغ، ويهدد الكائنات لا بالذراع، ولكن بوجهه الخالي من الملامح. كان مخيفاً على نحوٍ لا يطاق أبداً، والخوف الذي يستثيره، كما يُروى، ليس ناجماً عن البشاعة، لأن البشاعة ليست في قبح الملامح، ولكن علّة الخوف في الإبهام المستعار من غياب الملامح، ذلك أن الناس تعلّموا أن القبح ليس في انحراف السيماء، ولكن القبح في تستّر السيماء. لهذه العلّة اعتاد الخلق أن يهابوا الموتى، ليقينهم بأن الأموات مخلوقات أضاعت السيماء التي عرفها في الأموات الأقرباء. فظاعة الإله الخالي من الملامح أفزع العذراء، فارتجّت، وأخفت وجهها بذراعيها، وتزعزعت ببكاء مرير. ولكن قلب الأب أضاع السبيل في حضرة الربّ. الأب أجبر الصبيّة أن تضع كفّها في كف الإله وفاءً بالوعد. قال لها إنه سيهبها كل ما امتلك، سيهبها القطعان كلها، وسيتنازل لها حتى عن نفسه إذا شاءت لأن الاسم الذي

ستسير به إلى الأجيال أنفس بما لا يُقاس من الثروة، ومن الكنوز، ومن النفس لأنه هو النفس الحقيقية التي لن يأكلها التراب، ولن تزول. قال لها إنه لا يريد منها بالمقابل إلاّ أن تقسم إنها ستقبل «دو دو» (وهذا هو اسم قرينه الراعي) لها بعلاً، وستفعل ما استوجبته السليقة عندما طوّقت عنق المرأة بواجب اسمه إسعاد القرين حتى لو كان القرين غولاً من غيلان الجنّ، فكيف إذا كان رجلاً يحمل بين جنبيه قلباً من ذهب؟ قال لها إن عليها أن تعده باجتناب الفتنة، لأن الرجال الذين يحملون في وجوههم سيماء الحُسن، ليسوا رجالاً، ولكنهم مخلوقات شريرة لأنهم يحملون في قلوبهم سمّاً لا حبّاً.

رددت الفتاة القسم باكية، وعاد بها إلى البيت ليضع يدها في يد قرين الوعد بعد أيام، ولكن الفتاة لم تنجب له ذريّة الأبد، لأن الفتاة أصيبت بداء الإغواء يوم رأت في المراتع فتى فتنها، فغابت عنها وصيّة الأب، وأدركت أن ثَمَّ في الصحراء حُسْن، فقفز قلبها من صدرها، ورفعت عقيرتها بلحون العشق، ولم تدرِ أنها خانت العهد!

لم تنجب الوريثة للعابر وريثاً يحمل للأجيال وصيّة اسمها الاسم، لأنها أحبّت فتى الإغواء الذي تبدّى لها في جرم فتى

الأغراب، فلاحقته، وعانقته، وتوسّلته أن يصير لها سماءً لتصير له أرضاً، ويصير لها ماءً لتصير لمياهه وعاءً، لأن الذريّة التي لا تأتي من صلب البهاء لعنة وليست ذريّة. عانقها الإغواء المتخفيّ في جرم البهاء فولدت لأبيها ثعباناً كريهاً، ثعباناً حقيقيّاً، فناح الأب حزناً واختفى من الصحراء قرين الأب. أضاع الأب أنبل الخلق بسبب الفجيعة، فذهب إلى حجر الوادي ولعن ابنته هناك بأعلى صوت.

لم يطل انتظار القصاص.

بعد أيام عثر الأب على ابنته مشنوقة على ذراع الربّ الرهيب المنصوبة في الهواء، فهام في خلاء الشمال، ولم يعد إلى الوراء منذ ذلك اليوم.

منذ ذلك اليوم أيضاً اكتشفت القبائل سلطان الحجر الخفيّ، فأكبرته، واستعلته ونذرت له النذور، ولوثته بدماء القرابين. ثم تدفقت المياه في الوادي مواسم أخرى قبل أن يأتي اليوم الذي ركنت فيه القبائل إلى الجبل، وقررت أن ترمي عصا الأسفار، فتعاون القوم، وأقاموا حول النصب الجليل بنياناً بهيّاً من صفوف الحجارة، ثم جاء عهد آخر ابتنت فيه أجيال أخرى سوراً حول البنيان الأقدم، فكانت الوديان تجري بأزمان تسميها

الأقوام سيولاً، وكان البنيان يتآكل ويهرم ويبيد مثله في ذلك مثل الأنام، فيهرع القوم لتجديد البنيان، أو السور المحيط بالبنيان، كأنّهم ينازعون قدر الفناء المسلّط على رقابهم كسيف مجهول، ويرون في تجديد البنيان انتصاراً على الفناء، لا مجرّد ولاء أعمى لسلطان الخفاء.

ولم يَفُت الأهالي أن يتسلّوا بحملات الكرّ والفرّ التي نشبت بين معبد النصب وضريح الأفعوان ردحاً طويلاً من الزمان. اندهشت الأقوام، في البداية، للجفاء الذي تلقّاهم به الحَرَم في بعض الأعوام العجاف، لأن المعبد كثيراً ما خلا من النبوءة، وكفّ، أحياناً أخرى، عن الإلقاء بالشورى في قلوب الظامئين إلى المشورة، وبخل بالبشارات، بل حتى بالإشارات في مناسبات أخرى. وجاء زمان بالغ فيه النصب الجليل في الإنكار، فلم يكتفِ بصدّ المريدين والممسوسين والمصابين والظامئين لكلّ إيماء مستتر، ولكنّه استكبر وتعالى واستخفّ بالقوم ولم يستحِ أن يسخر من أهوائهم بأكثر الأجوبة قسوة ومرارة؛ فخاب ظنّ ضعاف النفوس، ومنع الأهالي عن النصب ما ملكت أيديهم، وبخلوا على المعبد بالقرابين والتقدمات والنذور، فجفّ تراب المذبح، وتقلفع الطين تحت قدميه،

وأهمل البنيان كلّه، فدهمت السيول أسواره، وعشعش الطير في أركان البنيان، لأن الخلق كانوا، في ذلك الزمان، قد اكتشفوا قوى الثعبان الخفيّة، فاحتكموا إلى الضريح في السفح الأعلى، ومنّوا عليه بذبائح الأنعام والأنام والمقتنيات المسبوكة بمطارق الحديد أو النفائس المحبوكة بأنامل اليد. ولكن الخفاء في حلفه مع لغز الزمان مضى ينسج ثوب البلاء بخيوط الرخاء، كما اعتاد أن ينسج ثوب الرخاء بخيوط البلاء في زمان آخر، فاكتأبت الآفاق، وتبرّمت السماوات، وتضعضع سلطان الأفعوان، وتفلّتت منه النبوءة كما تفلّتت من نصب الأسافل يوماً، فأنكره الأهالي، وولاّه أبناء الواحة ظهورهم، ونزلوا السفح ليجدوا أن النصب المخيف قد استردّ قواه المجهولة، فأغدق عليهم بأنباء الخفاء، وأسدى لهم نصحاً تعطّشوا له طويلاً، وألقى في أسماعهم وصايا الحكمة، كما أيقظ في قلوبهم إلهاماً مفقوداً. أحيا الإله القديم نفسه فأحياهم أيضاً، وحاول عسس الحكمة أن يجدوا للنشور تأويلاً فأنبأوا القوم بالقول الذي ماثل بين الأرباب والحقول، وأكدّوا أن الأنصاب لا تختلف أبداً عن التربان. والزرّاع جرّبوا أن الأرض التي تجود هذا العام بالمحصول السخيّ، لا بد أن تتضعضع وتتراجع وتبخل بالمحصول في

العام الذي سيلي، لأن الأرض، كالأنام، كالأنعام، ككل المخلوقات، ككلّ الكائنات التي تُرى والتي لا تُرى، لا تولد إن لم تمت، ولا تموت إلاّ لتولد.

9 ـ الوصيّة 1

نزل الغريب ضيفاً على الواحة في ذلك الوقت العصيب الذي تتنقّل فيه الأفلاك لتدرك بيوت النحوس فتعبس الأيّام، وتتنكس الأزمان، لأن الدورة اكتملت، وبلغت السيرورة مداها، ولم يبق لها إلاّ أن تنكفىء على عقبيها، لتستقرّ في المدار القديم، فتنفث في الكائنات سرّها، فتتضعضع كائنات هنا، وتتجبّر كائنات هناك؛ تضمحلّ كائنات هنا، لتزدهر كائنات هناك؛ تهلك كائنات هنا؛ لتحيا كائنات هناك؛ لأن الأعالي لا بدّ أن تتبادل الأدوار مع الأسافل، فتنحطّ الأعالي لتسكن الأحاضيض، وتعلو الأسافل لتحتلّ موقع الأعالي؛ والأحياء يذهبون ليتوسّدوا التربان في حفر الأسلاف، والأسلاف يتخفّون في الأرحام ليولدوا من بطون الأمهات أخلافاً للآباء الذين ذهبوا.

دخل العابر المعبد في ذلك الأوان الذي تبدّلت فيه

الأحوال، واكتأبت الأزمان، وسحب الخفاء من جدرانه سلطان الأمجاد بعد أن فرّت من النصب النبوءة، والتجأت إلى غريمه الذي يسكن الأعالي، فوجده العابر مهجوراً، مهملاً، معفّراً بالغبار. لم ينتظر العشيّ كي يتفقّد المعبد. تأمّل الطلاسم الغامضة المثبّتة بأوحال الطين على حيطان البنيان، وأطلق آهة شجن موجعة ما إن لامس أطراف الرموز المتآكلة بأصابع يده اليمنى. غاب في أوطان الأشجان أمداً، وترنّم بلحون مجهولة أمداً آخر، ثم عاد ليسامر الجليس بسؤال:

ـ أزاهد، مولانا أم عابد؟

لم يتأخّر العجوز بالجواب:

ـ أيرى مولاي بين الفريقين فرقاً؟

كان جواباً مخفيّاً في سؤال اعتاد الظامئون إلى الحقيقة أن ينصبوه شركاً لاستدراج الأغراب إلى الجدل، كما اعتاد أهل الفضول أن يتخذوه حيلةً لجرّ البلهاء إلى الكلم، كما اعتاد فريق الدهاة أن يجسّوا به كل أمر خفى أو التبس.

تفحّص الغريب جداراً موسّماً بعلامات الأوّلين الذين أرادوا يوماً أن يستعيروا من السماء ناموسها الخفيّ، فاستعانوا بالإيماء لساناً اعتقلوا به ما عجز عن قوله اللسان، وثبّتوه على الجدران

رموزاً خاطبوا بها الأجيال. قال:

ـ كلّنا عُبَّاد، ولكنّنا لسنا كلّنا زهّاداً!

ترنّم الشيخ بالسؤال كأنه يغنّي:

ـ أيرى مولانا حقّاً أننا كلّنا عُبَّاد؟

توجّع صدر الغريب بدمدمات الحنين مرّة أخرى. مضى يتحسّس العلامات المجسّمة على الحيطان وينوح بصوت يرتجّ بأوجاع الشجون:

ـ لا نُبعث إلى الصحراء بلا رسالة، ولا نفتّش في الأسفار إلاّ عن ركنٍ نستطيع أن نختلي فيه بنفوسنا لنضع البلاغ بين يدي جلالة الخفاء.

ـ يحسن مولانا الظنّ بالخلق إذ يطوّق أعناق الكُلّ بالعبء الجسيم الذي أسماه رسالة!.

ـ إنّي أرى وليداً في كل حضن، وأرى معشوقاً في سبيل كلّ صاحب سبيل!

أحكم العجوز لثامه الكئيب حول فمه بكفّه العجفاء، وتأمّل النبوءة زمناً. ثم اندفع يردّد القول:

ـ وليدٌ في الحضن، معشوق في السبيل. ما أبهى هذا! ما أنبل

هذا! أيروق لمولاي قول الأشعار؟

ولكنّ العابر الخفيّ تجاهل التساؤل، وانطلق يجسّ الخافيات بأغنيات الموّال المستغلق:

ـ لا يدفع الناس بعضهم بعضاً، ولا يكيد الإنسان لأخيه الإنسان، ولا يرمي المخلوق بنفسه إلى التهلكة إلا استجابةً للنّداء، ورأفة بأجنّة الأرحام!

ـ أجنّة الأرحام؟

ـ بين يدي كّل منّا جنين من أجنّة الأرحام!

ـ هيهات أن يدرك عقل خادم المعبد إيماء حكيم الأغراب!

ـ لولا السرّ المدسوس في الجؤجؤ لما اختطّ السلف رمز هذا الجدار، ولولا السرّ الذي يتململ في القلب لما استمرأنا المسير، ولولا السرّ المستتر حتى عن صاحب السرّ لما اندفعنا نغالب الصحراء، ونعارك الجنّ حرصاً على نيل الكنوز، ونتطاول في البنيان لنشيّد الحصون والواحات. بلى، بلى. لولا السرّ المستغلق لما وقفت الآن بين يدي مولاي، ولما وقف مولاي بين يدي ضيف الأغراب داخل جدران حرمه القديم.

أخفى رمزاً متآكلاً بكفّه المستورة في رقعة الجلد، وأغمض عينيه، وترنح بلحن شجيّ زعزع كيان الشيخ الهزيل. ولكن الشاعر الغامض ابتسر أغنيته السماوية لينطلق في نداء آخر:

ـ أردت أن أقول إننا لا نبلغ المنتهى أبداً إذا لم نتعبّد. أردت أن أقول إننا لا نلقي عصا الأسفار أبداً إذا لم نستسرر. أردت أن أقول إننا لا نودع الجنين الذي نحمله في قلوبنا في الركن الذي ينتظرنا منذ بداية المسير إذا لم نركن إلى أنفسنا. فإلى متى يمضي مولاي في شكوكه بأننا لسنا عُبَّاداً؟ أيليق بخادم المعبد أن يبخل على الكُلّ الذين لم يولدوا منذ أول يوم إلاّ ليكونوا عُبّاداً؟

ـ أوه، مولاي ذهب بعيداً، بعيداً.

ـ بعيدٌ ما كان بعيداً، والعميق العميق من يجده(*)!

ـ العميق الذي لم يجده مولاي، من يستطيع أن يجده؟

ـ لو كنت أستطيع أن أجد العميق الذي يتحدّث عنه مولاي لما استغلق أمر سرّي عليّ طوال هذا الزمان.

ـ أيستغلق السرّ على صاحب السرّ؟

(*) سفر الجامعة.

ـ لا يستغلق السرّ حقّاً إلاّ على صاحب السرّ.

ـ عجباً!

ـ خلق لا يناوشهم السرّ سعداء، وصاحب السرّ بين الخلق أشقى!

ـ عجباً!

ـ يهون الأمر كثيراً لو أعلن السرّ عن نفسه يوماً.

ـ يرفق مولاي بالمملوك الذي يقف بين يديه لو تنازل عن لغة الأحاجي مرّة!

ـ غموض السرّ بلاء في رقبة صاحب السرّ. السرّ لا يفصح، ولا يتستّر، لا يتبدّى، ولا يتنحّى.

ـ مثله في ذلك مثل كل الأسرار؟

ـ كلاّ! سرّ الوصيّة ليس سرّاً ككلّ سرّ. بداية سرّ الوصيّة وجع، ومسيرته بلبال، وخاتمته هلاك.

ـ هل توجّع مولانا كثيراً؟

ـ ألم يخبرنا الناموس المفقود أن الصحراء ليست سوى رحلة وجع؟ هل من حق العابر أن ينتظر من رحلة الوجع شيئاً آخر غير الوجع؟

ـ يُقال إننا نتطهّر كثيراً عندما نتحدّث إلى أهل الوجع.

ـ كلّنا أهل وجع!

ـ أأسمع من فم مولاي لغزاً آخر؟

ـ من سلّم بأمر السرّ، لا بدّ أن يقبل بالوجع قصاصاً!

ـ ما أقسى هذا؟!

ـ القصاص قدر البلاغ!

ـ حسبتُ دوماً أن البلاغ هبة من هبات الخفاء.

ـ فليعلم مولاي منذ اليوم أن الوصيّة ليست هبة، ولكنّها قصاص.

سكت العجوز، فأعاد سليل السبيل:

ـ القصاص قدر البلاغ. القصاص قدر كلّ وصيّة!

10 ـ الكيان

الدّابّة كانت، في مساء ذلك اليوم، حُجَّة. أَخْبَر أنّه سيتفقّد الدّابّة في الحقول، فخرج. في الخارج استولى القمر على الكائنات، فهيمن الوجوم على الخلاء، وبدا كأن الخليقة كلّها تتكتّم، وتتجسّس، وتنتظر. تسكّع، في البدء، عبر السهل جنوباً، ثم سار بمحاذاة المرتفع حتى أدرك نخيلاً في حدود الحقول الغربية. هناك لفحته الأنسام المغسولة بالنداوة والبلل لأول مرّة، وأسمعته الجنادب أغنيةً، فتململ في الجؤجوء إيماء مجهول، فتمهّل قليلاً، ولمع، تحت الضياء السخيّ، دمعاً تحلّب من مقلتين صارمتين هجرهما البلل أمداً طويلاً. فهل هي الحقول؟. في دروب سلالات التّيه يتوارى حُلم لا وجود له إلاّ داخل حصون الواحة المفقودة. ولكن العابر يكابر لأنه لا يريد أن يعترف، حتى بينه وبين نفسه، بأن جرعة الماء التي يهبها جدول الحقل هي غاية السفر المميت. وسليل الدروب الذي

تربّى وشبّ وأسنّ في أرباع الظمأ لا يجب أن يتنكّر للقية التي كانت للصحراويين دائماً سرّ حياة، برغم أنهم كثيراً ما يضلّون فتتبلبل قلوبهم بالأوهام والأحلام والرؤى الخبيثة فيفرّون. يندفعون إلى الأمام بهوس الممسوسين ليدخلوا أوطان البلل والغرس والنِّعَم فلا يدركون بقلوبهم المشوّشة ما يطأون، بل يشكّون ويتوجسون ويرتابون، لأنهم لم يروا في أوطان البلل إلاّ شركاً يعترض سبيلهم ليستدرجهم، فيفرّون، ويعبرون، ويضيعون، لأن الضياع قدر أصحاب التيه الذين لا يعتنقون ناموساً غير عبور خالد لا يتوقّف عند حدّ، ولا يقنع بحقول الواحات كنزاً، ولا بسلسبيل المياه غنيمة. فأي هبة أعظم شأناً من الحقل؟ وأيّ كنز في متاهة العراء أنفس من جرعة الماء؟ وأيّ نعيم أكبر من استنشاق النسيم المبلّل بالنداوة ورائحة العشب والأرض؟. تكاثفت الأحراش، وتشابكت أجناس الحشيش، وتمادى لحن الجنادب، فقطع الدرب لسان الماء المندفع من نبع الأعالي. لمع الغمر الشهيّ في ضياء القمر، فتزعزع البدن بوسواس المجهول، فركن، وهمد في وقفة كاهن يرتّل صلاة مبهمة. همد طويلاً، ثم خلع نعليه وداس الأوحال بقدمين حافيتين وهو ينحرف يساراً، ويسلك السبيل المعاكس للمجرى. عَبَرَ أطراف الحقول الغربية، وتسلّل في خلل نخلٍ

ملتبس فتلقّفه الربع العاري، واعتلى به السفوح المزروعة بأبنية القوم. سار عبر درب متعرّج، تطوّقه حيطان البيوت الحجرية حيناً، ويتحرّر من خناق الجدران ليسرح في خلاء مغمور بالحجارة والصخور حيناً آخر. في خاصرة الجبل، في منتصف الطريق الصاعد إلى الشعاف العليا، تلوّى سبيل النّبع المندفع من علٍ، يجاور الدرب المحفور بأقدام الأنام حيناً، ويغيب في زحام الصخور والوعورة حيناً، يضيق هنا حتى يتوارى الماء، وتفرج عن ضفافه الأرض هناك حتّى يلتمع الغمر الشقيّ في أضواء القمر. تجاور الدربان في رحلتهما إلى المجهول: ينطلق أحدهما من القمّة، ويهوي ليفتّش عن حضيض يستودعه وصيّته، وينطلق ثانيهما من الحضيض، ويصعد ليفتّش عن قمة يخفي فيها سرّه. استمرّ الجوار. أفضى الجوار إلى غار الأساطير. كان جداراً حجريّاً بائداً، يسدّ فوهة الغار الملفوف بالسكون والضياء والغموض، تنتصب في مدخله ساق شجرة عارية من الأغصان. تتبعثر هنا وهناك الأحجار ذات الزوايا المربعة المتخلّفة من انهيارات الجدار الذي يسدّ المغارة عبر الأزمان. تتشبّث بقطع الحجارة نتفٌ من قُشار الهامّة. تعبث بها الأنسام الكسولة فتنتفض وترتجف وتنوس نحو الأجناب الأربعة.

في ذلك الأوان المبهم، في ذلك المساء المغمور بضياء قمر نبيل، في سفح ذلك الجبل المكابر، انتصب، ليلتها، الكيان الخفي!

الكيان! الكيان يتكتّم، يلتئم حول نفسه، يضم إلى صدره سرّه كما تضمّ الأم وليدها إلى صدرها عندما يدهمه الخطر. يستميت ليداري، يستميت وينفث في عسّاس الأجيال أنفاس الاستفزاز لدرء نوايا أهل الطواف الذين احترفوا الطواف حتى صار لهم الطواف ناموساً. يقف الكيان في السفح خفيّاً، عارياً، أعزلَ، مهجوراً، لا يملك للدفاع عن النفس سبيلاً سوى عزلته الدهريّة. الاعتصام بأسوار العزلة سرّ الكيان. الاعتصام بالعزلة سرّ صاحب الكيان. العزلة سلاح يستهين به الحمقى والبلهاء، ولكن هيهات أن يستهين به الحذّاق واللؤماء. العزلة سلاح يستخفّ به المغامرون وشذّاذ الآفاق وطلاّب الكنوز الدنيوية، ولكن هيهات أن يستخفّ بالعزلة العابرون الأبديون والدهاة وطلاّب الكنوز الخفيّة. ولكن.. ولكن أيّ حال، يا ترى، ستؤول إليه العزلة عندما تقف في مواجهة عابر من طراز جديد، عابر يتسلّح أيضاً بالعزلة، لأنه يخبىء في قلبه وصيّة؟ ألم يكن أصحاب الوصايا منذ أقدم الأجيال أقواماً عُزّلاً بالسليقة،

ومعتزلة بالسليقة، تيجانهم الإبهام، وسلطانهم الهجرة؟ بأي سلاح سيتولّى الكيان الدفاع عن النفس يوم يجيء الميعاد الذي تحدّثت عنه نبوءة الأزمان فقالت إن اليوم الذي سيقبل فيه لن يكون كالأمس، ، لأن المخلوق الذي يدسّ في صدرة الوصيّة يختلّف عن كلّ الخلق، لأنه، كالكيان نفسه، معتزل بالسليقة، وأعزل بالسليقة، ومهجور بالسليقة؟

الكيان أجناس: كيانٌ في الخافيات، وكيان في الباديات. وحتّى كيان البادية الذي يستولي على الفراغ، ويحوز في الترباء حيّزاً، يختلق في جوفه جنيناً، عندما يمتلك في هاوية، خفاء، فناء. والضريح دوماً برهان على هذا الجنس. ليس في الخالية كلّها كيان أعظم شأناً من الضريح، سواء أكان ضريح أسلافٍ، أم ضريح معبودٍ، أم ضريحاً يضم بين أركانه رسولاً، سواء أيضاً أكان الرسول رسول أنام، أم أنعامٍ أم هوام؛ وقد أجلّت ملل الصحراء أفانين الأضرحة لأنّها أدركت، من قديم الزمان، أن الهاوية ليست فراغاً، والخواء ليس فناء، ورفات الأولين ليس زوالاً حتى لو كان عظماً رميماً. لأن الحريّة التي تبتدع الأشياء، وتنجب الكائنات من رحم العدم، وتلد الأجرام التي تُرى بالعين وتُلمس باليد، لا تكتمل إلاّ بالانتقال، ولا تتم إلاّ بالمرور عبر

ظلمة هذا الوطن الجليل. فأين يتكمّن السرّ؟ وفي أيّ ركن يقبع كنز الأضرحة؟

يُقال إن الطلسم في الخفاء دائماً، لأن المجهول لا يستمرىء إلاّ الخواء عندما ينتوي الإبداع، عندما يشرع في قلب الأشياء رأساً على عقب، عندما يبتدىء في تحويل الأسافل إلى الأعالي، وتنزيل الأعالي إلى الأسافل، عندما يقرّر أن يلهو فيأتي بالدُّمى لينفث فيها من أنفاسه فتتبدّى، وتدبّ، وتجد نفسها في الساحة القاسية؛ أو يحجب أنفاسه عن دُمى أخرى اغترّت بوجودها في الساحة فكابرت، وغفلت، وتناست حقيقتها كدمية، فتتخفّى، وتتلاشى، وتجد نفسها في الهاوية. لهذه العلّة علّم الكهنة سلالة الدّمى الاستهانة بساحة الصحراء وسمّوا الاشتباك المميت لعباً، وأكبروا شأن الأضرحة فقالوا إنّها تبدو جدراناً خرساء حقّاً، ولكن الخفاء لا يروق له أن يحبك نسيج المصير إلاّ في أركان هذه الدائرة التي يراها بلهاء الأقوام خواء؛ ذلك أن تعاليم السحر كانت قد أوصت، منذ الأزمان الأولى، بتميمة تقول إن الغياب، في عُرف الخفاء، حضور؛ والحضور، في ناموس الخفاء، هو الغياب.

11_ القربان 1

من فجّ في أصل الهيكل القديم يثب النبع في لسان شقيّ، نقيّ، مزموم. يتدفّق اللسان من الفوهة قفزاً، ولكنه يهوي على ألواح الصدر الجبلي فيتناثر، وينشر في الرقعة رذاذاً سخياً قبل أن يسترخي، ويستوي، ويتمهل عبر الجدول الصخري الذي يتلوّى ويحتال على الآكام منحدراً إلى الأسفل. فوق الفوهة ينتصب البنيان البائد الذي يسدّ فم الغار الخفيّ حيث يتوارى الثعبان منذ أزمان يُرجعها الرواة إلى تلك الأمور المنسيّة التي تقول الأجيال إن الداهية اكتشف فيها كنوزه الغامضة، وكانت تلك الكنوز سبباً لميلاد الواحة في ذلك البلقع الصحراويّ الفاجع. وبرغم أن أحداً لم يتساءل يوماً بلسان العلن عن سرّ الكنز، إلاّ أن الكلّ كانوا على يقين، عبر أجيال، أن لحياة الواحة صلة حميمة بهذا الكنز، كما أيقنوا أيضاً بعلاقتها بالأفعوان الرهيب الذي يسدّ فوهة المدخل الخفيّ. كان مارد

الأدغال يزحف ويتكوّم في أصل الجدار كل صباح ليتلذّذ بأشعة الشمس، أو يعتلي شجرة عارية تنتصب في الفوهة المواجهة لجهة الغرب، ويستلقي هناك باسترخاء يستثير حسد أهل الاستنفار الذين لا يجدون للاسترخاء سبيلاً، ويحدج المارّة من هناك بعينين كسولتين، ناعستين، غامضتين لم يفلح في فكّ طلسمهما حتى دهاة العرافين. كان بدنه المرن، الجموم، الذي يضاهي رقبة الجمل العدبّس حجماً، مكسوّاً بحراشف خشنة، كريهة، كقطع حجريّة صارمة تجود بها بعض أركان صحاري الحمادة الغربية. وقد تضاربت الروايات حول سرّ إقامة البنيان في فوهة الغار الذي ينبثق منه النبع. قال بعض الرواة إن خطراً حاق بالكنز الخفيّ مما دعى صاحب الكنز إلى اللجوء إلى العرافين الذين أشاروا عليه بتطويق المكان بجلاميد الحجارة. وأورد فريق آخر رواية تقول إن السرّ في الحارس الرهيب الذي هددته العلل المجهولة التي أرجعها السحرة إلى العين الشريرة، فقرّر صاحب الأمر حجبه عن الأنظار بإقامة سدّ الحجارة. ولكن الرواة أجمعوا أن العراك مع الحجارة استمرّ أمداً طويلاً جدّاً، لأن البنيان كان ينهار في كلّ مرّة ينتهي فيها القوم من إقامة الجدران، مما اضطرّ الداهية أن يجمع الكهنة، ويرسل البعوث لاستجلاب الدهاة لا من الصحارى المجاورة فحسب،

ولكن من قبائل الأدغال البعيدة أيضاً. ويُقال إن أحد كهنة تلك الأجناب هو الذي ألقى في سمع الزعيم بتلك الوصيّة الفظيعة التي ألقمت الأفعوان الولد، وتناقلتها الأجيال كأوّل قربان. قيل إن كهنة القبائل أخفقوا جميعاً في الاهتداء إلى حيلة لتقويم البنيان، ولكن داهية الأدغال هو الذي قدح الزّند عندما قال بلغة المداراة التي ذاع صيتها بين سلالات تلك الأرباع: «متى كانت الكنوز ترتضي الأنعام قرباناً؟». عمّ الصمت طويلاً في مساء ذلك اليوم، ولكن الناموس أجبر الزعيم على اللجوء إلى الجدل. تساءل: «ماذا تريد أن تقول؟» أجاب الداهية بوقار يليق بسحرة تلك القبائل المخيفة: «أردت أن أقول إن الكنوز كالآلهة لا تقبل الأنعام قرباناً». تشبّث القوم بالسكوت عمداً، لأنهم حدسوا ما يرمي إليه الضيف، ففزعوا وتشبثوا بالصمت. تشبّث الزعيم بالصمت أيضاً، ولكن اللئيم أوضح بجسارة أدانتها شرائع الضيفان دائماً: «قربان الكنوز هوالإنسان، وليس الحيوان». تبادل القوم نظرات مختلسة، ولكنهم اجتنبوا أن يحدجوا الزعيم. ولكن الضيف لم يرحمهم جميعاً. تربّع باستفزاز الدهماء، وحدّق فيهم بعينيه الخبيثتين، ثم جاهر بالقول: «أيعسر العثور في دياركم على خشارة تستطيعون أن تتنصّلوا منها بالنصل كما يحدث في كلّ أرباع القبائل؟». حاججه الزعيم

بالقول: «الإنسان في ديارنا كائن نفيس، نفيس بما لا يقاس، نفيس حتى لو كان أردأ خشارة من خشارات الناس». جادله الغريب بلا رحمة: «ويل لأمّة بخلت على نسلها بالقربان إكباراً لخشارة أهلها!». ساد سكون. ساد سكون مميت. فرّ الزعيم طويلاً، ولكنه لم يجد في نهاية المطاف بدّاً من المواجهة: «عاهدنا أنفسنا دوماً ألاّ نؤذي مخلوقاً لم يقترف في حقّنا ذنباً!». ساعتها صاح الداهية بغضبة تليق حقّاً بسلالات الأدغال: «من بخل بالقربان خسر نفسه وخسر الإنسان. أرى على الأبواب هلاكاً، والكنز في قمقمه يحتضر، فاحترسوا!». همهم الجمع بهرج، وتناطحوا بالعمامات ليتشاوروا، ويتسارروا، فانسلّ الضيف واختفى. فتشوا عنه في كل مكان، ولكن الداهية تقشّع وانقطع. تشاوروا مرة أخرى، تشاوروا أياماً، ثم بدأوا البحث عن ضعاف نفوس تستطيع أن تبيعهم إنساناً، يصلح قرباناً، ولو بأفدح الأثمان. ولكن أهل الواحة كابروا واستكبروا واستنكروا الأضحية. قالوا لرسل الزعيم إن أبخس إنسان هو أنفس كنز، والهبة التي تشترط الفوز برأس الإنسان ليست هبة، ولكنها بلوى؛ فلم يكن أمام داهية الأجيال إلاّ البحث عن الضّالة في مراتع القبائل في الصحارى المجاورة. وكم كانت دهشة الأهالي عظيمة في ذلك اليوم الذي أقبل فيه

أحد الرسل يحمل على المنكبين ولداً بهيّاً، تتبعه امرأة كئيبة، تتحصّن بالشحوب، وتتلحّف بالسواد، تجرجر خلفها عيالاً عدّهم الفضوليون فوجدوهم نصف دستة يتفاوتون في الأعمار كما يتفاوتون في القامات، يسترون أجرامهم الهزيلة برقع ملفّقة من بقايا الجلود القديمة، وأسمال الكتان البائد، يتشبّث أخيرهم بتلابيب خامسهم، ويتشبّث خامسهم بتلابيب رابعهم، ويتشبّث رابعهم بتلابيب ثالثهم، ويتشبّث ثالثهم بتلابيب ثانيهم، ويتشبّث ثانيهم بتلابيب أوّلهم، ويتشبّث أوّلهم بتلابيب الأمّ، وتتشبّث الأم بتلابيب أصغرهم المنتصب فوق منكبي الرسول، بسلطان البصر لا بسلطان اليد. وقد خرج القوم من بيوتهم ووقفوا صغاراً وكباراً ليتفرّجوا على هذا الطابور المريب الذي اخترق دروب الواحة الجبليّة في طريقه إلى ضريح الأفعوان المهدّد بالهلاك. قيل فيما بعد إن المرأة أرملة أحد الشجعان الذين خرجوا لغزو قبائل الجنوب ولم يعودوا إلى الوراء إلى الأبد، وقد خلّف الشقيّ وراءه أطفالاً سبعة احتالت الأم لإطعامهم طوال الأعوام السخيّة التي أعقبت هلاك القرين، ولكن الزمان عَبَسَ، والأيام تبرّمت، والأنجم هجرت منازل السعود لتحلّ أضيافاً في بيوت النحوس، فتضعضع الحال، وتبدّلت الأهواء والأجواء، فأقبل ميعاد الأهوال، فمنعت السماء الغيث، وعمّ

الصحراء الجفاف، واندثرت النبوت، وهلكت القطعان في المراعي، فجاعت الأقوام، وتشتّت شمل القبائل، فهاجرت عشائر إلى أوطان الغرب، وفرّت عشائر أخرى إلى بلدان الشرق، ونزلت بطون أخرى إلى الواحات لتستنجد بأصحاب الزروع، وحبست بطون كثيرة نفسها في مضاربها (كما اعتادت الملل النبيلة أن تفعل زمان البلاء)، ولم تخرج من هناك حتى هلكت وأزالت ذريتها من سلالات الصحراء.

ولكن البيت الذي فقد ركيزته لا ينهار فحسب، ولكن لا بد أن ينقلب ألعوبة في مهب الرياح، والمرأة التي فقدت قرينها وترك الشقيّ في حجرها من الصغار سبعاً، لا تستطيع أن تنتحل بطولات الهجرة إلى بلدان الأغراب، كما لا تستطيع أن تستعير جسارة الحبس الذي يهلك الأبناء مع الآباء ويقطع السلالة من الصحراء لدفع مذلّة الحاجة، ولاجتناب استعباد السؤال، فلم تجد حيلة إلاّ الارتماء في أحضان قدرها الرهيب. أضاعت كل ما ملكت يداها، وجاعت وجاع الصغار حتى كادوا يهلكوا جوعاً. وبلغ بها اليأس حدّاً جعلها تتغنّى بجسارة الملل التي دأبت على إفناء نفسها ما إن تحلّ بالصحراء المجاعات، بل نظمت أشعاراً قاسية مديحاً في بطولات أهل اليأس، لأن الموت

دائماً أهون من الذلّ، والانقطاع الخالد من ساحة الصحراء الخالدة دائماً أنبل من غلّ العبوديّة. ويوم جاء رسول الواحة جرياً وراء القربان رأت فيه المرأة وصيّة سماوية جاءت لتضع لشقوتها حدّاً. قالوا إنها تنازلت عن الوليد الأصغر مقابل أن تضمن حياة بقيّة الأبناء. ولا أحد يعرف سرّ تضحيتها بالابن الأصغر رغم الوصيّة التي اعتنقتها الأجيال عندما أكدّت أن أصغر الأبناء لقلب الوالدين هو أحبّ الأبناء. وازدادت دهشة القوم عندما رأوا الوليد المنذور مرحاً، بهيّاً، جذّاباً، يفتر ثغره عن بسمات الفتنة، ويكشف عن سنَّين علويين يلتمع فيهما فيض السّنا، ويدمدم حلقومه بضحكة شجيّة، تستجيب لها مقلتاه بذلك الإيماء الجذّاب الذي يسميه شعراء القبائل براءة. كان مستور العورة بخرقة جلديّة بئيسة، في رقبته تتدلّى تعويذة مدسوسة في جلدة داكنة، في معصمه الأيمن يلتفّ خيط جلدي ليثبّت صرّة الشيح، في حين طوّق سوار الخرز المعصم الأيسر. ولكنه كان ولداً سعيداً حقّاً، لأنه كان يلوّح بفطيرة مدهونة بالسمن في الهواء كأنه يريد أن يتباهى بها أمام الملأ، ثم يقضم منها بين الحين والآخر فيتصبّب السمن حول شفتيه، ويطلق ضحكته الشجيّة كأنّه يسخر من القدر، ثم تجود مقلتاه الكبيرتان بذلك الإيماء النفيس الذي يسمّيه شعراء القبائل براءة.

في ذلك اليوم صبّت نساء الواحة اللعنات على رؤوس الرجال، كل الرجال، لأن الرجال هم المخلوقات الوحيدة في الصحراء كلّها التي لا تستحي أن تنجب أطفالاً من أرحام النساء، ثم تترك ما زرعت يداها رهينة الأقدار، وتذهب لغزو الأدغال طمعاً في الفوز بالأسلاب، فلا تعود من الغزو إلى الأبد. كما تساءل حتى الرجال أنفسهم يومها وشككّوا في أحقيّة أن ينجبوا أولاداً لا يملكون سبيلاً لإطعامهم، ولا لتحصينهم، ولا لإسعادهم.

كان اسم الولد «واني»، وكان اسم أمّه «تاني»، وكان الولد ولداً سعيداً حقّاً، لأنه لم يشتكِ، ولم يرفع صوتاً، ولم يرفس برجل ساعة وضعوه في فم الضريح ليلتقمه الثعبان. بدأ الأفعوان يبتلع القربان من نصفه الأسفل، فرأى الناس «واني» يبتسم لهم بغموض، بفرح، بحبّ، يلوّح في وجه الفضوليين بفطيرته المدهونة بالسمن كأنه يريد أن يهبهم من فطيرته نصيباً، كأنه يريد أن يقول لهم إن من حقّ القربان أن يستمتع بالفطيرة المدهونة بالسمن إذا كان عليه أن يذهب ليموت. كان «واني» وهو يكشف عن سِنَّيْن أماميين ناصعين، ويبرق بإيماء الجاذبية الذي يسمّيه شعراء القبائل براءةً، حسناً للنظر، وشهيّاً حقّاً، لأنه

يريد أن يقول بعينيه للقوم إن الذهاب إلى بيت النوح أفضل من الذهاب إلى بيت الفرح، لأن يوم الممات أفضل من يوم الميلاد(*)، فبكى القوم بمرارة. بكوا لأن الوليد الذي يجب أن يبكي ضحك في وجوههم. لم يضحك في وجوههم فحسب، ولكنه لوّح في وجوههم بالفطيرة المدهونة بالسمن ليلقنهم درساً في السخاء، وليقول لهم إن الموت الذي يفرّون منه هو الحياة، والحياة التي يفرّون إليها هي الموت، لأنه جاء من الصحراء ليسفّه التميمة التي اعتنقوها عندما ظنّوا أن الإنسان هو الكنز، ونسوا أن الإنسان لا ينقلب كنزاً حقّاً إن لم يدفع الحياة ثمناً للحياة. لأن حجر الحكمة الذي يختبر معدن الحياة هو الموت وليس الحياة. كان «واني» طفلاً سعيداً حقّاً، لا لأنّه لم يبكِ ولم يفزع حتى بعد أن غاب نصفه في جرم الثعبان، ولكن لأنّه لم يُبكِ أمّه أيضاً. كانت تتدثّر بالسواد، تتحجّب وراء ستور من الكآبة والغموض والشحوب، ولكنها لم تهلع ولم تنتحب قط. انتحبت النساء حولها، ولكنها ظلّت ساكنة كنصب من أنصاب الخلاء، يتشبّث الصغار بتلابيبها في طابور طويل، تحدج الوليد بتسليم عميق يستعصي حتّى على أشدّ المعتزلة بسالة. ويُقال

(*) سفر الجامعة.

إنها لم تنتفض، ولم يرف لها جفن حتّى عندما ابتسم لها الوليد، ولوّح لها بالفطيرة المدهونة بالسمن، قبل أن يغيّبه فم الوحش الفظيع، فسمع الجمع نداءً لم يُكتب لهم أن ينسوه إلى الأبد: «واني يحبّ تاني». وأقسم الكثيرون أنهم سمعوا ذلك النداء يتكرّر حتى بعد أن أطبق الأفعوان فكّيه، وابتلع الوليد كاملاً. وما زالت أغلبية أخرى تقسم مؤكّدة أنها سمعت النداء الموجع يتردّد في بطن الوحش كما سمعته أغلبية أخرى عبر أجيال وأجيال. التقم العسّاس القديم القربان، فاستقام البنيان، وانتصبت الجدران، وانصرف الخلق إلى شؤونهم الدنيوية، وعاد أهل الفضول إلى دنيا النسيان، فدفن أصحاب الزروع همّهم في حقولهم، واحتال آخرون لترويض نفوسهم فذهبوا إلى المراعي ليهشّوا مواشيهم في الخلوات، وذهب فريق ثالث إلى أبعد، فالتحقوا بالقوافل، وسعوا وراء التجارات، ونسوا جميعاً ذلك الشبح المريب الذي لم يتزحزح من موقعه في السفح، يرقب الأفعوان الرهيب ببصر غائب، يجرجر وراءه صغاراً بلغ عددهم نصف دستة. كان الزعيم قد وفى بالوعد فأطعمهم من جوع حقّاً، ولكن لم يكن في وسع الزعيم أن ينازع الأقدار فيعيد للأم قلبها الفقيد، فحامت المرأة حول الضريح زماناً طويلاً. كانت الشقيّة تخفي أولادها في كهف في السفوح

الغربية، ولكنها لا تمكث إلى جوارهم طويلاً، لأنها تنسلّ كالجنيّة وتقف في فوهة البنيان بوجوم يذكّر المارّة بوجومها في ذلك اليوم الذي قايضت فيه قلباً ابتلعه الأفعوان بلقمة مسمومة سُمّيت قوت الذريّة. مع مرور الأيام تنامت بينها وبين الوحش صلة حميمة من ذلك الجنس الذي ينشأ عادة بين الضحيّة والجلاّد. فكانت تأتي للأفعوان بالأطعمة واللحوم والفئران والأرانب، وتداعبه، وتتحسّس حراشفه القبيحة التي تشبه قطع الحجارة في صحراء الحمادة الغربية، بل ثَمَّ مَنْ ذَهَبَ إلى القول إنه سمعها بأذنيه تلقي في سمعه لحوناً شجية قديمة اعتادت الأمهات أن تتغنّى بها لتهدهد الصغار وتستدرجهم للنعاس. وقال آخرون إنهم شاهدوا هذا الكائن الكريه يستلقي برأسه في حجرها، ويغمض عينيه الكسولتين ويستسلم للسبات، في حين تتمايل الأمّ فوق رأسه مترنمةً بلحونها الشجنية القاسية إلى ذلك اليوم الذي استيقظ فيه القوم من سباتهم ليكتشفوا فيه اختفاء الأم. قيل إنها هاجرت برفقة قافلة ذاهبة إلى بلاد الجنوب تاركةً وراءها صغارها الأشقياء، وقيل أيضاً إنها لم تذهب إلى أيّ مكان، ولكنها ألقت بنفسها من رأس الجبل الشمالي ووارتها الهاوية، ولكن الدهاة أكّدوا أنها لم تذهب إلى الجبل، ولا إلى بلدان الجنوب، ولكنها وهبت نفسها للثعبان لتستردّ قلبها

المفقود؛ ذلك أنها لم تدرك سرّ الأبناء إلاّ بعد فوات الأوان. ذلك أنها لم تدرك إلاّ بعد فوات الأوان أن الأبناء إذا وُلدوا وسُمّوا أبناءً، فلا شيء يستطيع أن يحميهم من بطش الأقدار، وإذا بطشت بالأبناء الأقدار، فقد أنزلت الأقدار بآباء الأبناء البطش المميت مرّتين. ذلك أنها لم تدرك إلاّ بعد فوات الأوان أن الأبناء هم القصاص الذي يدبّره الخفاء ليدفع فيه الآباء للوقوع في قبضة أفعوان آخر أشد قساوة من أفعوان الجبل: القدر!

قال الحكماء بعدها إن من حقّ الأم أن تفرّ إلى وطنٍ مّا إذا كانت قد أدركت، ولو بعد فوات الأوان، أن الأبناء آفة الآباء، لأن الأبناء لم يولدوا في الصحراء إلاّ ليصيروا للآباء سرّ فناء.

12 ـ القربان 2

شخصوا به إلى الزعيم. أقبل عليه الرسول في المساء مرفوقاً بالعسس، وصعد به الجبل عبر درب انبثق عن الدرب المعهود، وانحرف شرقاً في أوّل الأمر، ثم ما لبث أن تلوّى لينحرف غرباً، ثم شمالاً. تسلّل الدرب، في البدء، عبر أزقّة البيوت المكتومة بالجدران، ثم تحرّر من الأبنية في المسافة التالية ليفضي إلى سفح عارٍ مفروش بذلك الجنس من الحجارة الذي استعار كل ألوان الصحراء مرّة واحدة، ففقد، بهذا النّهم، كل الألوان، فاحتار أهل العبارة في وصفه إلى حدّ جعلهم ينحتون له، في رطانتهم، نعتاً مريباً عندما أطلقوا عليه اسم «الكئيب». والحصن بنيان محصور في الصرح الصارم الذي يضع حدّاً لامتداد الجبل، ويكابر عالياً ليؤدّي إلى الشعفة السماوية المجهولة التي تتعالى لتبلغ السحب طولاً، ويلتفّ ليطوّق البنيان من جهة الشمال خالقاً، بذلك، سوراً طبيعيّاً لم

تبتدعه كف المخلوق، في حين تبدّى السور الآخر، السور الذي يطوّق البنيان من جهتي الشرق والجنوب، بئيساً، هزيلاً، وضيعاً، صغير الشأن، إلى جانب السور الشمالي الغربي المكابر، لأن يد الخفاء هي التي تدخّلت يوماً واتقنت له صنعاً لتبرهن للإنسان وضاعة قدرة الإنسان إلى جوار قدرة الخفاء. ولا أحد يعلم سرّ اختيار زعيم الأبد لذلك الموقع المعلّق في ذلك الفراغ المنيع، ولكن الكثيرين زعموا أن الداهية كان يتنبأ، كالمعتاد، بهذا الاختيار، لأن الطوفان ما لبث أن اجتاح الصحراء يوماً فتدفقت السيول، وفاضت الوديان، وانغمرت السهول الصحراوية، ولم ينجُ من ذلك القصاص المجهول إلا من اعتصم بسفوح الجبال من قبائل الصحراء. الواحة أيضاً غمرتها السيول، فأهلكت الأنام، وجرفت الأنعام، وأتلفت الحقول، ولم تكتب النجاة إلاّ لفئة قليلة تشبّثت بالصخور، واستطاعت أن تعتلي السفوح العليا. ويقال أن الصحراء عرفت هذا القصاص مراراً إلى حد جعل الحكماء يتساءلون عن أعجوبة البقاء ويندهشون كيف لم تنقرض السلالة الصحراوية من أركان الصحراء، فلم يكن أمام الداهية إلاّ القيام بتلقين سدنته وأعوانه وحاشيته بالأمثولة التي أطلقها عن البذار عندما تنبأ، فأكد للقبائل أن السيل لن يستطيع أن يقطع سلالة الصحراء من أركان

وطن اسمه الصحراء إلاّ في يوم يستطيع فيه الجفاف أن يقطع البذار من رحم الصحراء؛ لأن الصحراء لن تظلّ صحراءً إذا انقطعت من أرضها سلالة الإنسان، كما أنها لن تحتفظ بلقب الصحراء إذا فقدت الحيلة التي تصون بها بذور النبوت من الهلاك. ولم تكن نبوءة كاهن الأزمان لتتنقّل على ألسنة القبائل، وتتردد في أقوال الأجيال، لَوْ لم تعرف الأمم الصحراوية، عبر تاريخها الطويل، كيف تحنو الصحراء على حبّات البذار، فتخفيها في جوفها بحرص يفوق حرص الأمهات على أبناءهن، ولهفة إناث الطير على فراخهن، حتى إذا عبس الزمان، وحلّ البلاء، وضرب الجفاف أرضاً لأمودٍ تمتد لمئات بل لألوف الأعوام، تسترت الصحراء عن كنزها، وأظهرته في لعاع حقيقيّ، يزلزل مرآه أقسى كيان، ما إن تتبدّل الأيام، وتأتي سحابة تائهة من الشمال بوصيّة الغيث.

لهذه العلّة يقال إن زعيم الأبد لم يكترث لأقسى قارعة، ولم يُعِر لا الأوبئة ولا المجاعات، ولا الطوفانات، اهتماماً، لأن التهلكة في رؤياه، ليست بلاءً، ولكنها رسول يجيء في يسراه بالبشارة إذا جاء في يمناه بالخسارة، والخوف على السلالة الصحراوية من الانقراض خرافة كذّبتها الصحراء دائماً، كما كذّبت خرافة أخرى عن انقطاع سلالات النّبات.

ويُقال إن الجدران، كالخليقة، لا يستقيم لها الأمر إذا لم تَقُم على شطوط الوديان أو ينابيع الواحات، لأن الأقوام التي سلّمت بظمأ الحجر إلى المياه كظمأ الخلق إلى المياه، أدركت أيضاً ذلك الرباط الخفيّ الذي يشدّ الماء إلى الدّم بالغموض نفسه الذي يكبِّل الحجر ويجعله مريداً للدّم. ولم يفت السحرة أن يتولوا الأمر، ولكنهم لم يتوصلوا لفكّ الطلسم إلاّ بعد أجيال عندما تهامس الدهاة بوصيّة تقول إن كل ما كان وجوده مشروطاً بوجود الماء، صار الدّم لقيامه شرطاً، لأنهم اكتشفوا، بتصرّم الأيام، أن الماء الذي صار سرّ الأرض هو دم الأرض، والدّم الذي كان دائماً سرّ الإنسان هو ماء الإنسان. لهذه العلّة عانى بنيان الداهية من داء الانهيار طوال الأزمان الأولى. ويجمع الرواة أن أمهر عشّاق الحجارة، وأدهى أصحاب الأبنية، فشلوا في تقويم البنيان، كما فشل طراز الصخور، أو حجم الصلد في إنقاذ ما أفسده الخفاء. ويُروى أيضاً أن الداهية استقدم السحرة من أبعد الأوطان، وفتّش عن دهاة الأمم في أَخْبِيَة القبائل، وترصّد القوافل لينتزع من أسراب المهاجرين الأبديين تلك الفئة من العرّافين وأهل النبوءة الذين يروق لهم أن يخفوا حرفتهم، كما اعتادوا أن يُخفوا أسماءهم، خوفاً على أنفسهم من بطش الإنسان الذي لم يُخلق إلاّ ليصير عدوّاً لأخيه الإنسان. ولكن

الداهية لم يهتدِ لبغيته لأن الخفاء الذي أراد له اليأس مصيراً في ذلك اليوم هو نفسه الخفاء الذي قرّر، فيما بعد، أن ينجب له من رحم اليأس ذلك الرسول الذي وشوش له يوماً بسرّ يقول إن البنيان لن يستقيم بالحجارة، ولا بسواعد الرجال، ولا بقرابين الأنعام، لأن أبنية الحجارة ليست أبنية كما يتخيّل البلهاء، ولكنها أنصاب اليقين، وأنصاب اليقين أرباب اليقين، وأرباب اليقين لا تولد، ولا تستوي في جرم الحقّ إلاّ إذا نالت قربان الأنام وشربت من دم الإنسان، لأن دم الإنسان هو الماء الوحيد الذي يستطيع أن يروي حجراً يستعير سلالته من أمّ اسمها الأرض، تلك الأرض التي تروي مخلوقاً اسمه الإنسان بدم اسمه الماء. ويقول فريق رواة إن تكرار الوسوسة كانت وراء قرار الداهية. ويؤكد فريق آخر أن الزعيم شكّك في الرؤيا وتردّد، ولم يحسم أمره إلاّ في مساء يوم أقبل فيه عليه الرسول بجسد الأشباح ليخبره بالنبوءة بلسان لم يختلف في العبارة عن ألسنة القوم.

بعدها أمر الداهية بالتفتيش في أرباع القبائل عن الأضحية.

طاف الأعوان المضارب، ونزلوا النجوع، ولكنّهم خابوا، ولم يفلحوا في الفوز بالضّالّة لأن الزمان، في تلك الأيام، لم

يعبس، ولم يضرب أهل الصحاري بالأوبئة أو المجاعات أو الغزوات، فاسترخى الخلق، وتنعّم الأنام، واكتفى الصحراويون بما ملكت أيديهم، فلم يعرفوا الحاجة التي تدفعهم للتخلّي عن ذويهم، أو بيع أطفالهم كما اعتادوا أن يفعلوا أزمان المحن، لأنّهم جرّبوا، في عراكهم الخالد مع الجفاف والمجاعات، أن الذريّة التي تباع للأغراب تحيا وتكتب لها النجاة في بلاد الغرباء، في حين يهلك الآباء الذين قبضوا ثمن الذريّة. ويُقال إن دهاة القبائل لم يهتدوا لابتداع هذه الصفقة لينقذوا أنفسهم ولكن لينقذوا السلالة من الانقراض، ذلك أنهم علموا، منذ أزمان بعيدة، أن النجاة من التهلكة لا تكتب إلاّ للذين فرّوا من المكان المغلول بالبلاء، ولا يهلك في أزمان البليّة إلاّ الذين تشبثوا بمكان ترتع فيه البليّة. ولمّا كان أهل الصحراء لا يستطيعون، بسليقتهم، أن يحيوا في مكان آخر خارج الصحراء، فإنهم يتعمّدون التضحية بأبناء لم يعرفوا بعد ما معنى أن يولد الإنسان صحراوياً، فيدفعون بهم إلى أيدي تجّار القوافل اللؤماء الذين يرتابون في كل أمر إلى حدّ أنهم لا يشترون بضاعة وُهبت لهم بالمجّان خوفاً من الغشّ؛ مما اضطرّ آباء هؤلاء الأبناء أن يحتالوا، ويتظاهروا ببيع الأبناء بأثمان مريبة يقومون بدفنها في قيعان الوديان، أو على سفوح الأجبال إذا كانت بضاعة أو قوتاً،

كما يعمدون إلى إلقائها في الفضاء نذراً للريح إذا كان المقابل تبراً أو بُرّاً مسحوقاً.

خاب الأعوان، ولكن الداهية لم ييأس. قالوا إنه احتجب أياماً، ثم خرج إلى الملأ بنبوة قديمة أطلق عليها لسان القبائل اسم القُرْعَة. قال يومها إن القرعة لم تكن قط قرعةً، ولكنّها مشيئة الأقدار دائماً، والصواب أن نحكّم الخفاء لا أن نتطاول على الخفاء بالاحتكام إلى مشيئتنا، لأن الأسلاف جرّبوا أن ما ننجزه، بقدرتنا، أكذوبة حتى لو كان حقيقة، وما يرتئيه لنا الخفاء هو اليقين حتى لو تبدّى لنا أكذوبةً، كما جرّبوا أن كلّ ما اقترفوه تكشّف يوماً عن إثم أو ظلم، في حين انقلب عدلاً ما رأوه يوماً ظُلماً، فتعلّموا أن يكذّبوا أنفسهم، ويصدّقوا ما خفى منذ ذلك اليوم الذي سلموا فيه أمرهم بيد الأقدار.

الزعيم سلّم أمره بيد الأقدار أيضاً.

وقع اختيار الخفاء على قرينتي شقيقين ملكتهما يمين الزعيم عندما اشتراهما من أهل القوافل العابرة، فقرّبهما ما إن قرأ في مسلكهما آي الوفاء، ثم أكرمهما فأدخلهما على أَمَتَيْن من إمائه، قبل أن يكتشف مواهبهما وعشقهما لمملكة الحجارة، فرأى أن يسخّرهما في ملحمة البنيان. ويؤكدّ عدد آخر من الرواة أن

القرعة اختارت، في البدء، الشقيقين على أن تختار من الشقيقين أحدهما في الجولة الثانية، ولكن الشقيقين احتالا عندما حكّما الحظوظ في حميمتيهما. قيل إن الشقيق الأكبر هو صاحب البدعة، لأنّه أوصى بإهلاك الحميمة التي تقبل عليهما بطعام الغداء كما اعتادت القرينتان أن تفعلا مع حلول كلّ ظهيرة. لم يُثر الرهان ارتياب أحد وقتها، لأن المكيدة (كعادة كل المكائد) لم تتكشّف إلاّ بعد مرور الأيام ونفاذ القضاء. ذلك أن الشقيق اللئيم كان قد تعشّق حميمة شقيقه الأصغر سرّاً، ويبدو أن القرين أساء التقدير كعادة كل الرجال البلداء الذين ينتحلون التفوق لأنفسهم ويستهينون بتفوّق تلك المخلوقات الخفيّة التي لا تُخفى عليها خافية والمسمّاة في لسان أمم الصحراء نساءً؛ لأن هذا المخلوق الوديع الذي يقاسمه الفراش في الليل، ويتنفّس أنفاسه كان قد استنشق سرّه مع هذه الأنفاس، ولكنّه كتم السرّ وغصّ به حتى صار السرّ في بدن المخلوق علّة، لأن وجود امرأة أخرى في قلب الرجل هو ما لا يُخفى على قلب امرأة لم تتعلّم شيئاً في الحياة كما تعلّمت أن تقرأ في قلب حميمها الرجل. قرأت القرينة النبوءة المشؤومة في قلب القرين، ولكنّها أساءت التقدير أيضاً لأنها أَمِنَت الزمان الذي لا يؤتمن. استرخت، وانتظرت، وسلّمت أمرها للأيام فغدر بها

الزمان قبل أن تحسم في قلبها الأمر، لأنها وإن استطاعت أن تكشف خيانة الرجل بفراسة المرأة، إلاّ أنّها لم تستطع «أن تكتشف خيانة الخفاء في غدر الأيام. لهذه العلة تحدّث الرواة عن بطولتها يوم البلاء فقالوا إن نكبتها بمكيدة الزمان أقوى من مصيبتها بغدر القرين، والوجوم الشجاع الذي ارتسم على وجهها، ساعة الإعدام، هو من ذلك الطراز الذي لم يروه إلاّ على وجوه أولئك الذين تخلّوا عن دنيا الخلق أمداً طويلاً، فاستعاروا سيماء الأبديّة قبل أن يدركوا أوطان الأبديّة. فماذا فعل الشقيق الأكبر في سبيل إنقاذ معشوقته قرينة شقيقه الأصغر؟

قالوا إنه بعث لها برقعة جلد مع صبي اكتراه بحفنة من حبّات التمر، فأخبرها في الرقعة بالهول الذي ينتظرها، ويحثّها أن تنتحل عذراً لتتأخّر عن الميعاد الجسيم، في حين تعمّد أن يخفي الأمر عن القرينة التي جاءته في قيلولة اليوم التالي بطعام اعتادت أن تدسّ فيه دوماً قطعة من قلبها ليقينها بأن الرجل الذي يخفق في ترويضه مخدع المرأة لا بدّ أن يفلح في ترويضه طعام المرأة المجدوح بقطعة القلب. لم تكتفِ الشقيّة بالاحتيال لإبداع اللّذّة في المأكل فحسب، ولكنّها أقبلت بعطيّتها مبكّراً بدافع ذلك الجنس من الوساوس الذي ينتهب كل امرأة أيقنت

بوجود امرأة أخرى في حياة القرين، فنهشتها الغيرة، وتملّكتها هواجس جنون تحسبه الفزع من الفقد، ولا تدري أنَّه ليس فزعاً من فقد القرين في حقيقة الأمر، ولكنّه خوف من سلالة أخرى، خوف من طراز أكثر غموضاً، خوف من مصير تخشاه المرأة كما لا تخشى أيّ بلاء آخر في الحياة، خوف من مارد لا يأتي ذكره في محافل النساء حتّى يُسْرِعْنَ لدسّ أكفّهنّ في غبار التربان إبعاداً لشرّه المجهول؛ خوف من ذلك الغول المهيب الذي زعزع الأبطال، وتجنّبه الفرسان، وأطلقت عليه الأجيال اسم العزلة.

ودهاة القبائل الذين أدركوا سرّ المرأة هم الذين أكّدوا أن اختفاء الرجل من حياة المرأة ليس هو ما يضير المرأة. ما يضير المرأة هو أن تفقد الرجل قبل أن تتمكّن من الاستيلاء على الرجل البديل؛ لأن هذا المخلوق الخفيّ الذي لا يُقهر يستطيع أن يحتمل كل شيء، يستطيع أن يصمد في وجه أيّ بلاء، ولكنه لا يستطيع أن يحتمل غول العزلة يوماً واحداً، بل لا يستطيع أن يحتمل العزلة ساعة واحدة. لهذا السبب تفقد المرأة صوابها، بل قد تصاب بجنون حقيقيّ إذا باغتها القرين بالخروج قبل أن تتدبّر أمر البديل. وقد أرجع القوم لهفة قرينة الشقيق الأكبر للقاء يومها إلى إحساسها المبهم بخطر الفقد، لأن المرأة

ليست في حاجة أبداً للوقوف على الحقيقة لتصدّق هواجسها، ولكن حقيقتها تحملها في قلبها، حقيقتها جزء لا يتجزّأ من صلبها، حقيقتها في هواجسها، إلى حدّ أنها لا تخشى أن تكذّب حقيقة أمرٍ تراه بعينيها، وتصدّق أمراً أدركته بقلبها مهما تبدّى هذا الأمر للأغيار أكذوبة. والأعجوبة حقّاً أن تاريخ الصحراء لم يعرف امرأة واحدة أحسنت الاستماع إلى قلبها، فأخطأت التقدير وكذّبها قلبها. ولو علم الشقيق الأكبر بحقيقة المرأة لما احتاج لأن يحتال، لما احتاج لأن يغدر، لما احتاج لأن ينسج مكيدته الرذيلة التي لعنته بسببها الأجيال، وألّبت عليه قوى الخفاء، فأمهلته زماناً كما اعتادت أن تفعل مع كل خصم رذيل، ولكنها سَخَرَت منه كما اعتادت أن تفعل مع الماكرين، فَسَخَّرت له المعشوقة نفسها في أحد الأيام، فتنصّلت منه بدسّ السّمّ في الطعام عندما دبّ بينهما الخلاف، فبيّنت له في قلبها الكراهة.

لم يعلم الخلق أن الأضحية التي اختارها الرهان في ظهيرة ذلك اليوم لم تكن أضحية الأقدار، لم تكن أضحية الخفاء، لم تكن أضحية القُرعة النبيلة التي لم تخذل القوم يوماً، ولكن أضحية قيلولة ذلك اليوم كانت أضحية اختارها كيد الخلق الذين أبوا دائماً إلا أن يتدخلوا ليردّوا مشيئة الخفاء في حق الخلق،

ولم يعلموا يوماً أنهم بالباطل تدخّلوا، لأن تدخّلهم أيضاً تنفيذ للمشيئة الخفيّة لا في حقّ مخلوق سينقلب قرباناً في كلّ الأحوال، ولكن تدخّلهم ما هو إلاّ شَرَك نصبته الأقدار للإيقاع بهؤلاء، إذ أرادت أن تنزل بهم القصاص. ذلك أن الشقيق الأبله لم يعلم، كما لم يعلم أهل الكيد، وأشباهه الأشرار، أن الفزع من العزلة سيدفع امرأته للذهاب إلى الميعاد مبكّراً حتى لو لم يلجأ إلى تنبيه امرأة شقيقه الأصغر، وهو، بفعلته المنكرة، لم ينل امتياز الإبداع يوماً، مثله في ذلك مثل كل أقرانه في السلالة الصحراويّة، ففاتته وصيّة أسلافه الحكماء الذين قالوا إن الإنسان لا ينبغي أن يكابر أبداً، لأنه في حقيقته ليس سوى دمية بائسة في لعبة الخفاء الأبديّة. وبرغم تظاهر الإنسان بالتعاطف مع إنسان زلزله البلاء (ذلك التعاطف الكاذب الذي لا يخفي في حقيقته سوى أرذل أصناف الشماتة) إلاّ أن بطولة الشقيّة يوم الميعاد استطاعت أن تنتزع إجلالهم بكبريائها واستهانتها بمصير زعزع حتى أبطالاً راهنت القبائل على صيتهم وشجاعتهم. قالوا إنها تقدّمت نحو الجدار بلا مبالاة حقيقيّة. وأكّدت روايات أخرى أنها لم تتقدّم إلى ركن الهلاك باللامبالاة فحسب، ولكنها سارت إلى هناك بعينين تنطقان بالاستهانة، وعلى شفتيها تتكلّم بسمة استخفاف حقيقي، استخفاف عميق، استخفاف غامض،

استخفاف ليس موجّهاً إلى سلالات الصحراء أو ملل الأرض، ولكنه رسالة تخاطب السماء، تخاطب الخفاء، تخاطب الأقدار بإيماء جسور، لأنها لا تتكلّم بسيماء الاستخفاف بإرادة الأقدار فحسب، ولكنّها لا تخفي النّداء، لا تخفي بيانها المميت الذي يعلن عن تحدّيها لمشيئة الأقدار. وقفت بقامتها السامية عند أكوام الحجارة، انتظرت قصاصها باستكبار الأرباب، فلم يتجاسر الجلاّدون على الدنوّ من مقامها، ربما لأنّهم رأوا، كما رأت حشود الخلق في ذلك اليوم، كياناً مكابراً، كياناً خفيّاً، كياناً إلهيّاً يستعير جلاله وجماله وكبرياءه وقداسته من مملكة المجهول التي يجاورها، من وطن الأبديّة الذي سلّم أمره إليه، فلا يمتلك القوم إلاّ أن يروا فيه ربّاً من أولئك الأرباب الذين حدّثهم عنهم أسلافهم في وصايا ناموسهم المفقود، فيتزعزع القوم إجلالاً، ويرتجف الجلاّدون خوفاً ووجلاً، ويتصبّبون عرقاً، ويلجلجون بتمائم السحر القديم، ولا يلبثون أن يخرّوا أمام الكيان ساجدين، لأنهم رأوا، بقبس النبوءة، أن الكيان الذي ينتصب أمامهم ليس امرأة، ليس مخلوقاً ينتمي إلى ملل الخلق، ليس قرباناً اصطفته الأقدار ليكون للبنيان حجر الزاوية، ولكن الكيان صار ربّاً من أرباب الخافية، لأنه استعار خصال الخفاء، لأنه استعار كيان الأرباب وقداسة الأرباب، فحقّ له أن

ينقلب ربّاً في صفوف الأرباب. لم تسجد للكيان في ذلك اليوم جموع الغوغاء وحدها، ولكن الأكابر سجدوا أيضاً، والدهاة أيضاً سجدوا، والجلاّدون الذين يقومون بأمر البنيان أيضاً سجدوا، بل يجزم بعض الرواة أن داهية الدهاة، زعيم الأبد، أيضاً، خرّ أمام الرؤيا ساجداً.

بعدها تقدّم الكهنة، وأومأوا بالبدء في تنفيذ المشيئة.

تقدّم أحد الأعوان وتمتم في أذن الكيان الجليل راجفاً. ولكن الكيان لم يتزحزح. الكيان مضى يحدّق في الفراغ، يحدّق في الأبديّة، بذلك الإيماء الموجع الذي يمتزج فيه الاستخفاف، بالاستعلاء، باللامبالاة، بالمرح الخفيّ، بالتحدّي المميت، ببهجة الذين تقرّر مصيرهم، فلم يعد يهمّهم من أمر دنيانا شيء.

تقدّم آخر يتزلزل بالارتباك والوجل. تقدّم وركع وأشار للبدن المقدّس أن يتقدّم. أشار بيمينه، وارتجّ بدنه فترنّح وكاد يسقط أرضاً. بل يُقال إنه عثر بحجر عندما تقهقر فوقع أرضاً. امتثل الربّ. امتثل الجرم المقدّس وتربّع في الموقع الذي رسمه أصحاب البنيان بجلاميد الحجارة ليكون للربّ ضريحاً أبديّاً. تربّع في الركن باستسلام يليق بالأرباب حقّاً. تربع بتسليم أهل

السماوات الذين لا يجدون فرقاً بين ما نسمّيه في رطاناتنا موتاً أو حياة، لأنهم لا يرون للهلاك وجوداً، ولا للحياة وجوداً؛ لأنّهم علموا سرّ اللعبة التي تتبادل فيها الأدوار، فينتحل فيها بعبع أطلق على نفسه اسم الموت دور قرينه الذي أطلق على نفسه اسم الحياة، ومضوا في اللعب، بل تمادوا في تبادل الأدوار عندما رأوا أن اللعبة أنطلت على بلهاء يسمّون أنفسهم أناماً لأنّهم كابروا بامتلاك كنز سمّوه عقلاً، وحسبوا أن كنزهم سيجديهم نفعاً في الاهتداء إلى حقيقة اللعبة، اللعبة التي اختار لها القرينان الصحراء ليتبادلوا في ساحتها لعبتهم الماكرة.

ولكن الفساد لا يستسلم. ولكن الفساد سلطان لا بد أن يعرف طريقه إلى أبعد الأركان، لأن الأرض مملكته التي يأبى أن تنافسه في امتلاكها حتى الآلهة. الفساد ما لبث، في ذلك اليوم المهيب، أن ضرب البطولة بزلزال فاختفى إيماء القداسة، إيماء الأبديّة، من مقلة الربّة، فتزعزع الكيان المقدّس، وهبطت الربّة من عليائها، لتصير مخلوقاً دنيوياً بالذريّة. بلى، بلى. الذريّة هي العلّة. الذريّة هي سبب الفساد. الذريّة هي نجاستنا التي نضحّي في سبيلها بالقداسة. الذريّة هي عارنا الذي يلجمنا، ويدنّسنا، ويشدّنا إلى الأسافل بسلسلة طولها سبعون ذراعاً، لأنها القوّة الوحيدة التي تجعلنا نخون أنفسنا، نخون

حقيقتنا، نخون علياءنا، فنضعف، في اللحظة الأخيرة، ونرتضي الهوان، ونتنازل طوعاً عن السماء، ونقبل الصفقة الخاسرة التي تنزلنا من عروش الربوبية إلى أحاضيض الفساد والأغلال والشماتة والبهتان.

الرّبّة تنازلت عن ربوبيتها ساعة ساءلوها عن الرغبة الأخيرة فأومأت ليأتوها بوليدها الرضيع. جاؤوها بالرضيع، فألقمته ثديها في الحال. ألقمته ثدياً ثريّاً، ناهداً، سخيّاً لم ير القوم لجماله مثيلاً حتى إن الكثيرين استنكروا جُرْم الشقيق الكريه يوم علموا بالمكيدة، واستعجبوا كيف استطاع هذا المخلوق أن يتنصّل من امرأة تمتلك نهداً ببهاء ذلك النهد الفذّ الذي كشفت عنه الربّة في ذلك اليوم، ولم يكن غريباً في ملّة تكبر النهود، وترى في فخامة صدور النساء مثالاً للبهاء، أن تتناقل الأفواه أشعاراً شجيّة عن نهد الربّة قالها شعراء مجهولون، أو دهاةً من فئة الأكابر الذين يروق لهم أن يقولوا الأشعار سرّاً وينشروها بين الناس بأسماء ملفقة، أو ينسبوها إلى شعراء أموات، أو يعمدون إلى إلصاقها بعشاق أو شعراء يهرعون إلى تبنّيها ليتباهوا بها أمام معشوقاتهم.

ألقمت الأمّ وليدها الرضيع ثديها النفيس، فرأى الخلق

كيف يتضعضع الإله ويتضع حتى ينقلب مخلوقاً بشريّاً وضيعاً لا يختلف عن باقي أبناء السلالة الوضيعة. شهد القوم التحوّل الفظيع حتى إنّهم لم يكبروا، ولم يستنكروا عندما انتهز الجلاّدون الفرصة وشرعوا يقيمون حول المرأة كيان الحجارة. كانوا في عجالة من أمرهم، كأنّهم كانوا يخشون أن تنتهي الأمّ من إرضاع الوليد فتنقلب ربّة مرّة أخرى، كأنّهم كانوا يعلمون أنهم سيخفقون في مهمّتهم إذا أدركتهم النبوءة التي ستستبدل القربان لتزرع في جرم المرأة ذلك الكيان الفاجع، ذلك الكيان المقدّس، ذلك الكيان الإلهيّ الذي استعارته المرأة من المجهول عندما رمت الكائنات بنظرة الكبرياء المجدوح بآي الاستخفاف منذ قليل. ولكن الحظوظ كانت معهم في حلفٍ. الحظوظ مع الجلاّد أبداً في حلف. الحظوظ ألهت الوليد فتلاعب بثدي الأم كأنه يعلم أنه لن يكتب له أن يلثم بشفتيه حلمة الثديّ بعد اليوم أبداً، فتباطأ، وتلهّى، وتلذّذ مطلقاً صوتاً غريباً بلسانه سمعه الكثيرون، فاستسلمت الأمّ كما تستسلم المعزى لأوجاع يسبّبها جشع الجدي الجائع عندما يندفع ليلتقم الضرع بذلك العنف الذي ميّز الجداء الشقيّة دائماً، حتى إنّها لم تفق من غيبوبتها إلاّ بعد أن اكتشفت أن الوليد قد ارتوى لأنه كان قد نام في حضنها. ساعتها اكتشفت أيضاً أن بنيان الضريح قد استوى حول

جرمها، وارتفع فوق هامتها. ويُقال إن الضحيّة لم تستردّ علياءها إلاّ بعد أن استعادت منها زمرة النساء وليدها. ولكن ذلك حدث بعد فوات الأوان، لأن الخلق أجمع يومها أن الجلاّدين لم يكونوا ليجرؤوا على دفن الربّة حيّة في ركن جدارهم البشع لو لم تتنازل الربّة عن سيمائها الخفيّة.

أجل، يقول الدهاة، الأبناء لا يكتفون بأن يكونوا فتنتنا، ولكنهم يأبون إلاّ أن يختلسوا حياتنا، فإن لم يتمكّنوا من أخذها خلسة، انتزعوها غصباً.

13 ـ الرّبّ

استوى البنيان يوماً.

استوى البنيان يوماً فرآه الأنام حسناً، ووجدوا في جدرانه بهاءً، فلم يتمالكوا أنفسهم، فخرّوا له ساجدين كما خرّوا يوماً للكيان الجليل، للكيان النبيل، الذي استعار سيماء القداسة، لأنه انسلّ من دنيانا ليصنع بجرمه حجر الأساس الذي تقوم عليه عروش الأرباب.

لم يسجد القوم لبنيان الحصن البديع فحسب، ولكنهم تغنّوا ببهائه زمناً، وحاموا حول أسواره زمناً آخر، ورمى الكثيرون بأنفسهم إلى هاوية الجبل عندما أسكرهم البهاء، وفقدوا الصواب، فقرّروا أن يتخلّوا ويذهبوا إلى الخفاء ليسائلوا الأقدار عن وطن الجَمَال. ضحّوا في سبيل البهاء بالنفوس، فلم يكن عسيراً عليهم أن يضحّوا بالأبناء قرباناً للسرّ الذي ابتدع

البهاء. نحروا الأبناء عند حيطان السور المجيد، وأبقوا على هذا التقليد زماناً استغرق طويلاً. ويُقال إن صاحب الهاوية كان عاشقاً يردّد أشعار القدماء في لغز البهاء، ولكنّه كفّ عن مديح المعشوقة بالأغاني يوم اكتمل بناء الحصن، ورأى جمال البنيان الذي يمتطي عجيزة الجبل المهيب، ويتعالى في الفضاء ليصير جزءاً حميماً من الفراغ السماويّ اللامبالي، المكابر، الخالد، فبكى. بكى المريد بمرارة. طاف حول البنيان باكياً أياماً، أسابيعَ، أشهراً، وربما أعواماً. وعندما غلبه الحنين، وأعجزته الحيلة، ذهب ورمى بنفسه في هاوية الجبل الشمالية. أمّا المريد الثاني فقد ترنّح في حضيض الحيطان البهيّة أيضاً، وتوجّع بآهات الممسوسين زماناً، وحطّم رأسه على جدران الحصن أزماناً أخرى، فلم يره القوم إلاّ ملطّخاً بالدماء، يقفز الوجد من عينيه المخيفتين، إلى أن جاء اليوم الذي لم يجد فيه المسكين ما يفعله بنفسه فركض وجاء بولده الصبي لينحره عند حضيض الحصن المنيع. يومها سمع القوم من فم المجنون نبوءة رددتها الأجيال طويلاً: «لا ينبغي أن نحبّ إلاّ ما لا ينفع، ولا ينبغي أن نعبد إلا ما لا يوجد. ما لا نفع له يقين، ما لا وجود له حقّ». ثم انطلق ليهيم في الفلاة، فلم يره أحد بعد ذلك اليوم إلى الأبد. وقد نعت الدخلاء هذا المسلك بالمغالاة دوماً لأن

جحافل الغرباء التي تجوب الصحراء لم تعرف حقيقة السلالة التي أنبتتها الصحراء يوماً. غاب عن الدخلاء أن الصحراويين ملّة ليست ككلّ الملل، لأنها لم تقل الأشعار لتستدرج بالمديح جلالة الجَمَال، لم تقل الأشعار لتستهوي جلالة الجَمَال، لم تقل الأشعار لتستولي على الجَمَال، ولكنها قالت الأشعار لتدنو من حرمٍ اسمه الجَمَال، قالت الأشعار لتسكن حرماً اسمه الجَمَال، قالت الأشعار لتحيي ربّا اسمه الجَمَال. وتعترف أمم الدخلاء وسلالات العابرين أنّها لم ترَ قوماً يبكيهم زفيف الريح في يبيس النّبوت إلاّ في الصحراء، كما لم ترَ خلقاً يهزّهم شذى الرتم إلاّ في الصحراء، كما لم ترَ أقواماً يزعزعهم مرأى الطير، أو سموق شعفة الجبل، أو بهاء مستنقع ماء تخلّف عن السيول إلاّ في الصحراء، كما لم ترَ رجالاً لهم أجرام المردة، وبرغم جبروت الأجرام يرتجفون ارتجاف السنونو عندما تقع أبصارهم على شاة غزال، أمّا إذا رأوا بهاء الصبايا فإنّهم لا بد أن يفقدوا رشدهم، وينكفئوا ليدفنوا وجوههم في التراب، أو يقعوا في وجد لا تُحمد عقباه، لأنهم لا بدّ أن يخسروا في رحلة الجنون أبدانهم، أو يحطموا على الجلاميد جباههم، وكثيراً ما ذهبوا في جنونهم إلى أبعد، فرموا بأنفسهم إلى التهلكة، أو رموا بالأقرباء أو القرناء إلى التهلكة.

ولا يزال بعض أهل البصيرة يروون لذويهم أمثولة التائه الذي هاله مرأى مستنقع ماء تخلّف عن غيث سحابة عابرة، فآثر أن يموت ظمأً على أن يدنّس الغمر البكر بشفتيه. يقول هؤلاء في السيرة إن العابر قطع الصحراء الوسطى برفقة أحد قرنائه، فنال منهما الظّمأ، لأن بعيرهما أفزعته ذئبة، فجنح بالمتاع، وأسقط زاد الماء أرضاً. أنشقّت قربة الماء إلى نصفين، ولم تفلح حيل القرينين في إنقاذ السلسبيل النفيس من الضياع، فهاما في البيداء طلباً للآبار السريّة التي آلى أهل الصحراء على أنفسهم أن يبتدعوا في سبيل إخفائها أخبث الحيل، فتوغّلا، وابتعدا عن الصراط المستقيم، فاستدرجتهما المتاهة، وازدادا عن السبيل ضلالاً، وفقدا الصواب، فتسكّعا مرّة صوب الشرق، ومشيا مرّة أخرى صوب الغرب، وارتدّا مرّة ثالثة على عقبيهما ليمضيا جنوباً، إلى أن حلّت بهما تلك الساعة المميتة التي يرتجّ فيها على كلّ عابر، فلا يستحي من العورة لأنه يستثقل الأثواب فيتعرّى، وينقشع وراء الحياء الكاذب الكبرياء الكاذب أيضاً، فلا يلبث الشقيّ أن يتخلّى، ويهوي من علياء البهتان، فلا يعود يرى الأشياء أشياءً، لا يعود يرى الأرض صحراءً عارية، لا يعود يرى السماء عراءً موجعاً، لا يعود يرى الكائنات أعداءً ولكن الشوكة المميتة في جؤجوئه تنكسر على نحو غامض، فتتعرّى

الأشياء عن سجايا أخرى، وتتكشّف في الصحراء صحراء أخرى، وتتبدّى في السماء سماء أخرى، ويرى الكائنات مخلوقات أخرى. ساعتها لا يرى صاحب الظمأ الماء ماءً، ساعتها، حسب، يرى الظمآن في الماء ربّاً حقيقيّاً لا يختلف عن أعظم الأرباب. كلاّ، كلاّ. ساعتها يرى الظمآن في الماء ربّاً يختلف عن أعظم الأرباب، لأن الظمآن، ساعتها، يرى في الماء ربّاً أعظم من كلّ الأرباب، فيبكي فزعاً لأنه يتذكّر كيف دنّس هذا الإله مراراً، يرتجف هولاً لأنه يدري أنه أهان الماء في حياته كثيراً، لأنه لم يعرف حقيقة هذا الإله يوماً. ساعتها يتسلّل إلى قلب المريد الهمّ. همّ جديد. همّ من طراز فريد، همّ لم يكن للظمآن أن يعيشه لولا غياب الماء. ساعتها تتملّك المريد رغبة، يتملّك المريد هوى أقوى من الرغبة. ساعتها تستولي على الظمآن شهوة. شهوة من صنف جديد. شهوة ليست ككل الشهوات، لأنها تلك الشهوة المجبولة بالوجل، باللهفة، بالقداسة، التي تزعزع كيان المريد إلى حدّ أنه يفضّل أن يموت بقصاص اسمه الظمأ، على مصير يدفعه للقيام بتدنيس ربّ الأرباب بشفتيه.

وككلّ مرّة يبلغ اليأس الذروة، وككلّ مرّة تغتسل النفوس

المغلولة بالكبرياء الكاذب بترياق اسمه التخلّي، وفي كلّ مرّة يعرف فيها الإنسان القصاص، ويدرك هذا المخلوق الأبله أنه لا يعني في ناموس الكائنات شيئاً حتى لو امتلك الأرض وبلغ الجبال طولاً، في كلّ مرّة يرى فيها إنسان الصحراء حقيقة أمره برسول اسمه البلاء، فلا بدّ أن ينقلب الأمر أخيراً، لا بدّ أن تموت في المخلوق أوهام رآها دائماً يقيناً، ولا بدّ أن تولد في المخلوق كنوز رآها دائماً أوهاماً. يومها ماتت في قلب الظمآن، أيضاً، أوهام. يومها وُلدت في قلب الظمآن، أيضاً، كنوز. رأى الشقيّ كنزه في تلك الغمضة التي اعتلى فيها الرابية برفقة القرين، فتكشف الحضيض، من الجانب الآخر، عن الكنز. كان مستنقعاً سخيّاً، تخلّف عن إحدى السحب الصحراويّة العابرة التي يروق لها أن تغيث أرضاً هنا، وتخطىء أرضاً بالجوار، فيسبح أصحاب الحظوظ في الغمر هنا، ويهلك أصحاب القصاص في أرض الجوار. كانت بحيرة حقيقيّة، مستطيلة، تتلبّس حضيض فجّ محصور بين رابيتين، يحوم فوقها الطير، وتتلامع مياهها تحت سياط الشمس القاسية بإغواء السراب؛ فانهار الظمآن، وخرّ على الأرض راكعاً. كان يلجلج بكلم كالهذيان، ويهتمل برطانة خفيّة كتمائم الكهّان. كان الهواء في صحراء الأصياف ميتاً لأن موسم الهجير اعتاد أن يقطع دابر

حتى الإنسام، ولكن الغمر الجزيل في بحيرة العجب مضى يرتجف ويتدافع بذلك الإلحاح الحميم الذي يُذكّر برعشة جلد البعير عندما يريد طرد الذّبّان اللجوج. ويقول الرواة إن الرفيق لم يطق صبراً، فاندفع إلى أسفل، وركض حتى رمى بنفسه في الغمر. نهل القرين من الماء نصيباً، ولكن الظمآن لم يقطع صلاته، ولم يكفّ عن اللجلجة بابتهالاته. افتقده القرين بعد أن استعاد سلطان العقل بتميمة الماء، فعاد على عقبيه حاملاً في الوعاء جرعة الماء. ولكن الشقيّ لم يهبّ لملاقاة الماء بذلك الجشع المخجل الذي يقبل فيه أهل الظمأ عندما تقع أبصارهم على ربّ اسمه الماء. تناول الظمآن الوعاء، وحدّق فيه طويلاً بعينيه العميقتين، الخفيتين، الغائبتين. حدّق في الأعجوبة التي لا لون لها، ولا طعم لها، ولا رائحة لها، فرأى لها لوناً، واشتمّ لها رائحة، وأدرك لها طعماً دون أن يكون في حاجة لأن يشيّعها إليه ليدنّسها بشفتيه. كان يرتجف كالمحموم، ويغمغم بلجلجة الممسوسين، و. . يبكي. بلى، بلى. كان المريد يبكي بمرارة أرباب الحنين الذين يتلذّذون بدموعهم، ولا يستحون من البكاء أبداً، لأن حزنهم من طينة أخرى، لأن حزنهم أكبر من الإحساس الزائف بالعار، لأن حزنهم أنبل من المراسم الوضيعة التي صاغها الخلق في شرائع أسموها «ما يليق وما لا يليق». في

تلك الومضة حاول القرين أن يعيده إلى الصواب. في تلك الغمضة هزّه القرين بكفّ العنف ليخرجه من نعيمه ويعود به إلى جحيم أكبرته القبائل وسمّته عقلاً. زعزعه بكلتا يديه، فارتجّ البدن الهزيل، ولكنه أبى أن يلثم حافة الوعاء بشفتيه، فلم يجد القرين بُدّاً من أن ينتهره بالعبارة:

ـ إِشْرب!

شيّع إليه الظمآن بصراً غائباً قبل أن يتمتم بالجواب:

ـ ماذا؟

ـ إِشْرب!

ـ ماذا تقول؟

ـ قلت لك إشرب إذا شئت ألاّ تهلك!

ولكن الظمآن حدّق في الماء بوجد العشّاق، والتمع في مقلتيه العميقتين إيماء مريب حقّاً، ولكنه مرح. إيماء إنسان مصاب، ولكنه، وبرغم المصاب، سعيد. ثم.. ثم تبسّم. تبسّم بغموض. تبسّم بمكر من أدرك حيلةً، أو عثر على كنز، أو فاز بإلهام مباغت، فقرّر أن يستأثر بكلّ ذلك، ويخفي حقيقة الأمر عن الأغيار، وربّما حتى عن نفسه. نفذ صبر الرفيق فصرخ في وجه قرينه الشقيّ:

ـ هل تريد أن تهلك؟ ألا نضلّ السبيل لنجد السبيل إلى السبيل؟ ألا نُبعث من الهلاك إلاّ لنحيا؟ ألا نعطش إلاّ لكي نرتوي؟

ترنّح الظمآن بجذل سكارى الحنين، ورتّل أغنيةً بصوت البلاهة:

ـ لا. لا. لا نذهب إلى التيه لنعود من وطن التّيه. لا نبعث من الموت أحياءً لنحيا حياة الأحياء. لا نرتوي من آبار الظمأ لننهل من ينابيع الماء!

ـ لا شكّ أنّك تهذي؟

ـ لا. لا. نحن نذهب إلى التّيه ليذهب بنا التّيه بعيداً، بعيداً. نحن نُبعث من الموت أحياءً لنحيا حياة أخرى لا علاقة بينها وبين حياة الأحياء. نحن نشرب من آبار الظمأ لننهل من ينابيع أخرى، لننهل من ينابيع اليقين الذي يقودنا إليه الظمأ، لا من ينابيع الماء.

ـ ألم تُخلق الحسناء لتُفترع؟ ألم تُخلق زهرة الرّتم لتقطف؟ ألم يُخلق الماء، أخيراً، ليُشرب؟

عاد الظمآن يترنّح بلحنه السماويّ العجيب:

ـ لا. لا. لم تُخلق الحسناء لتُفترع. لم تُخلق زهرة الرّتم لتُقطف. لم يخلق الماء ليُشرب.

ـ أنت تهذي!

ـ مَنْ يعشق الحسناء لا ينبغي أن يفترع الحسناء، مَنْ يشتهي عطر الرّتم لا ينبغي أن يقطف زهرة الرتم. مَنْ أدركه الظمأ إلى الماء لا ينبغي أن يعرف طعم الماء!

حاول القرين أن يسقيه الماء بالقوّة، ولكنه نفضه بقوّة مارد الجنّ، فأسقط في يد القرين، وانهار أرضاً ليردّد بذهول:

ـ لا يُصدّق! هذا لا يصدّق!

ولكن ما لم يصدقه الظمآن ليس قوّة الجان التي حلّت في بدنه الذي هزمه الظمأ، ولكن رؤيا الماء. ذلك أن القرين روى للقبائل كيف فزّ الظمآن بكبرياء الفرسان، ونزل سفح الرابية بخطو بطولي لم تعرفه أجرام الظامئين يوماً، ومشى إلى أن وقف فوق الغدير. هتمل بصدره لحناً شجنيّاً غامضاً، لحناً اعترف القرين أنه لم يسمع لحلاوته مثيلاً لا من حناجر صبايا الإنس، ولا من حناجر مغنيّات الجنّ. كان ينتصب في ذلك الفجّ الصارم الذي تتناهب ألسنة السراب فيه الضفاف، وتتسلّط فوقه سياط شمس الظهيرة، وتتلاعب فيه أنسام مجهولة، تتسلل لتلاعب غمر الغدير، فيرتجف في الخضمّ الجزيل ربّ الأرباب، ويتدافع في موج خفيف، حميم، جموم، حتى يلثم

شطوط التربان العطشى، فتتلقاه أرض الظمأ الخالد بلهفة العشق، ليغيب في أحشائها، فلا يعود إلى الخضم الأمّ أبداً، لأن الصحراء التي صارت صحراء بقصاص الظمأ، عاهدت نفسها أن تصير للفيض عدوّاً لا بدّ أن تفقده في الحال إذا أرادت أن تمتلكه إلى الأبد، فعلّمت الصحراء الأجيال الوصيّة النفيسة التي تقول إننا نفقد ما ننال، ولا ننال إلاّ ما نفقد.

روى الرواة نقلاً عن القرين أن الظمآن تغنّى بموّاله المجنون فوق رأس المستنقع الجليل طويلاً، ولم يتوقف عن الغناء إلاّ في ظهيرة اليوم التالي عندما سقط ميّتاً بالظمأ على بُعْد شبرٍ واحدٍ من غمر الماء.

وتحدث القرين أيضاً فقال إنه سمع المريد يلج الماء عندما علا القمر، وسمعه يتهتمل بنبوءة تقول: «من حقنا أن نلج الماء، ولكن ليس من حقنا أن نشرب الماء؛ لأن الماء الذي نلجه نخرج منه أحياءً، ولكن الماء الذي يلجنا لا يخرج منّا حيّاً».

14 ـ البُنيَان

الأمود التي استغرقها تشييد البنيان بقيت مجهولة. ويقول بعضهم إنها سلخت من عمر الأزمان أعواماً، ويقول آخرون إنها اختلست من عمر الأزمان أجيالاً. ولم يكن في وسع مخلوق يدرك حقيقته الزائلة أن يسمح لنفسه بالتطاول في الأبنية آماداً طويلة لو لم يراهن هذا المخلوق على خلودٍ ناله بطلسمه الذي استغلق على الخلق، وأعجز أمره حتى جبابرة الجنّ؛ لأن الكلّ سمعه يفشي يقينه الأزلي القائل إننا لا يجب أن نراهن إلاّ على ما أفلحنا على إخفائه، لا على معشر الأنام فحسب، ولكن حتى على أنفسنا، كما يجب أن نحترس من كلّ ما عرفنا، لأننا، إن عرفنا، لن نستطيع أن نأمن أنفسنا من إفشاء سرّ ما عرفنا. ولكن الأجيال لم تصدّق المغالاة، وأرجعت سرّ الداهية إلى أسباب دنيويّة لا علاقة لها لا بما خفي ولا بما ظهر، وحتّى الطلسم لرهيب لم يكن للغز إلاّ حجر الركن، لأن الأقوام لم تصمّ

آذانها عن تلك الوشوشات المريبة التي سُمِعت دائماً من أفواه الأعوان وأفراد الحاشية هامسة بأقوال تؤكّد تعاطي الداهية للعقاقير المشبوهة، وتتحدّث، بكثير من الغموض، عن صلاته الحميمة بأهل السّحر، مومئةً بذلك إيماءً لا يقبل الشكوك عن يقينها بحقيقة الطلسم القديم، زاعمةً أن سرّه لا ينتمي إلى أسرار الخفاء كما روّج الداهيّة ليضلّل الخصوم والطامعين في الاستيلاء على السلطان، ولكنه سرّ دنيوي لا يختلف أبداً عن الأسرار الشائعة التي اعتادتها المخلوقات.

ولا يشك أحد في علم الداهية بأمر هذه الوشوشات، ولكن الرواة يزعمون أنه لم يعرها الاهتمام يوماً، بل أجمعوا أنه كان يبتسم بغموض عند سماعها، ولكن لم يجرؤ أحد على الادّعاء بأنّه عقّب يوماً على هذا اللّغو. كان يهشّ الذبّان اللجوج بمنسأته العجيبة التي تتباين فيها ثلاثة صنوف من شعور حيوانات بريّة مجهولة، ثم يأمر أن يجيئوه بأرباب الحجارة ليجادلهم في أمر البنيان. كان يستقدم أمهر أصحاب البناء من أبعد الأوطان، ويدفع لهم أجوراً ضربت القبائل بسخائها الأمثال، ويسخّر العبيد في اقتلاع أعظم الصخور من صلد الشعفة الجبليّة المجاورة، ولكنهم كانوا يهلكون تعباً فيهرع إلى تجّار القوافل

ليبتاع آخرين يصيرون للهالكين بديلاً. وكان الناس يتندّرون بحقّ البنيان في مجالسهم، ويتساءلون باستخفاف الأنام إزاء أمر لم يعرفوا له غاية أو لم يقفوا له على سرّ: «أما لهذا البنيان يا ترى من نهاية؟!»، فيجيبهم الداهية ببيانٍ لا يخلو أيضاً من استخفاف قائلاً إننا لا يجب أن نكفّ أبداً عن البنيان إذا شئنا حقّاً أن نحيا، لأننا، في الحقّ، لا نشيّد البيوت لنسكنها، ولكننا نبتني جدراناً نموت فيها. ولم يكن القوم ليتلقّوا هذا التبيين دون أن يعمدوا للتعبير عن استنكارهم، فطعنوا في الأمثولة في الحال، ربما لأنهم ابتنوا بيوتاً أيضاً، وتخلّوا عن حياة الترحال، فخانوا سجاياهم، وخالفوا وصايا أسلافهم، فحقّت عليهم تلك اللعنة الخفيّة التي تصيب أولئك الذين نال منهم تعب الأسفار فذهبوا ليسلموا أنفسهم للأرض، للاسترخاء، للاستقرار في الواحات، فحسبوا أنهم ما زالوا على قيد الحياة، وغاب عنهم أنهم هلكوا وزالوا والتهمهم غول النسيان منذ حلّوا على المكان أضيافاً، وصاروا في كفّ الأرض مماليك. لهذا السرّ استفزّتهم أمثولة الداهية، فاستنكروا، وطعنوا، وفتّشوا في ناموس الأوّلين عن الحجج، ولكنه لم يمهلهم، بل مضى في حملته إلى أبعد يوم أكّد أننا نبقى على قيد الحياة ما مضينا نبني، فإن انتهى بنا الأمر إلى استكمال البنيان، حللنا في الخطر، ووجدنا أنفسنا نهجع

بين الجدران أمواتاً. وقيل أيضاً إن الأعوان سمعوه يردّد مراراً أنّ سرّه في البنيان وليس في الأحجية، وحيلته ضدّ الزمان ليست في الطلسم القديم، ولكنّها في معاندة البنيان، وهو لن يكفّ عن التغنّي بلحنه الشجيّ (كما كان يروق له أن يطلق على البنيان)، لأنه يعرف أنه لن يشيخ، ولن يترهّل، ولن يهلك، إلاّ في ذلك الأوان الذي تسوّل فيه له نفسه أن يتخلّى عن الأمر، ويرجع عن ملحمة البنيان.

لم يصدقه القوم بالطبع، وأشاعوا في الواحة أن الادّعاء ما هو إلاّ حيلة أخرى من حيله الكثيرة التي دأب على إطلاقها ليخفي حقيقته عن الأغيار، وليضيّع الأثر إلى سرّه على السحرة وأهل الدهاء، وهم لن يصدّقوا، لأنهم لم يرثوا عن الأسلاف وصيّة تدعم هذه البدعة، كما لم يسمعوا من ألسنة القبائل ما يؤيّد زعمه، فلم يكن أمام الداهية إلاّ أن يعيد على أسماعهم يقينه، بل مضى إلى أبعد فرجم سادتهم بتهم قاسية، وانتهى إلى أنّهم أموات قبروا عقولهم قبل أن يقبروا نفوسهم، لأن الوصيّة تأبى أن تلج رأساً بلّده الاسترخاء، والحكمة لا تجري على لسان ذاق طعم لقمة مسمومة اسمها الاستقرار، وامتيازه ليس في الطلسم المزعوم، ولكنّه في الوفاء للأسفار، وهو الذي لم

ينزل أرضاً، ولم يعرف الاستقرار يوماً، وملحمة البنيان ليست برهاناً على الركون إلى الترباء كما يحسب البلهاء، وليست أيضاً دحرجة غبيّة لجلاميد الحجارة، ولكنها عراك مستميت مع القدر، والتحام أبدي مع الخفاء الذي يَعُدُّنا خصوماً إذا سكنّا، ولا يعترف بنا خلاّناً إلاّ إذا سرنا في ركابه ورحلنا. وبرغم مواهب الغوغاء في زرع الشكوك، وقلب الحقيقة أكذوبة، وتحويل الأكذوبة إلى حقيقة، إلاّ أن الإيماء في مقولة الداهية لم يغب عن بال تلك الفئة القليلة من أصحاب البصائر الذين تعلّموا أن يصمّوا الآذان عن لغو الدهماء، فتأمّلوا الأمر مليّاً، واستنبطوا الأمثولة طويلاً، فرأوا كيف يماشي صاحب البنيان مسيرة بنيانه بحياته، بجسده، في تحوّلاته، وأحواله، وتقلباته، صانعاً من نفسه للبنيان نظيراً، أو خالقاً من البنيان لنفسه مثيلاً، يترعرع، ويزدهر، وتتلبّسه العافية مع تعالي الجدران واستواء الديار في البنيان، ولكن لا يلبث أن يغزوه الشحوب، وتكتسح جرمه التجاعيد والغضون، وينشدّ بدنه إلى الأسافل بأغلال الشيخوخة، وتتضعضع فيه قوى العقل، فتبدأ مسيرة الخَرَف، ويتلجلج اللسان بالحمق والزّلل، فيتضاءل فيه البدن، وتهوي القامة، ويتقوّس الظهر، ويخط الشيب فيه الشعر، وتتبدّد الشعور وتتساقط في أزمانٍ أخرى حتى يتعرّى تماماً، ولا يتوقّف

الفناء إلاّ بتجديد اللحن، لا يتقهقر الزوال إلاّ في يوم يأمر فيه صاحب الأمر بهدم الدور، وتخريب الجدران، وإعادة تشييد البنيان، فتُقرع الطبول، ويركض النذير بالنداء، فيتسابق الأعوان، وتتراكض ملل العبيد، وتقبل الفلول على الحصن السماويّ المعلّق في الفراغ، لتشترك كلّها في هدم أساس ملحمة زالت، ولتبتدىء في وضع أساس ملحمة تبتدىء. تبتدىء الملحمة فتتململ الخلايا في بدن صاحب الملحمة. يتراجع الشحوب، ويتبدّد الشيب، وتختفي الغضون، ويجري الدم في الهيكل البائد، الواهن، الهزيل، ويبدأ المخلوق في الميلاد من بطن المجهول من جديد. وعندما يرتفع البنيان الجديد عن سطح الأرض أشباراً، أو أذرعاً، يستعيد الداهية مرحه القديم أيضاً، فيلتفت إلى الجلساء القدماء ليشكوهم الهمّ، وليحدّثهم عن بلاء الشيخوخة التي أنسته أحبّ الأشياء إلى قلبه: النساء!

بلى. كان الداهية لا يعشق في الصحراء شيئاً كما يعشق النساء، ولا يشتهي في دنياه أمراً كما يشتهي الحسناء. وكان يروق له أن يشتكي ما إن تبيد الجدران ويقترب شبح الشيخوخة: «آه، آه. إنّي أشعر بدنو الهَرَم يا قوم. لو لم يحرمني الهرم من نعيمي لما أشركت بالهرم شيئاً. لو لم

يحرمني الهَرَم عناق النساء لما رضيت بغير الشيخوخة مصيراً، لأن من عاش طويلاً، يا قوم، وحده يعلم ما معنى أن يحيا الإنسان طويلاً؛ لأن من شاءت له الأقدار أن يحيا إلى الأبد وحده يعلم فظاعة أن يحيا الإنسان إلى الأبد. ولو لم يجد الإنسان إلى جواره المرأة، لما احتمل الحياة يوماً واحداً. فأعلموا، يا قوم، أن الحياة هي الأحضان، والعزاء الوحيد هو المرأة». ويوم الخروج من القمقم لا بدّ أن يكون في حياة الواحة يوماً مشهوداً. يوم التحرّر من أغلال الشيخوخة لا بدّ أن يصير مبرّراً لافتراع أكبر عدد من العذارى. يوم الميلاد لا بد أن ينقلب عيداً لمعانقة الأبكار واحتضان الصبايا، لأن زعيم الأبد لا يفوته أن يذكّر بيقينه القائل إن الأموات إذا كانوا ينالون من أيدينا كنزاً اسمه القربان، فما أحوجنا أن نهب أولئك الذين فُقدوا، ثم بُعثوا من الموت أحياء قرباناً اسمه المرأة. لأن القبائل التي أيقنت، من قديم، بوجوب إرواء الأرباب بدماء الأنعام ليظلّوا أرباباً، هي أوّل من سنّ الناموس الذي يستوجب إرواء الرجال بدماء البكارة كي ينقلبوا رجالاً.

15 ـ الزعيم

أجمعت أمم الصحراء على يقين يقول أن لا أحد يستطيع أن يدّعي القدرة على اكتشاف الأدنياء، في زحام الخلق، إلاّ الأدنياء. كما لا يستطيع أحد أن يدّعي القدرة على الاهتداء إلى الأنبياء، في زحام الخلق، إلاّ الأنبياء. ذلك أن القبائل جرّبت عبر تاريخها الصحراويّ الطويل أن صحاب السجيّة الواحدة، كأهل الحرفة الواحدة، لا يلتقيان إلاّ كعدوين متوثبين تتناهبهما شكوك ووساوس واستنفار إلى حدّ أنهما لا يبيتان ليلتهما لا تحت سقف واحد، ولا فوق أرضٍ واحدة، بل لا يلبثان، إن التقيا، أن يكشفا عن نواياهما الخبيئة، فلا يستحيان أن يعلنا، بالمسلك، وقوفهما إلى جانب الأمثولة المميتة التي تقول إن الصحراء الأبديّة التي وسعت أقواماً وأمماً وقبائل، تضيق وتضيق وتضيق حتى تنقلب أضيق من سَمِّ الإبرة إذا اجتمع في رحابها دنيئان اثنان، أو نبيّان اثنان. ولم يكن من حق حكماء الصحاري

أن يستنكروا أو يستعجبوا، لأن من قرأ في مسيرة السلالات الصحراويّة آي الخلق، لن يفوته أن يعلم حقيقة السليقة الإنسيّة التي رأت في الدناءة رسالة سفلية، كما رأت في النبوءة رسالة سماويّة، فأيقنت إلى الأبد أن الدناءة أيضاً وصيّة، كما أن النبوءة وصية، بل نزل النجوع رسل الغموض الذين أنبأوا أن الحياة في الصحراء لن تستقيم إن لم تعترف بالضدّين، بل ربما تضعضعت وتدهورت وانقطعت إن لم تهرع لإيواء رسل كلا الفريقين.

وكان من حقّ القوم أن يتباهوا بناموسهم، ويثنوا على أسلافهم وهم يرون، يوم اللقاء، سيماء خصومة خفيّة، تلتمع في كلتا المقلتين. وبرغم أن ميعاد اللقاء حدث في أوان الأفول الذي يعاني فيه صاحب الحصن من أهوال الشيخوخة ورَهَل الأيام الفانية، إلاّ أن الإيماء في عينيه كان طاغياً طغياناً لم يتناسب مع زمن الأفول الذي يطفىء الوميض في العينين، ويصيب البشرة بالزَّبَل، ويستلّ القوى من البدن، ويزرع البلبلة في العقل. إيماء الخطر في عيني مولى القوم استفزّ الحاشية، وأيقظ في نفوس العسس والأعوان ذلك الاستنفار الذي يستيقظ في أنفس هذه الملّة عندما تستشعر كل ما من شأنه أن يكدّر

صفو وليّ نعمتها، أو يعرّض حياته للخطر، فتفقد صوابها، ولا تعرف السبيل الذي يقودها إلى حيلة تبدي بها الولاء إلاّ القفز إلى مقابض السيوف مدعية أنها تفعل ذلك للدفاع عن ولي الأمر، ولا تدري أنها لا تفعل ذلك دفاعاً عن وليّ نعمتها، ولكنها تفعل ذلك دفاعاً عن نعمتها.

في ذلك اليوم احتكم الأعوان إلى مقابض السيوف أيضاً، ولكن وليّ الأمر غلب إيماء العداء بحكمة السنين، وأومأ للجمهرة بالتنحّي، ثم أشار للخدم أن يجلسوا الرسول إلى جواره على المفارش الجلدية الممهورة برموز الأرباب الصحراوية وطلاسم العلامات السحريّة.

كان عجوزاً هشّاً، هزيلاً، ضئيلاً، شاحباً، موسّماً بالعروق والغضون ومكائد المشيب وآثار السنين، ولكن مكيدة الزمان لم تفلح في القضاء على الوميض الرهيب الذي يفزّ من مقلتين صارمتين تتألقان بمكر وراء قناعه الكتّاني الكئيب، فلم يكن عسيراً على رسول الأبد أن يدرك في جوار أيّ جنس من أجناس المخلوقات وضعته الأقدار.

ساد وجومٌ مميت. ساد ذلك النوع من الوجوم الذي لا يسود إلاّ بين خلق يبيّتون في الجآجىء أمراً، أو يروّضون كيداً، أو نيّة، أو عشقاً يعجز عن إفشائه البيان، أو كراهة تستعسر حتى

على الأقدار. ولكن.. ولكن داهية الأبد استعان بلغة الأحاجي ليقهر الوجوم الخالد. داهية الأبد احتكم إلى لسان الناموس عندما تكلّم ببيان الأمثولة:

- الحجر يبيد، والجدران تتآكل، ولكن الشمس لا تشرق من الغرب، ولا تذهب في رحلتها إلى الشرق. النبع يتدفّق، والماء يجري إلى أسفل، ولكن أرض الحضيض لا ترتوي من الماء، والزرع في الحقول لا يشبع أصحاب الحقول. اللسان أعجز عن البيان، ولكن العضلة لا تشبع من الكَلِم!

ترنّح بفجيعة الخالدين الذين توجّعوا طويلاً جدّاً، لأنهم عاشوا طويلاً جدًّاً. رمق يد الرسول الجلديّة، بل حدّق في القطعة الجلدية طويلاً، ثم توجَّع بالآهات، وترنّح بانتشاء الشعراء عندما يستسلمون لسلطان الحنين في أغاني الصبايا، قبل أن يعود إلى دنياه المخبوءة في لغة الأحاجي:

- إذا بادت الجدران، حلّ في الجرم أفول الأمد؛ وإذا اندسّت الكفّ في غمد من جلد، فقد حلّ أفول الأبد!

ترنّح مرّة أخرى، ولكن صوت الطبل الرهيب أعاده إلى الصواب. صوت الطبل أعاده بالقوّة إلى المجلس؛ لأن الطبل كان حيلة أخرى من حيل الداهية في حربه مع الزمان. الطبل

صار لعبة الزعيم منذ صار الخلود قدر الزعيم. الطبل صار تميمة الزعيم التي تعيده إلى رحاب العقل كلّما نازعته الشيخوخة وحاولت أن تختلس منه الذاكرة، وتتركه فريسة لداء النسيان. فكان أول من تجاسر على تبديل رسالة الطبول من نذير يصرخ بنداء الحرب، إلى رسول ينذر بحلول عدوّ اسمه الزلّل، ويوصي ببلاغ اسمه العودة إلى رحاب العقل. آلمه التجديف في المجالس، واستفزّته أقوال دهماء استخفّوا بقواه العقلية وسخروا منه بسبب الخَرَف، فابتدع صولجاناً، ووضع الصولجان في كفّ أشدّاء العبيد، وأوقف أشدّاء العبيد فوق الطبل الجليل كي ينذروه بقرع الطبل كلّما زلّ في قول أو أخطأ في عبارة، أو اشتطّ في بيان.

في ذلك اليوم، أيضاً، اشتطّ به البيان. ولكن الزلزلة استعادته من ظلمات النسيان، ورمت به بين الأكابر في المجلس. تبسّم بغموض الذين تعلّموا لغة الخفاء، وذهبوا ليجادلوا الخفاء بلسان الخفاء في وطنه، ولم يعودوا من هناك إلاّ بعد أن تحصّنوا بوصاياه الخفيّة.

استلقى إلى الوراء، ورفع طرف لثامه ليستر أنفه النحيل، ثم تغنّى:

ـ آه لو علم ضيفي الجليل شيئاً عن عسر الميلاد! آه لو علم جليسي ما أعسر أن يولد الإنسان.

عبث الضيف بيده الجلدية الخفيّة، ثم قال دون أن يشيع رأسه:

ـ عسير، أيضاً، يا مولاي أن يموت الإنسان!

ـ صدقت. عسير أن يموت الإنسان، ولكن الأعسر من أن يموت الإنسان، هو أن يولد الإنسان!

ـ عجباً! لا أدري أين ولا متى سمعت قولاً جسوراً كقول مولاي.

ـ الحقّ أقول لك: لم أُوتَ من العلم بالموت كثيراً، ولكنّي بأمر الميلاد أعلم!

ـ هل يريد مولانا أن يحدّثنا عن البعث؟

ـ صدقت. الحق أقول لكم: إذا فضّل بينكم مخلوق مصير الموت على مصير البعث فصدّقوه.

ـ عجباً!

ـ لن يصدّق قسوة البعث إلا من جرّب البعث.

ـ هل يرى مولانا دنيانا موجعة إلى هذا الحدّ؟

ـ وهل يرى ضيفي الجليل لوجع الدنيا حدّاً؟

ـ حسبنا دائماً أن لا وجع يفوق وجع الموت.

ـ أخطأت: وجع الموت أهون من وجع الميلاد، والذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة(*).

ـ حكمة مولاي أعظم، لأن مولانا هو الإنسان الوحيد الذي جرّب الميلاد كثيراً، كما جرّب الموت كثيراً!

ـ صدقت. ولكن.. ألم يحن الأوان لندع سيرة الموت والبعث جانباً لنسائل الرسول عن حقيقة الرسول؟

ـ حقيقة الرسول رهن أمر المولى الذي أمر بإيواء الرسول.

ـ خبرني: أأنت رسول رخاء، أم نذير بلاء؟

ـ وكيف لمن لم يعلم من حقيقة أمره شيئاً أن يعلم أرسول رخاء هو أم نذير بلاء؟

ـ غموض البيان من غموض النوايا!

ـ ينقلب الرخاء بلاءً، ويتحوّل البلاء رخاءً، فكيف يريدني مولاي أن أجزم، أنا العابر البائس الذي لم يملك يوماً من

(*) الذهاب إلى بيت النوح خير من الذهاب إلى بيت الوليمة (سفر الجامعة 7:2).

أمره شيئاً، ولم يدرِ يوماً إلى أيّ منقلب سينقلب أمره؟

ـ غموض العبارة ذخيرة المعني، ولكن.. ولكن دعنا من هذا وحدثني عن أحوال الأوطان الجنوبية!

ـ الحال، يا مولاي، في الأوطان الجنوبية هو الحال نفسه في الأوطان الشمالية.

ـ ألم تهلك القبائل، في صحاري الجنوب، بالسيول؟ ألم تهلك القبائل، في صحاري الجنوب ببلاء الجدب؟

ـ تهلك القبائل في صحاري الجنوب بالجدب اليوم، كما هلكت القبائل، في صحاري الجنوب، بالسيول بالأمس!

ـ وراء الأكَمَة ما وراءها!

ـ ماذا؟

ـ تحوم العقبان حول الجيف، ويرتفع صوت النوح في يومٍ تتوارى فيه الكفّ في غمد من جلد.

ـ ماذا يقول مولاي؟

ـ النبوءة. نبوءة الطير. ألا يُقال إن الطير هو الذي يرمي بالنبوءة في سمع كلّ وليّ أمر؟

ـ الحقّ أني لا أفهم.

ـ دعنا من النبوءة، دعنا من القبائل أيضاً، وحدثني عن الأبكار.

ـ الأبكار؟

ـ أجل الأبكار! هل خلق شيء في هذه الصحراء القاتلة أشهى من الأبكار؟ ها ـ ها ـ ها. . .

أطلق جعجعة لا تتناسب أبداً مع هزاله وضآلة جِرْمه، ولكن صخب الطبل زعزع الأركان، فصمّ الضجيج الآذان، وعمّ المكان سكون موجع.

ثاني الأيّام - البلبلة

16 ـ الطّلسَم

يروون عن الطلسم أنه كشجرة «تُورْهَا» التي تتخذها أقوام الجنّ أوكاراً: من أراد أن ينجو من شرّها، فلا حيلة له إلاّ أن يلتجىء إليها ليعتصم بعجيزتها. لهذا السبب اعتادت القبائل أن تتخذ من أعرافها تمائم تنصبها بجوار الركائز، أو تثبّتها فوق الأخبية كي ترهب بها الجنّ الذين يروق لهم أن يتسللوا إلى المضارب ليغزو البيوت، ويستبدلوا أبناء الإنس بأبناء ملّتهم الكريهة. لهذه العلّة لم يتمالك نفسه ما إن بَصُرَ بالطلسم في عين الغلام، فارتجّ، وترنّح، وتلجلج. أدرك أن الغلام الشقيّ هالك بسرّ اسمه الطلسم من حيث يجب أن يحيا بكنز اسمه الطلسم. أدرك أن الطلسم، بالمجهول ، سرّ قوّة؛ ولكن الطلسم، بالوقوف على السرّ، علّة هلاك. أدرك أن الطلسم كراء رفيع، ولكنه، أيضاً، نقطة ضعف وقدر مريع. أدرك أن الطلسم في عين الغلام مكافاة، ولكنه كنصل المدية التي ندافع بها عن

أنفسنا، فإن أسأنا استعمالها، وخالفنا ناموسها، وأهملنا في شأنها، فإنها ستقع في كفّ عدوّنا الذي لن يرحمنا إذا تمكّن من مقبضها ووجّه النصل إلى نحرنا. ولكنه أدرك أيضاً أنه لا يجب أن يتساءل كثيراً، لأن الخفاء الذي آثرنا بالغنيمة، هو نفسه الذي اختار القصاص للأغيار كبديل عن الغنيمة. ذلك أن الغنيمة واحدة، ويستحيل أن تكون من نصيب الكُلّ. فإذا نلنا كنزاً، فذلك ليس قسطاً من الغنيمة، ولكنه كلّ الغنيمة؛ لأن الكنز سرّ لا يقبل الاقتسام بالسليقة، لهذا السبب لا تقع هذه الهبة الخفيّة في طرف، إلاّ إذا هلك الطرف الآخر. وما النزّال الخالد بين طلاّب الكنوز إلاّ برهان على استحالة اقتسام الكنوز. فإذا نال المخلوق هبةً، فعليه أن يعلم أنها ليست نصيباً، ولا قسطاً من أقساط الغنيمة، بل هي كلّ الغنيمة، لأن في بليتنا يتستّر رخاء الأغيار، وفي رخائنا يتوارى بلاء الأغيار. ولن يستطيع مهما فعل أن ينال الغلام وينال إلى جانب الغلام، الكنز المخبّأ في مقلة الغلام. لن يستطيع مهما فعل أن يستولي على الكنز، إلاّ إذا فقد الغلام. لن يستطيع، لأنه يعرف، بالوصايا، معنى أن يخرج الإنسان في طلب الكنوز. لن يستطيع لأنه يعرف، بالوصايا، القرابين التي تطلبها الكنوز. لن يستطيع لأنه يعرف، بالوصايا، الضحايا التي تُبذل لنيل الوصايا. وما زعزعه ليس

اكتشاف الطلسم في عين الغلام، ولا إدراكه للثمن الذي عليه أن يدفعه لاستخراج كنزه النفيس، ولكن ما زعزعه وضعضع قواه هو تلك الفجيعة اللذيذة التي يستشعرها كل من تسلل إلى قلبه وسواس أطلقت عليه القبائل اسم الحبّ!

أجل، أجل. لقد اكتشف ذلك منذ الومضة الأولى التي وقع فيها بصره على الولد. استيقظ في مجهوله إحساس غامض حسب أنه استأصله منذ زمن بعيد، بعيد، يوم توارى جرم المعشوقة الخالدة في قاع الوادي المضطرب بالسيل المارد، ولم يكن أمامه، منذ ذلك العهد، إلاّ أن يستسلم لمشيئة الخفاء، وينذر نفسه لوصيّة الأبد. استيقظ الإحساس الخطر ساعة رأى الولد برفقة العجوز تتلاعب بجرميهما النحاسيين سرابيل سراب القيلولة، فأيقن بإلهام نبوءة لا تخطىء تقول إن الغلام ليس غلاماً ككلّ الغلمان، لأن الشأن الذي سيربطهما ليس وهماً، لأنه جرّب استنطاق الأشياء، وأحسن الإنصات لصوت الخفاء، فالتقط من مجهوله السيماء في ذلك اليوم، كما التقطه في كلّ الأيّام، فلماذا يرتجّ، ويتزعزع، ويفزع، كلّما تململ في صدره ذلك الإيماء الذي أسماه الخلق حُبّاً؟ ألأنّه التقم الفاكهة يوماً فعرف ما لا يجب أن يُعرف وحُرِمَ ما لم يشأ أن يُحرِم؟ كلاّ،

كلاّ. ليس الدّاء كامناً في خطر الفقد الملازم لكلّ امتلاك. ليس الدّاء في الخوف من مصير التّيه الذي يعقب كل فوز. ليس الدّاء مبيّتاً في البلبلة، أو الوسوسة، أو تشويش الهواجس، ولكن في اليقين بأن كل شيء هالك: الجَمَال هالك، والحبّ هالك، والمخلوق الموسّم بالطلسم هالك، وهو أيضاً هالك. كان يرافق الغلام لتفقّد الدّابّة في الحقول مع حلول الأمسيات، ويمازحه بالتساؤل عن سرّ عشقه للأضياف والدواب والأمسيات، فينهش قلبه الفضول وهو يسمع الجواب: كان يتغنّى بمديح الضيفان لأنهم يأتون للواحات بالخفايا .وعندما تساءل عن سجيّة هذه الخفايا تمهّل قبل أن يقول إنها العطايا. ولكنه ساءله عن جنس العطايا أيضاً، فتأمّل ثم أخبر أنها الوصايا. تضاحك مراراً قبل أن يناشده المزيد فتحدث عن الأمسيات بلسان الشعراء. قال له مرّة إنه يعشق الأماسي لأنها تتنفّس أنساماً سماليّة بليلةً، وأضاف في مرّة فقال إنه لا يهفو للأمسيات لأنها تهبه أنفاس الشمال البليلة فحسب، ولكن لأن الأمسيات تجلب للواحات أقماراً وأحلاماً وأغنيات الصبايا. رنا إليه بفضول مجدوحٍ بإعجاب، وازداد يقيناً بالوصيّة التي تتردّد على ألسنة أبناء القبائل وتقول إن كلّ أبناء الصحراء شعراء. أمّا عن الأنعام فقد قال عجباً. قال عجباً لأن العجب لا يصير عجباً

إن لم ينتحل من المجهول حكمة مجهولة. قال إن الأنعام أكرم لأنها إن لم تنفعنا، فإنها لن تؤذينا. قال إن الأنام توجع أكثر مما تنفع، ولكن الأنعام تنفع أكثر مما توجع، بل اليقين أن الوجع قرين الأنام، والنفع قرين الأنعام. ثم حدجه بمكر ليلقي بالسؤال عن أيّ القرينين أجدى لنا أن نختار، فتوعّده بالسبّابة ليتهمه بانتحال لسان صديقه العجوز. ولكن الشقيّ أقسم بالأرباب المخيفة استنكاراً، وأعلن العهد استنزالاً للقصاص إذا كان قد تجاسر ولوّت لسانه برذيلة الكذب. أراد يومها أن يتنكّر فشاكسه بالسؤال: «وما أدراك، أيّها الشقيّ، ما الوجع وأنت بعد في المهد صبيّ؟». فتوجّع الغلام وأجاب باللسان المنحول: «الأحياء، كلّ الأحياء، يا مولاي، للوجع. والأموات، كلّ الأموات، يا مولاي، للنسيان!»، فلم يتمالك نفسه، وانطلق في الجعجعة. جعجع في ذلك اليوم بصوت عالٍ، مجلجل، منكر. مسح الدمع، وأنّبه بصرامة: «أتريدني، بعد هذا القول، أن أصدّق أن لسانك لا يستعير الأقوال من عقلاء القوم؟». تبسّم بخبث جواباً عن السؤال، ولكنه لم يجدّد العهد، ولم يقسم بأرباب الصحراء إنكاراً لرذيلة الكذب. مضى يحجل على قدم واحدة، ويدحرج حجارة السبيل، ويترنّم بألحان قال إنه سمعها من أفواه الصبايا في آخر مرّة احتفلت فيها نساء الواحة بعيد

استواء القمر بدراً. . ثم. . ثم توقّف عن الغناء، وأسرّ له بنيّته في أن يذهب إلى حرجة النخل القائمة في تخوم الحقول الجنوبية ليريه عشّ الطير الذي أخفى أمره عن الأقران. فكيف لا يتزعزع إذا علم أنه لا يستطيع أن يمتنع عن الحبّ؟ وكيف لا يجبن، كيف لا يحزن، بل كيف لا يُفجع يوم أبصر في عين الغلام شارة الخفاء (ذات الجرم المستدير الذي يحاكي استدارة الخفاء كما يقول الكهنة)، فأدرك أن المحبوب، بالإيماء، ليس هالكاً فحسب كما تهلك كل المخلوقات في أوطان الصحراء، ولكنّه هالك بقَدَرٍ اسمه الطلسم، قبل أن يُكتب عليه الهلاك بمصير اسمه الموت؟

17 ـ المارد

بالماء تولد الواحات، ولكن الماء لا يكفي لإنعاش الحياة في الواحات. بتدفّق الماء من الأعماق تنبت الواحات، وتُبعث حيّة من مجاهل العدم، ولكن الواحات لا تربّي اللعاع، ولا تنتعش إلاّ بتدفق القوافل من مجاهل الآفاق.

الماء علّة ميلاد الواحات، ولكن الواحات لا تلبث أن تتضعضع، وتهرم، وتزول إذا اكتفت بنفسها، ولم تستقبل في رحابها رسل التجارة وحملة الأسواق.

الماء، أيضاً، رسالة، ولكنها رسالة السماء برغم أن الصحراويين لم يعثروا عليها يوماً إلاّ في أبعد أعماق الأرض. أما السوق فهو رسالة الأرض إلى أهل الأرض كي يبرهنوا بها على أحقيتهم للفوز بلقب أهل الأرض. الماء شَرَكَ الصحراء لاستدراج أهل الصحراء. كي يبتدعوا الكيان، وينخرطوا في

ابتناء هيكل الاجتماع، ولكن الصرح يأبى أن يكتمل، والبنيان لا يرتضي القيام إذا لم تهرع إلى المكان القوافل حاملة على الظهور مارداً اسمه التجارة.

يستيقظ رجال الأوطان في أحد الأيام ليحققّوا أحلام المنام. يستيقظ الرجال ليتنصلّوا من هويّتهم كرجال، ويستعيروا لقب أصحاب الأحلام. يستعيرون لقب أصحاب الأحلام لأنّهم قرروا أن يلبّوا نداء الانتقام، أو يستعيدوا المعشوقة المفقودة، أو يشبعوا الشهوة إلى الثروة، أو لمجرّد رفع الشأن بين القوم لتحقيق المجد، أو لأنّهم قرّروا أن يبدّلوا ما بأنفسهم حقّاً فلم يجدوا قناعاً غير التجارة ليتنكّروا.

ينطلقون أخيراً. ينطلق أصحاب الأحلام ليركبوا الأهوال بالمجّان. ينطلق أصحاب الأحلام إلى المتاهة فراراً من متاهة أفظع تركوها وراءهم، وربما أخفوها عن أنفسهم وحملوها في أعطافهم أو تلابيبهم أو مجاهل أعماقهم. ينطلقون لا ليربحوا أو يكسبوا أو يعقدوا الصفقات، ولكن لكي يخفوا أمرهم عن أنفسهم، لكي يكيدوا لأنفسهم، لكي يفرّوا من أنفسهم، لكي يجتنبوا خسارة صفقة أخرى مع أنفسهم.

يهب الأشقياء أنفسهم للظمأ، للتّيه، لغارات قطّاع الطرق،

ويعرّضون حياتهم للتهلكة، لأن الوساوس التي يفرّون منها أفظع من الظمأ، أفظع من التّيه، أفظع من غزوات قطّاع الطرق، أفظع من أبشع أهوال الصحراء الخالدة، لأن ما يتهدّدهم، لأن الغول الذي يخفونه بعيداً عن أنفسهم، لأن الإيماء الذي استيقظوا يوماً ليجدوا أنفسهم في قبضته فتوهموه إلهاماً، أو نبوءة، ليس سوى كابوس سيبتلع حياتهم قبل أن يحقّقوا وهماً مميتاً رأوا فيه غايتهم. ذلك أن الثروة لم تكن في حقيقتها إلاّ هذا الطعم اللئيم الذي يستدرج مريديه إلى الأبد ولا يتوقف عن الإغواء إلاّ في نهاية شوط يحلّ فيه الميعاد، وتتبدّد الشهوة، وتنكسر الجرّة على العين، وتنقصف البكرة على البئر، ويرجع التراب إلى التراب كما كان(*)، فيكون أوان الاستدراك قد فات، ولا يبقى للمريد إلاّ الاستسلام. ولكن أصحاب التجارات الأشقياء يسوقون في أخفاف قوافلهم كنزاً خفيّاً كُتب عليهم أن يجهلوا سرّه إلى الأبد. أصحاب الصفقات الذين خسروا صفقتهم منذ أوّل يوم، ينقلبون رُسلاً يجنون على أنفسهم ككلّ الرسل الذين يقدمون حياتهم قرباناً في سبيل إحياء الوصايا التي يحملونها في رسالاتهم. أهل التجارة أيضاً يندفعون لركوب الخطر ظنّاً منهم

(*) سفر الجامعة (12: 7).

أنهم سيحقّقون بهذه المجازفة أنفسهم، ولكنّهم، في اليقين، يفقدون أنفسهم ليحيوا، بهذه الخسارة الجسيمة، نفوساً تتبعثر في رحاب الصحّراء الأبديّة اسمها الواحات. ولو علم أهل التجارة أن رحلتهم لم تبتدىء لتحقّق أوهاماً ظنّوها أحلاماً وأمجاداً وحساناً وصيتاً وثراءً، ولكنها تمضي، ولا بد أن تمضي حتى وإن خذلتهم وخيّبت ظنونهم، لأن الأقدار شاءت لها أن تحقّق غاية أخرى يوم وضعت في بنيان الواحات حجر الأساس وبعثت أقواماً من الموت أحياءً. بهذه المفارقة صار أهل التجارات رُسلاً. بهذه الأحجية الساخرة كسب عشّاق التجارة رهاناً أرادته لهم الأقدار، من حيث خسروا الرهان الذي أرادوه لأنفسهم. اللغز الذي يتباهى به الخفاء يتكّمن هنا. اللغز الذي يتباهى به الخفاء يقول إن قدر المخلوق ألاّ يأكل الفاكهة التي ارتآها لنفسه، ولكن الأغيار هم الذين يأكلون من الشجرة التي استزرعها لتصير له في أحد الأيام قوتاً. الإنسان لا ينال ما حسبه يوماً غاية عمله، ولكنه يهب، دون أن يدري، للأغيار ثماراً حسب أنه إنما يجتنيها لنفسه. في هذا الاستفزاز لا تتخفّى شماتة الأقدار، ولكن تتوارى حكمة الأقدار أيضاً. في الفلاة الفاجعة تهلك القوافل ويبيد أصحاب القوافل ليصيروا، بهذا السّباق المميت، قرباناً لإبقاء الواحات على قيد الحياة.

وإذا كانت القوافل قد اعتادت أن تحتمل الأحمال بين الأوطان، كما يحتمل الرُسل الوصايا بين الأقوام، فإن القوافل اعتادت أن تحمل فوق السّلع خلقاً سُمّوا أغراباً، ولا تطمئن على مصيرهم إلاّ عندما تستودعهم تلك الأعشاش الدافئة التي تحتضن التجارة، وتسمّى في لسان أهل الواحات أسواقاً.

في أسواق الواحات تنتعش التجارة، وفي أسواق الواحات (التي تتقاطع فيها منافع الخلق، أو تتآلف) تُنسج مصائر الغرباء، وتترابط العلاقات، أو تتنافر السجايا، فيجد سليل الأغراب، بامتلاك المال، وطناً، فيتخذ من الأرض مستقرّاً، أو يفقد سليل الوطن، بفقدان المال، وطنه، فيرتحل ليصير في منافي البلدان غريباً.

في تلك الأعجوبة المسمّاة سوقاً بصُر به في زمن العشيّ. بَصُرَ به برغم الزحام والجلبة وهرج الباعة. بَصُرَ به، ولكن الدّاهية لم يخطئه أيضاً. بلى، بلى. سليل الأغراب أدركه بحاسّة الدّهاء قبل أن يبصره بحاسّة البصر. سليل الأغراب رماه بإيماء الاستنكار قبل أن ينتبه لهويّة المخلوق المتنكّر في تلك اللفافات الكئيبة. الإيماء الشرير في مقلة العين هو المهماز الذي نبّهه لوجوده، فتحرّر من الخمول، واستنجد بالاستنفار. التقى

بصرهما خطفاً، ولكنه خطف كان كافياً لكليهما. في اللّمح الخاطف التقيا، وتجادلا، واستعادا أزماناً خلت، وتعاندا، وتجالدا والتحما في عراكٍ مميت. كل ذلك حدث في تلك الومضة التي تباصرا فيها، فاستنفرا فيها القوى، وقرّرا أن يحاجج أحدهما الآخر، ويدفع أحدهما الآخر، ليدافع أحدهما عن النفس أمام الآخر.

ولكن الغريب حسم الأمر. الغريب وضع للخصام الحدّ، فانسحب. أشاح ببصره فلتةً، واستدار ليتوارى في الزحام. توارى الداهية، ولكنه لم يفته أن ينبئه بالإيماء قبل أن يتوارى. قرأ في رسالة الإيماء وعيداً لم يخفه اللئيم في ثنايا وعده باللقاء.

18 ـ الآلهة

بَرَزَ له من وراء الجدار فِلْتةً. برز من وراء الجدار بفلتة مَنْ تكمّن وترصّد وتريّث طويلاً. انتصب في وجهه، في ضياء قمر شاحب، بلجاجة ذباب القيلولة، واستفزاز سادة أجناب الصحراء الخافية الذين لا يبرزون إلى أجناب الصحراء البادية إلاّ بفجاءة تتناسب مع سليقتهم الخارقة، فيباغتوا سلالة الإنس إذا بيّتوا لها شرّاً، في حين يتنكّرون في أجرام أهل الخالية إذا أرادوا بأقرانهم من سلالة الإنس خيراً. الداهية أيضاً اعترضه باستفزاز أشرار الجنّ، وحشره في الركن لينفث في وجهه أنفاساً حامية كسموم القِبْلي عندما يتمادى في المواسم الصيفيّة ويتحوّل ناراً تقضي على العشب وتحرق المراعي برغم أن أهل الزروع في الواحات يجلّونها وينحرون لها القرابين لأنهم يرون فيها سرّ نضوج التمور، ومفتاح موسم الرطب.

فرّ إلى الوراء فرار الوحش الذي لا يفزّ إلى الوراء إلاّ

استنفاراً وتأهباً للوثوب إلى الأمام. لم ينتظر طويلاً كي يسمع ذلك الصوت المكتوم الذي عرفه يوماً:

- بلغني أنّك تسبّ الثعبان، وتدعو الخلق للكفّ عن عبادة الأركان السفليّة. ألم توافقني يوماً بأن كلّ نصب، في الصحراء، ربّ أرباب؟

هكذا قفز إلى علّة العلل رأساً دون أن تضطرّه المراسم للمرور بأحوال الصحراء للاستفسار عن نوايا الأقدار، أو مواقع الكلأ، أو أركان الخُطْأَة التي جافتها الأمطار، أو أهوال المجاعات، أو سوء المصير، أو غيرها من السِّير الخفيّة المسلّطة على رقبة الوطن والتي اعتاد أهل الوطن أن يتخذوها تميمة تتحصّن بها الألسن قبل الدخول في أي جنس من أجناس الجدل. ولكن هيهات أن تنطلي حيل الدهاة على الدهاة! هيهات أن تغيب عنه غاية الداهية في قفزه إلى علّة العلل رأساً؛ لأنه علم، منذ القدم، أن سليل الصحراء لا يلتجىء إلى عمل قبيح كالاستهانة بالناموس إلاّ إذا انتوى أن يأتي باحتيالٍ يمكّنه من الإطاحة بالخصم. أدرك السرّ فتبسّم لتساؤل صاحب السرّ. تمهّل قبل أن يجيب، فزفر الخصم في وجهه أنفاس الضيق مرّة أخرى. استبطأ الجابة فنفث سموم القِبْلي.

استفزّته بسمة الغموض، فأفلتت الكراهة القديمة من عقال الشرائع الصحراوية، فقرأ لها سيماءً في مقلة تلتمع تحت القمر الشاحب. ذلك أن القبائل أجمعت على يقين يقول بإمكانية إخفاء كلّ كراهة، بل بوجوب إخفاء كلّ كراهة، ولكنها أباحت التبيين في الكراهة التي لم تجد لها الأجيال سبباً، لأنها كراهة من طراز آخر، غامض، مجهول، دبّرته الأقدار خلسةً في خفائها الخالد، ودسّته في الجآجىء ليصير في قلوب أصحاب الكراهة سُمّاً خالداً، لأن هذا الطراز من الكراهة وُجد ليميت صاحب الكراهة قبل أن يعرف سبيلاً لإهلاك خصم صاحب الكراهة.

أخيراً أجاب:

ـ بلى. وافقتك يوماً أن كلّ نصب، بل كلّ ركن، كل أثر، في صحرائنا الخالدة، ربّ أرباب، ولكني لم أوافقك يوماً بأن من حقّ الأنصاب أن تكون للإنسان في الأرض وتداً.

ـ إذا لم نهب الآلهة الحقّ في أن تصير لنا في البريّة أوتاداً، فأيّ ركن يستحقّ أن يكون لنا في الصحراء وتداً؟

ـ هذا ركن من أركان الخصومة. أنسيت؟ لم أعترف لك يوماً بوجود أركان تمتلك الحقّ في أن تكون لنا أوتاداً حتى لو

كانت هذه الأركان مقدّسة، حتى لو كانت هذه الأركان آلهةً.

ـ ما الذي سنشدّ به أنفسنا إلى الأرض إن لم نعطِ الأرباب حقّ شدّنا إلى الأرض؟

ـ لا ينبغي أن نشدّ أنفسنا إلى أيّ أرض. لا ينبغي أن نركن إلى أيّ ركن. لا ينبغي أن نأمن أوطان الأسافل حتى لو استدرجتنا الأرباب نفسها بالأنصاب!

ـ ألم تكن الأرض قدرنا؟

ـ الأرض خدعة الأرباب لإهلاكنا، لا لإحيائنا.

ـ ألم نجد في معشوقتنا الصحراء وطناً حميماً؟

ـ وجدنا أنفسنا في الصحراء لنعبر الصحراء، لا لنسكن الصحراء!

ـ ألست صحراويّاً؟ ألم تعشق هذه الحسناء (التي نسميها صحراء) يوماً؟

ـ لم يعشق الصحراء مخلوق كما عشق الصحراء هذه المخلوق الذي يقف قدّامك.

ـ فلماذا تكابر؟

ـ لأن ما نعشقه هو ما يجب أن نتخلّى عنه.

ـ ما أقسى هذا!

ـ والصحراء وُلدت صحراءً لتطردنا. الصحراء خلقت صحراء لتستدرجنا إلى المتاهة، وتذهب بنا إلى سبيل اسمه العبور. الصحراء خُلقت صحراء لتعلّمنا التخلّي لأنها تعلم أننا عشاقها الذين لا يطيقون لها فراقاً أبداً.

ـ ولكن لا بد أن نركن. قدرنا أن نهجع في ركن مّا. وقد رأيت أن البرّ أنسب الأمكنة لسلالة المتعبين، لسلالة العابرين، لأنه هو المكان الذي يستطيع فيه العابر أن يتوسّد صنماً يبقيه في حمى الأرباب.

ـ عاهدت نفسي ألاّ أعبد أرباباً لا تدين بالولاء لربّ أعلى اسمه العبور!

ـ إمضِ واعبد أربابك في أيّ مكان، بل في المكان الذي لا وجود فيه للمكان، ولكن أوصيك أن تترك الأشقياء يعبدون أربابهم الذين ورثوهم عن أسلافهم.

ـ لا آلهة في الأرض!

ـ مَنْ لم يجد آلهته في الأرض، فإنه لن يجد لنفسه في السماء آلهة أيضاً.

ـ الآلهة في مكانٍ مّا بين الأرض والسماء.

ـ احترس!

ـ الآلهة في وطن اسمه العبور!

ـ مَنْ رجم أنصاب القوم بالحجارة، رجم القوم جِرمه بالحجارة، فاحترس!

ـ مَنْ لم يرق له بلاغي، فليرجع عن سعيه ورائي.

ـ أعبر! أعبر لأن أرضاً واحدة لن تستطيع أن تجمعنا مهما اتّسعت.

ـ هل أنا من وجب عليه أن يعبر؟

ـ ألم تعترف باعتناق العبور ديناً؟

ـ لن أعبر قبل أن استودع الحِمْل. لن أعبر قبل أن أبلّغ الوصيّة!

ـ عن أيّ وصيّة تتحدّث؟

ـ الريح لا تعبر إذا لم تزعزع، والزلزال لا يعبر إذا لم يدمّر، والسيل لا يعبر إذا لم يجرف، والوباء لا يعبر إذا لم يُمِتْ!

ـ أتراني أخطأت يوم قلت جهاراً إنّك لا تحمل في حوافر دابّتك إلاّ البلاء؟

ـ لم أخطىء أيضاً يوم قلت للملأ إن العرّاف الذي تعشّق

الحسناء، عرّاف قد خان الخفاء!

ـ لا أعرف لماذا تنكر على العرّاف أنبل ما عرفته الصحراء.

ـ عشق العرّاف علامة بطلان نبوءة العرّاف.

ـ لا أدري ما الذي يحمّلك على أن تسمّي العشق خيانة. حسبت دائماً أن عشق الحسناء مستعار من عشق الخفاء.

ـ العشق ينهل من نبع اللّهو، والنبوءة تنهل من نبع اليقين، فأنّى لهما أن يلتقيا؟

ـ بهتان!

ـ أبهتان استهانتك بالخفاء الذي تعلم أنه لا يطيق أن يشرك بنفسه أحداً؟

زمّ الخصم غضبته، فخرجت الغضبة فحيحاً مسموماً، في حين تألّق إيماء السخرية في مقلة الغريم القديم.

ولكنّهما لم ينطلقا.

ولكنهما وقفا طويلاً تحت ضياء القمر المستور بغلالات هزيلة، فعبرهما المارّة الذين يتسكعون هنا وهناك، فتطلعوا إلى الشبحين الصارمين بفضول مَنْ بَصُر بماردين متنافرين من أشرار الجنّ.

19 ـ العجوز

أقبل على ركن العجوز مرّة ليستوضح خفايا الصدور ويبدّد الشكوك. وجده ينهمك في تبديد الغبار عن تمائم الجدران، ويجلو صلد النصب بضريبة كتّان.

لم يُطف الأركان على عادة أهل الصحراء ليفصح عن المكنون، ولكنه وثب إلى الأمر رأساً بالسؤال:

ـ تستنكر بعض الأقوام مقام الضيف في الديار طويلاً.

توقّف الشيخ عن ملاحقة الرموز في الجدران، وتخلّى عن دبيبه الحميم في خاصرة الصنم الجليل. قال:

ـ الأقوام التي تستكثر على الأضياف المقام في ديارها طويلاً أضاعت اليقين القائل بأننا لا نحيا حقّاً إلاّ بالسرّ الذي يأتينا به الغرباء في أعطافهم. ألم نتحدّث عن السرّ يوماً؟

ـ أُكبر في مولاي حسن الظنّ بسلالات الأغراب، ولكن

الضيافة في ناموس الصحراء أيّام ثلاثة.

ـ كنّا سنعترف بناموس الضيافة أيّاماً ثلاثة ككل القبائل لولا يقيننا بأننا لسنا، في الصحراء، إلاّ ضيفين لا يأخذان من دنياهما إلاّ أيّاماً ثلاثة.

ـ صدقت، لأن ناموس أمم الصحراء في الضيافة مستعار من ناموس الأوّلين الذين أيقنوا أن الحياة لا تهبنا إلاّ الأيام الثلاثة: أمسنا الذي مضى، ويومنا الذي سيمضي، وغدنا الذي قد يأتي، وقد لا يأتي.

ترنّح العجوز بأنين الشجون الذي لا بدّ أن يزعزع صدور أولئك الذين أوتوا من علم الأزمان قليلاً، فلم يؤخذوا بحيل الدهر الذي يتدفق كثيراً، ويتكرّر مراراً، ليوهم البلهاء بالسخاء إذْ يهبهم اليوم الواحد مشطوراً إلى أجزاء جزيلة بعدد حبيبات الحصباء ليظنّوا أنهم نالوا نصيبهم من الزمان وعاشوا من العمر طويلاً.

ألقى بضريبة الكتان جانباً. ثم أخذ الضيف من منكبه وخرج به إلى الفِناء. تسكّعا ذهاباً وأياباً بمحاذاة بقايا السور القديم، ففاتحه العجوز منكّساً:

ـ ولم نكن لنعكّر على الضيفان الصفاء يوماً لولا ضيق الصدور

وخوفنا من نوايا السّوء.

ـ نوايا السّوء؟

ـ إذا كنّا لا نخاف استضافة الأضياف، فإننا أكثر الخلق خوفاً من بلبلة توسوس في صدور الأضياف.

ـ عن أي بلبلة يتحدّث مولاي؟

ـ أيجيز لي مولاي القول؟

ـ إفصح!

ـ يُقال في الواحة إن في قلب مولانا نيّة خبيثة!

ـ نيّة خبيثة؟

ـ يُقال إن في نيّة مولاي تبديل الأمر.

تبسّم الغريب. حدج العجوز بإيماء الاستخفاف خلسة، ولكنّه تلهّى بدحرجة حجارة الفناء بنعله مهلةً، قبل أن يهبّ للدفاع عن النفس:

ـ لن نعطي أنفسنا حقّ الفوز بلقب الأحياء، إن لم نَسْعَ لتبديل أمرنا.

ـ ها أنا أسمع ما لم أشأ أن أسمع.

ـ لا ننجو بسماع ما نشتهي، ولكننا ننجو بسماع ما لا نشتهي.

ـ تبديل الأمر، في عرفنا، خطر في كل الأحوال.

ـ من يخاف أن يبدّل الأمر، لا يخاف بلاءً ستجلبه الزلزلة، ولكنه يخاف أن يحيا.

ـ يخاف أن يحيا؟

ـ بلى، بلى. لا حياة في الركود، ولا موت في السبيل.

ـ جرّبنا أننا ما حاولنا تبديل أمرنا مرّة، إلاّ انقلب الأمر على رؤوسنا، كما ينقلب السّحر على السّاحر.

ـ بإبقاء الأمر لا نضع غُلاً في رقابنا فحسب، ولكننا، بالسكون، نموت. ولا نولد بتبديل الأمر فحسب، ولكننا، بالتحرّر من الأمر، نحيا.

ـ ألا يرى الضيف الجليل أن الشروع في تبديل الأمر عدوان؟

ـ عدوان؟

ـ أليس العمل على تبديل الأمر تدخّل قبيح في مشيئة الخفاء؟

ـ لن يكون تبديل الأمر تدخّلاً قبيحاً في مشيئة الخفاء إذا كانت الغاية إعلاء شأن الخفاء.

ـ أيّ غاية هذه التي تبدّل الأشياء ثم تدّعي أنها تفعل ذلك انتصاراً للخفاء؟

ـ ننتصر للخفاء بزعزعة الأوتاد التي تشدّنا إلى الأحاضيض.

ـ ليس كل وتد يشدّنا إلى الأرض هو وتد يشدّنا إلى الحضيض.

ـ كل الأراضي أسافل، كلّ أسافل أحاضيض.

ـ ولكننا، مهما فررنا، فلن نبلغ الجبال طولاً، ولن نستطيع أن نجد لنا وطناً في السماء.

ـ هناك وطن، دائماً، في مكانٍ مّا. هناك وطن، دائماً، بين الأرض والسماء.

ـ عن أيّ وطن يتحدّث الضيف الجليل؟

ـ عن الرحيل!

ـ الرحيل؟!

ـ بلى. الرحيل ليس وطناً ككل الأوطان، ولكنه الوطن الوحيد الذي نستطيع أن ننال فيه الأوطان. الرحيل لملل الصحراويين قدر، لأن أهل الصحراء قوم جرّبوا أنهم أحياء ما رحلوا، فإن كفّوا عن الرحيل هلكوا.

ـ أيرانا الضيف الغريب أحياءً أم أمواتاً؟

ـ لا حياة في السكون، ولا هلاك في العبور.

ـ ألهذه العلّة يهدهد الضيف الجليل النوايا للبطش بثعبان الأجيال؟

ـ بأيّ حقّ يتحدّث الأغيار عن نواياي، إذا كنت لم أحدّث بنواياي حتى نفسي؟

ـ النيّة، كالكنز، سرّ لا يُخفى.

ـ لا ينبغي على العقلاء أن يصدّقوا الخصم إذا اغتاب خصماً.

ـ حتى لو لم يغتب الغريب خصمه الغريب، فإن الكُلّ يعلم أن في قلب الغريب لا بدّ أن تنام نيّة، لأن الكلّ يعلم أيضاً أن الإنسان لا يغترب بلا سبب أبداً.

ـ بأيّ عرف ندين أصحاب النوايا؟ متى انقلبت النوايا آثاماً تستوجب القصاص؟

ـ لا أحد يمتلك الحقّ في التحدّث عن قصاص قبل وقوع الجرم، ولكني أردت أن أسرّ لك اليوم بأمرٍ آخر. أردت أن أتقرّب إلى الضيف بإسماعه أمري ليقيني بأن اقتسام أخبار النحوس أنبل من اقتسام شطائر الخبز.

ـ كلّي شوق لسماع أخبار النحوس!

ـ مولاي الضيف لا يدري أني كنت عابراً يوماً أيضاً.

ـ كلّنا عابرون. الكلّ عابر. حتى أهل السكون ملّة عابرة برغم جهلها بأمر العبور.

ـ أيأذن لي الضيف بالرفقة إلى الخلاء كي يسمع من فمي سيرة عشقي للخلاء؟

خرجا. هجرا الفناء المحشور بجدران السور القديم، وانطلقا إلى خلاء الجهة الغربية. هناك تسابقت أمامهما المسافة، وتعاقب المدى ليفرّ من المدى، استسلمت الأرض، وتوالدت في عراء صارم، لجوج، يلقي بنفسه في أحضان الفراغ الخالد بعناد بطوليّ، ولا يستسلم، ولا ينتكس إلاّ عندما يحتجب ليصير علامة مجهولة في الأفق المجهول. فوق الأعجوبة القاسية، فوق الجسد العاري دبّت ذيول السراب، لأن الصحراء التي اعتادت أن تستر عريها بالفرار إلى العراء، كثيراً ما راق لها أن تجود بسبائب السراب برهاناً على سلطانها، وعلامةً على دهائها، لا زهداً في التحرّر من العراء، ولا رغبة في التستّر عن الأنظار.

هناك، في رحاب البلقع البكر، راق لعاشق البلقع أن

يتكلّم. هناك، في أجناب أرض الاستواء التي ترفض الانحناء، وتستنكر الإنكسار، ولا تعترف بغير الاستقامة ديناً، تكلّم مريد الاستواء. هناك، في الترباء البتول التي لا تفقد البكارة إلاّ لتستعيدها (لأن الريح رسول يطهّرها كلّما أصابتها أقدام الخلق بالدنّس) تكلّم صاحب البكارة.

تطلّع الشيخ النحيل إلى الفراغ السفلي، وتابعه حتى احتجب في قوس الأفق المعلّق بين الصحراء والسماء بلا مبالاته الموجعة، فتلألأت مقلتاه بدموع الفتنة الصحراوية التي لا تكتفي بتحويل العراء قَدَراً أبديّاً يمتدّ ويتمدّد ويتوالد بلا حدّ، ولكن لأن الامتداد يأبى الاعتراف بالبرازخ، ولا يتوقّف بحدود الآفاق، بل يتغيّب، في الأبعاد، ليولد في الآفاق، يتحجّب عامداً ليبعث نفسه في الآفاق حيّاً، يتستّر، بحياء العذارى، ليلد فراغاً يجاهد لينصّب من نفسه في المدى مكاناً مستحيلاً، فتتواصل الصحراء في صحراء أخرى أسمتها الأمم سماءً. من صحراء الأعالي التي جبّت دائماً صحراء الأسافل قرّر المريد أن يسرّ بأمره، فتلكم بلسان مَنْ يحدّث نفسه:

ـ وُلدت مفتوناً بالهجرة ككلّ الصحراويين. هاجرت كثيراً، وعشقت ملاقاة الآفاق ككلّ العشّاق، وطاردت سرابيل

السراب طويلاً، وأصابني داء الظمأ إلى المجهول، ففتّشت عن الرّياق في أغاني الأشجان ككلّ الشعراء، ولكن الحنين هدّني فركنت إلى الأرض يوماً لأستريح قليلاً، فهل تعلم ماذا سمعت؟

لم ينتظر إجابة عن سؤاله، ولكنه أحكم رباط اللثام حول أنفه، ولألأت مقلتاه بألق أصحاب الأشواق إذا تأهبّوا لقهر المسافة، وإدراك آفاق البُعد:

ـ سمعت سرّ الأرض. سمعت وشوشة ظننت أنّي سمعتها يوماً برغم يقيني بأني لم أسمعها قط. أيقنت، بعد طول إصغاء، أني لم أسمعها في حياة الصحراء، ولكني سمعتها أزمنة النسيان، فعجبت، وتضعضعتُ وبكيت. بكيت لأوّل مرّة، ونزف قلبي دماً لأني أدركت أني أضعت تميمتي الحقيقية يوم نسيت لغة الأرض، لغة المجهول، لغة الماء الذي يرطن بعيداً في بطن الأرض. استسلمت للأرض، غِبْتُ في جوف الأرض، فحدّثني الماء بالسيرة كلّها. تلقفت النبوءة، وقمت من هجعتي كاهناً مطوّقاً بذلك القدر الذي يختارنا دائماً، ولا نملك الحقّ في امتلاكه، والمسمّى في لغة أهل الصحراء نبوءة، بلاغاً، رسالة، وصيّة، قدراً. هجعت إلى الأرض

عابراً، ونهضت من هجعتي رسولاً. نزلت المرتفع، وفتّشت عن الكنز في الأرض السفلية. فتّشت طويلاً، لأني ارتكبت خطيئة عندما طلبت الكنز في الصراط المستقيم، ونسيت أن الأرض التي تحاكي بدن الإنسان الملفوف بالمسارب والعروق، تحاكي أبدان الحيّات أيضاً، لأنها تتلوّى وتتعرّج وتحتال. تعرّجت أيضاً في حضيض الأرض، ودفنت أذني في تربان الأسافل مراراً، قبل أن أسمع البشارة، وأدرك موقع الكنز. سمعت المعشوق الذي وسوس يوماً في صدري، يهمس في أذني، ليحدّثني عن الآفاق، عن التّيه، عن الحنين، عن الظمأ، فعرفت أن العطش ليس ظمأً إلى الماء، ولكنه ظمأ إلى الوطن الذي أضعناه، ظمأ إلى «واو» التي فقدناها، ظمأ إلى التخلّي الذي نسيناه، ظمأ إلى الحكمة التي لم نسمعها، ظمأ إلى الناموس الذي دفنّاه، ظمأ إلى المعبود الذي لم يشرك بنا أحداً، فكافأناه بالسّوء، لأننا لم نترك شريكاً إلاّ أدخلناه إلى حرمه. فتَنَنِي الداهية بأغنيته، فتركت المتاع، تركت حطام الدنيا، وسرت في أثره، لأعلم، بعد زمان، أننا أخطأنا يوم ظننّا أن الحسناء هي الشَرَك، لأن لا شَرَك في الصحراء غير الماء. استدرجني المعشوق فاحترفت، منذ ذلك اليوم، الحفر. بلى، بلى. احترفت حفر الآبار

لاقتناص الماء، فذاع صيتي في أركان الصحراء الأربعة، فجاءني الرسل من أبعد القبائل طمعاً في أن أتنازل للذهاب إلى صحاريهم لأنقّب في جوف الأم الأولى عن أنفس ما يمكن أن تهبه الصحراء: الماء!

توقف لاحقاً. توقّف وأغمض عينيه، ولكنه لم يلبث أن أنطلق مرّة أخرى:

ـ استنطقت الصحراء، واستخرجت من جوفها، في تلك الأعوام، كنوزاً كثيرة، آباراً كثيرة، تناقلت الألسن سيرتها، وخلّدتها مغنيات القبائل في الأشعار إلى أن جاء اليوم الذي وجدت فيه الحسناء ترابط على فم أحد الآبار، لأن الحسناء، كما تعلم، جنيّة لا تولد إلاّ في جوار منابع المياه. قلت لنفسي يومها لماذا عليّ أن أكابر وأمضي في أسفاري إذا كنت أعلم أن السيل لا بدّ أن ينقطع في ركن مّا، يوماً مّا، وأجد نفسي مجبراً على حطّ الرحال في مكانٍ مّا، يوماً مّا؟ وإذا كان لزاماً على السلالة العابرة أن تحطّ الرحال يوماً أَفَلاَ نهوّن على أنفسنا الأمر عندما نضع الأمر بيد حسناء كانت لنا، دائماً، قدراً؟ استسلمت. استسلمت ولكن استسلامي لأحضان الحسناء لم يدم طويلاً؛ لأن مَنْ رام الأسفار، وذاق

طعم الترحال لن يستمرىء الاستقرار حتى لو كان مطوّقاً، في استقراره، بأحضانٍ كأحضان الحسناء. حاولت أن أتنصّل فاحتالت عليّ بالولد. حاولت أن أتحرّر فنالتني بدمية لئيمة أسمتها صبيّة. كان لا بد أن تفعل الحسناء ذلك لأنها تعلم أنها لا بدّ أن تخفق في نيل الرجل بالفتنة، إذا لم تنله بالذريّة، لأن هذا الأبله غايته منذ البدء اللّهو، في حين لم تعترف الحسناء يوماً بغاية غير السلالة. وصاحب اللّهو يستحقّ هذا القصاص، لأننا لا نذهب إلى هذا الحَرَم المخيف إلاّ طلباً للألعاب، فكيف نستنكر الأمر عندما نجد بين أيدينا ذلك المخلوق الذي ظنناه دمية ضرورية لاستكمال اللّهو؟ نكتشف، بعد فوات الأوان، أن الدمية التي نتلاعب بها ليست دمية، ولكنّها مارد من مردة الجان يتنكّر في جِرم الأقزام، لأن الانتظار لا يطول بنا عادة كي نكتشف الشَرَك يوم يبدأ اللئيم في اختلاسنا من أنفسنا، والاستيلاء على أرواحنا لأنّه ليس كياناً مختلفاً عنّا كما توهّمنا يوماً، ولكنه كياننا نفسه، روحنا نفسها، نفسنا نفسها انفصلت عنّا، وتنكّرت لنا في بدن آخر أضأل حجماً، وألطف صورة، وأبعد سرّاً. وبإمكان المحنة أن تهون لو كنّا نمتلك أعجوبة نستردّ بها أنفسنا الضائعة، ولكن فجيعتنا في أنفسنا تنقلب

قدَراً لا سبيل لردّه ما دمنا لا نستطيع أن نأتي بأعجوبة تعود بنا إلى الوراء، إلى النسيان، إلى أرحام الأمهات، كما لا نستطيع أن نولج جملاً في سَمّ الإبرة، فنصير إلى مصير اسمه في ناموس الأوّلين: الفقد! أجل، أيها الأنيس الجليل، أجل. الفقد سيف مسلّط على رقبة كل مَنْ ارتضى النيْل يوماً، لأن الحسناء (التي تستدرجنا بأفانين الفتنة كي تنالنا يوماً لم تنتحل هذه الحيلة إلاّ من حليف أدهى هو الخفاء الذي يتولّى الأمر عنها، ما إن تلقي في أيدينا بهبتها المشؤومة، ليستدرجنا بالدمية الملفوفة في أربطة القماط ليقودنا بها إلى الهلاك. أجل، أجل. نحن لا نهلك يوم نهجع في الحفر إلى جوار السلف، ولكننا، يا أنيسي، نهلك يوم نلتئم بالمرأة في المخدع لننال من جوفها بنيناً. هذا هو منفانا الأخير. هذا هو مثوانا الأخير. ولم أكن لأجسر على مخاطبة الضيف بهذا اللسان لو لم أجرّب مرارة الفقد. ذلك أن استسلامي أنساني الوصايا القديمة، وحط عصا الترحال قادني إلى الآبار، والآبار قادتني إلى الحسناء، والحسناء قادتني إلى الدمية، والدمية قادتني إلى الأسر. وكان متأخراً أن أتعلّم أن الإغواء سلسلة ماكرة، إذا تساهلنا في أمر حلقتها الأولى، فإنها لا بدّ أن تستدرجنا إلى النهاية، إلى الأبد، إلى الهاوية، فدفعت

الثمن بالفقد، لأني رضيت بطُعْم النَّيْل. أحببت دميتي كما لم أحبّ شيئاً فخالفت، بهذه المغالاة، تعاليم الناموس مرّة أخرى. أحببتها أكثر مما ينبغي، أحببتها أكثر مما أحببت نفسي، لأنها لم تكن نفسي فحسب ولكن ليقيني بأنها نفسي الأخرى، نفسي الأنفس، نفسي التي ستبقى بعدي، نفسي التي سأتركها أثراً بعدي، وصيتي التي سأخلفها للأجيال لتكون دليلاً على وجودي على قيد الحياة في هذه الصحراء القاسية التي لا تكتفي بأن تبيد أجرامنا فحسب، ولكنها لا بدّ أن تمحو من جرمها آثارنا أيضاً. بلى. يقيني بأن فتنتي الصغيرة لم تكن مجرّد صبيّة ككل الصبايا، ولكن رسالتي الأبدية هي علّة تعشقي لها الذي خالفت به الناموس فلم يتأخر بالقصاص: أقبل الغزاة يوماً فأغاروا على نجوعنا، وباغتوا فرساننا، وأهلكوا رجال قبيلتنا، واستولوا على قطعاننا، وأخذوا النساء والصغار والأقنان سبايا، فلم تكتب النجاة من النّحس إلاّ لأمثالي الذين تعزّبوا بإبلهم في المراعي البعيدة، أو لأنفار آخرين ابتعدوا في ركاب القوافل، أو هاجروا سعياً وراء الحظوظ. لا أخفي عليك أن ما رآه الأغيار حظّاً بالنجاة، رأيته علّة شقاء. لأن مَنْ لم يجرّب العشق المميت وحده يستطيع أن يرى في الهلاك بلاءً. أمّا أمثالي

فإنهم لن يروا في الموت إلاّ خلاصاً ما داموا لم يجدوا سبيلاً إلى حيلة يستعيدون بها الحبيب الفقيد. ولكن الأمل صار لي عزاءً أعواماً طويلة، فهاجرت في أثرها إلى الأوطان، وطلبتها في أرباع القبائل، وساءلت العابرين والرعيان وشذّاذ الآفاق، واكتريت العرافين، واستعنت بالسّحرة والدهاة وأهل الرؤى، ولكنّي لم أقف لها على أثر. وكان بالإمكان أن أيأس وأركن إلى التسليم لو لم تتضارب بشأنها الأنباء. أكّد الكثيرون أنهم رأوها بعيونهم ترعى الجداء في مراتع بعض الأقوام، وزعم آخرون أنها هلكت بأهوال الطريق قبل أن تدرك أراضي القبيلة الغازية، وقال فريق ثالث إنها ماتت بالوباء لا بأهوال السبيل. ولكن عرافاً خفيّاً أسرّ لي بعد سنوات كثيرة بنبوءة تقول إنها لا تزال على قيد الحياة. وعندما أمسكت بتلابيبه كي يفعل شيئاً يهديني إليها، أشاح بوجهه قائلاً إنه أُوتي من علم الرؤيا، ولكنه لم يؤت من علم السّحر، ولم يفته أن ينبئني قبل أن ينصرف بقول يؤكّد فيه أني سأجدها يوماً. أعترف بأن النبوءة أحيتني مرّة أخرى، بل لم أبق على قيد الحياة طوال هذا الزمان إلاّ بعون إلهامها برغم أن الشكوك تناهبتني مع الأيام وخالجني وسواس لجوج يقول إن العراف زودني بتميمة تعينني على الحياة يوم أبصر في عيني ذلك اليأس القبيح الذي

لا يُرى إلاّ في عيون أولئك الذين صارت الحياة على مناكبهم عبئاً لا يحتمل، فقرّروا أن يضعوا حدّاً للمهزلة ويتخلّصوا من العبء إلى الأبد. هذا اليأس هو الذي قادني يوماً إلى الواحة. قلت لنفسي ما دمت قد فقدت نفسي بفقدان معبودتي الصغيرة، فليس أمامي إلاّ أن أركن إلى الأرض كما فعلت يوماً، وأتوسّد الترباء لأسارر معشوقي الماء الذي أعلم أنه لن يستطيع أن يردّ لي المعبودة الضائعة، ولكنه أجدر من كل شيء بالجوار لأن يقيني بأن الماء الذي قادني يوماً إلى أحضان الحسناء (فكان لميلاد المبعودة أوّل علّة) هو السرّ الوحيد الذي يستطيع أن يصير لي، في منفاي الأبدي، عزاء.

20 ـ الرّهان

قبل أن يجعجع أصحاب الزروع في حقولهم، وقبل أن يجلجل أهل الفضول في أسواقهم، وقبل أن يبلبل الدهماء في مجالسهم، ليكشفوا عن زعمهم بشؤم البهيمة، أقبل عليه الغلام باكياً. قال له إن الخلق كشفوا عن النوايا وتحالفوا مع السفلة لإبعاد الدّابّة من الحقول. أخذ رأسه بين يديه مهوّناً، ولكنه اقتنص في عينيه إيماء الارتياب فحدّق في مقلتيه ليحثّه على الاعتراف. فرّ الغلام بلحظه إلى خلاء الجنوب، ثم إلى خلاء الشمال، ثم إلى السماء، ثم إلى الحضيض، ثم لم يجد بُدّاً من القول. تساءل عن سرّ البهيمة مطأطئاً. قال له إن الكُلّ يجزم بشؤم البهيمة، لأنّها لم تَدُس بحافرها تراباً إلاّ أبادته وأحالته إلى يباب، فتوجّع في الحال. توجّع بأنين مجهول كان جابةً للفتى عن السؤال. أقعى على ركبتيه قبالة الصبي. أمسك به من منكبيه قائلاً:

ـ لا يجب أن نستجيب لكلّ لغو، ولا ينبغي أن نكترث لما يقال.

ـ ولكنهم، يا مولاي، يتوعدون.

ـ لن يضيرنا أن يتوعّدوا، لأن للغوغاء الجعجعة، ولكن الأمر لصحبة البلاغ!

ـ يريدون أن يلقوا بالدّابة خارج حدود الحقول يا مولاي!

ـ عود المكيدة دائماً هشّ يا ولدي!

ـ قالوا إنها أحالت الحشيش الذي داسته يبيساً في أيام!

ـ آه، هذا لسان الخصوم. لا أراك الخفاء، يا صغيري، كيد الخصوم!

ـ كيد الخصوم؟

ـ في سبيل صاحب البلاغ لا بدّ أن يتنافس الخصوم لابتداع المكيدة.

ـ عن أيّ خصوم يتحدّث مولاي؟

ـ الخصوم قدر كل من احتمل على منكبيه عبء الرسالة. الخصوم لعنة كل رجل في الصحراء عرف ماذا يريد. الخصوم سيماء لا بدّ أن تعترض كلّ مَنْ اختار سبيله معلناً

للملأ حلول الرجولة. الخصوم، يا ولدي، أيضاً تميمة، لأنهم لا يصمدون في وجوهنا طويلاً، فيحمونا، بذلك، من العين الشريرة، ومن المصير الأسوأ!

دسّ في كفّ الوليد حفنة من حبّات التمر، ثم صرفه. صرف الغلام فأقبل عليه العجوز. قرأ في عينيه شكوكاً أيضاً فترافقا إلى الخلاء. احتكما إلى حَرَم أَلِفَا التحصّن به كلّما تكلّم فيهما المسّ، أو تبلبلا بوشوشة، أو أدركا في نفسيهما ظلالاً لوساوس.

تخضّبت الآفاق بسرابيل الغروب الدامية، وزحف على الصحراء سكون الأبديّة، كأن القارّة الغامضة تأبى إلاّ أن تأتي بعلامة النهاية بحلول كل مساء، كما تأتي بعلامة الميلاد بحلول كلّ فجر. في سكون النهاية الذي جادت به الصحراء في ذلك المساء، بُعَيد أن جعجع أصحاب الزروع في حقولهم، وبُعيد أن جلجل أهل الفضول في أسواقهم، وبُعيد أن تبلبل الدهماء في مجالسهم، ليكشفوا عن زعمهم بشؤم البهيمة، نفّس عجوز المعبد عن أمرٍ ضاق به صدره:

ـ لا ينبغي أن يستهان بالدهماء أبداً.

ـ ليس في الصحراء قوّة تستطيع أن تلجم اللسان!

ـ ولكننا نخطىء، في كلّ الأحوال، عندما نصمّ آذاننا عمّا يُقال.

ـ اللسان العضو الوحيد الذي لا يتعب من العمل.

ـ السمع أيضاً لا يتعب من الاستماع، والخطر في ما سُمِع دائماً أكبر.

ـ هل تصدّق أن في حافر الدّابّة يمكن أن يعلق وباء اليباب؟

ـ لأوبئة الصحراء خدع لئيمة حقّاً، ولكن الدّاء ليس في أن أصدّق أو أكذّب.

ـ اليقين تاج على رؤوس الحكماء وحدهم.

ـ الحكيم حقّاً من يهرع لقمع البلبلة، ويزمّ لغو الغوغاء قبل أن ينقلب غضبة.

ـ أحكمة أن نضع لحكم الدهماء حساباً، ونهمل شأناً جسيماً كتنكّر الحقيقة في أقنعة الأكذوبة، وتنكّر الأكذوبة في أقنعة الحقيقة؟

ـ يدهشني أن تحدّثني بعقل مَنْ لا يقرأ للدهماء الحساب. ألا تعلم أن حساب الدهماء أشدّ من حساب الحقيقة حتى لو لم تتخذ من الأكذوبة قناعاً؟ ألا تدري، أيها الدخيل الجليل، أن غضبة القوم أنكر، وحسابهم دائماً أعسر؟ ألا تدري أنهم

يقتاتون القيل والقال، ويقوون بالبلبلة، فينطلقون انطلاق السيول ليجرفوا في هجمتهم كل شيء، فلا يستطيع حتى جند الجنّ الوقوف في سبيلهم؟

ـ تقول الوصايا القديمة إنّهم في هشاشة قطرات الغيث في فرقتهم، ولكنّهم في قوّة السيل المجنون في التئامهم، فهل هذا ما أراد مولانا أن يقول؟

ـ هناك ما هو أسوأ من التئامهم. سرّ قوّة الدهماء في أعوان يهبّون دائماً لنصرتهم.

ـ عن أيّ أعوان يتحدّث مولاي؟

ـ أهل السلطان!

ـ أهل السلطان؟

ـ أهل السلطان لا يطيقون أيّ أمر من شأنه أن يستشير القوم في هجعتهم.

ـ أيتحدّث مولانا عن الزعيم؟

ـ الزعيم سلطان ككل السلاطين، ولن يطيق استفزاز طفله المدلّل المسمّى في رطانات الأمم دهماءً. أنت تعلم أن الدهماء نقطة ضعف الزعماء.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول إن مقامك بيننا لن يطول كثيراً إذا لم تتدبّر حيلة تسكت الألسن.

ـ أيّ أعجوبة تستطيع أن تزمّ لساناً عن قول؟

ـ توقّع استدعاء المكاشفة!

ـ ماذا؟

ـ يجب أن تعدّ العدّة للدخول على الزعيم.

أعاد العجوز القول مرّتين فسُمع الصوت، في سكون النهاية، نداء، إلهاماً، نبوءة.

لم يطل بالمهاجر الانتظار. فبُعَيْد أن جعجع أصحاب الحقول في زروعهم، وبُعَيْد أن جلجل أهل الفضول في أسواقهم، وبُعَيْد أن تبلبل الدهماء في مجالسهم، ليكشفوا عن زعمهم بشؤم البهيمة، أقبل عليه رسول الزعيم حقّاً.

على لسان المخلوق الخالد سمع وعيداً مخفيّاً في القول:

ـ كل أمرٍ هيّن، إلاّ البلبلة!

هشّ بالمنسأة ذبّاناً لم يرَ له في المجلس وجوداً، وحدجه بنظرة خبيثة من عينين علّمهما تعاقب الفصول استقراء

الوساوس التي توشوش في الصدور، ثم أضاف بلسان تعمّد الاستهانة بناموس التورية:

ـ لا نتفاءل في أرباعنا بدخلاء يجيئوننا في أعطافهم بالبلبلة.

في عيون القوم أبصر عداءً لا يحتمل التأويل، لأن من جبلّة الحاشية المغالاة في محاكاة ربّ نعمة الحاشية، فإن أبدى ربّ نعمة الحاشية تبرّماً بإمرىء مرّة، أبدت الحاشية التبرّم بالمرء مرّتين، وإن تبرّم ربّ نعمة الحاشية بإمرىء مرّتين، أنزلت الحاشية على رأس الشقيّ غضبة تفوق غضبة الربّ ألف مرّة. وإدراكاً لهذا التذبذب الكريه في جبلّة كلّ حاشية (وهو مزاج لا يختلف عن مزاج الخدم في شيء) انتحل للقوم الأعذار ولكنه، في الوقت نفسه، ضاعف إحساسه بالخطر، فقرّر أن يسرع بالحُجّة، ويضع حجر الأساس في بنيان الدفاع عن النفس:

ـ أحكمة، في رأي مولانا، أن يجد صوت العوام آذاناً صاغية، ومولانا أعلم الناس بتقلّب أمزجة العوام؟

ـ ألا يعلم العابر الغريب أن هرج العوام في آذان صاحب العوام موّال غناء؟

ـ ولكنهم، يا مولاي، يقولون ما لا يعلمون، ولا يعلمون ماذا يريدون.

ـ لو قالوا ما يعلمون، وعلموا ماذا يريدون، لما سُمّوا خلقاً، لما سُمّوا أُناساً، لما سُمّوا عواماً أو دهماءً.

ـ كيف يجد لغوهم من مولانا آذاناً صاغية، إذا كان مولانا يعلم بأنّهم لا يعلمون ما يقولون، ولا يدرون ما يريدون، ولا يعرفون ما يفعلون؟

ـ هل تدري لماذا؟ لأني أعلم أنهم ليسوا آلهة.

ـ ماذا؟

ـ لا يعلم ما يفعل إلاّ ربّ، ولا يعرف ما يريد إلاّ ربّ!

ـ عجباً!

ـ اليقين سيماء الأرباب وحدهم.

ـ ولكني، يا مولاي، أتحدّث عن يقين الخافية أيضاً. أردت أن أتساءل عن مصير اليقين إذا تساهلنا مع تجديف الدهماء. ألن يكون اليقين، في هذه الحال، مهدّداً بسيف ظالم اسمه الزور؟

عمّ سكون الفلتة. عمّ سكون يذكّر بسكون الأبديّة الذي تجود به الفلاة عندما تنفض عن جلدتها الكائنات مع حلول الأمسيات، وتستعيد بكارتها التي أضاعتها منذ وجدت الكائنات

تتراكض فوق ظهرها، وتستميت للبقاء على جلدتها. ولكن.. ولكن السكون لم يدم طويلاً، لأن الجلجلة التي انطلقت من صدر الكائن الخالد لم تفجع أهل المجلس في المصير الذي آلى إليه السكون القديم، السكون الحميم، السكون الذي يجلّونه جميعاً لأنه ينتحل خصال مردة الجنّ، فيرمي بهم، في غمضة، إلى مجاهل النسيان، ليعلموا أن الإنسان لم يولد في الصحراء ليحيا، ولكنه وُلِد لينسى. زعزع الزعيم المجلس بضحكة لا تتناسب أبداً مع رَبَل جرمه، وانهزام أيّامه، ودوام بقائه برغم انهزام أيامه. قهقه حتى استلقى ببدنه الهزيل إلى الوراء، فأسنده أحد العبيد بكلتا يديه قبل أن تسنده الوسائد الجلدية التي تنتصب وراء ظهره في سدّ منيع كسدود الجدران. كانت ضحكة قبيحة لا لأن أعراف القبائل أنكرتها أشدّ إنكار بسبب إساءتها لنواميس البهاء، ولكن لأن كلّ الكهنة حذّروا منها، وعدّوها نذيراً بالشؤم. الفزع من هذا الغول، الخوف المجهول من فأل السوء، هو ما دفع برجال المجلس إلى التسابق لهدهدة الترباء لإبعاد الشرور. ولكن المفارش السخيّة حالت بينهم وبين التربان، فازداد إحساسهم بالخطر، واستولى عليهم الضيق، فاحتمى بعضهم إلى التمتمة سرّاً بتمائم الأولين، واحتكم آخرون إلى أطراف أقنعتهم ليداروا بها ربكتهم، ويخفوا عن

الأعين حرجهم. ولولا إنقاذ الزعيم للأمر بعضلة اللسان، لغلب الحرج الطاعة ولتمكنت البلبلة المكتومة من ضرب المجلس بفرار أهل المجلس من المجلس:

ـ أضحكتني! أضحكتني يا سليل الأغراب! ما كان يجب أن تضحكني قط، لا لأني أرى في الضحك لعنة تستوجب القصاص كما يوصينا الناموس المفقود، ولكن لأن الضحك وباء يهدّد العافية قبل أن يكون رسول خفاء، فبأيّ حقّ تتحدّث عن الحقّ؟ بأيّ حقّ تعطي لنفسك الحقّ في التمييز بين ما هو حقّ وما هو كذب؟ بأيّ حقّ تدّعي علم الحدّ بين اليقين ونقيضه الزور؟ بأيّ حقّ تجيز لنفسك تبيين ما عجزت عن تبيينه حتى الآلهة؟

ـ مولاي..

ـ ألا تعلم أن اليقين كالقدر، والزّور أيضاً كالقدر؟

ـ القَدَر؟

ـ ألا تعلم أن القدر هو السرّ الوحيد الذي أعجز حتى الآلهة، فلم يمتلكوا له حيلة، فصار لهم إلاهاً لا يملكون لسلطانه رفعاً؟

ـ أحسب أنّي سمعت أمراً كهذا الأمر، ولكن. .

ـ أعلم أن سرّ الزور واليقين من سرّ القدر.

ـ حسبت القدر، يا مولاي، ناموساً من نواميس الأرباب، فإذا هو، بحسب وصيّة مولاي، ناموس فوق نواميس الأرباب.

ـ حلول الزّور في اليقين، وحلول اليقين في الزور، على العقل أمنع مسألة.

ـ فليغفر لي مولاي، ولكني في إشارتي إلى الزور واليقين لم يكن في نيّتي أن أذهب بعيداً.

ـ أوصيك بالاحتراس من الزّلل دائماً، لأن استهتار جليسي هو الذي جرّ على رأسي ضحكة شؤم لا أدري كيف أغسلها.

ـ أطلب الغفران، ولكن للدفاع عن النفس أحكام يا مولاي!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ إذا كان لمولانا الحقّ في الدفاع عن مُلكه، فإن للدخيل الحقّ في الدفاع عن نفسه.

ـ اقطع دابر البلبلة إذا شئت ألاّ نفترق.

ـ لن أتأخّر في قطع دابر البلبلة لو أخبرني مولاي عن السبيل الذي يعينني على قطع دابر البلبلة.

ـ قطع دابر البلبلة في قطع دابر علّة البلبلة.

ـ ماذا يقول مولاي؟

ـ البهيمة!

ـ البهيمة؟

ـ أخرج دابتك من الحقول.

ـ أيصدّق مولانا أن دابة بلهاء يمكن أن تحمل في حافرها جدباً أو خراباً كما يدّعي زحام الدهماء؟

ـ جاءتنا الدواب بما هو أسوأ من الجدب. جاءتنا الدواب بالأوبئة!

ـ أيرضي مولانا أن يصرّ على النطق بالقصاص حتى لو علم أن الأمر كلّه مكيدة في مكيدة!

ـ هل قلت مكيدة؟

ـ مولاي أول من يعلم أن الرجل الذي لم يخلق لنفسه خصوماً لا تعترف به الصحراء رجلاً.

ـ أحسب أني سمعت هذا يوماً.

ـ لا تقاس عظمة الرجال إلاّ بعدد خصومهم، ولا أحسب أن

مولاي سيبخل على المملوك الشقي الذي يجلس بين يديه بخصم أثبت به رجولتي!

ـ إفصح!

ـ خرافة اليباب دسيسة خسيسة من خصم لئيم يقفو أثري من قديم.

ـ شأني شأن وليّ أمر يريد أن يضع حدّاً للبلبلة، لا شأن سلطان يريد أن يميط اللثام عن الحقيقة.

ـ لا أصدّق ما أسمع!

ـ صدّق أو لا تصدّق، ولكن رسالتي تثبيت أساطين المُلك، ودعم الاستقرار، وقطع دابر كل بلبلة في قماط المهد، أمّا اليقين فأمرٌ من شأنه أن يقلب البلبلة إلى بلبال، لأن طلب ما كان بعيداً سيشعل بيننا وبين الخفاء نيران فتنة نحن في غنى عنها.

ـ عجباً ما أسمع!

ـ لا سبيل لبقاء صاحب الدّابة بيننا إلاّ بقبوله الخروج بالدّابة إلى رحاب المنفى.

ـ أيرضي مولاي أن تتناقل القبائل نبأً يقول إن صدر جلالة

الزعيم ضاق بغريب احتمى به يوماً؟

- لم يضق صدر الزعيم بسلالات الغرباء يوماً، ولكن ليس من حقّ القبائل أن تخلط بين الأغراب ودواب أغراب تحمل أوبئة في أبدانها البشعة.

- يحزنني أن أسمع هذا.

- ولكن ما سرّ تعلّق الغريب بدابّة يستطيع أن يستبدلها بدابّة؟

- السرّ، يا مولاي، في أمرٍ أكبر من الأُلفة، وأعظم شأناً من الوفاء، لأن الدّابة التي حملتنا على عاتقها أعواماً، واستعنّا بها على إبادة البيداء (التي لم تُسَمَّ بيداء إلاّ لقدرتها المميتة على الإبادة)، وهَدَتْنَا إلى الآبار ومنابع المياه بحاسّتها الخفيّة لتنقذنا من أقدار الظمأ، لهي، يا مولاي، إلى العابرين أقرب صلة من أمّ هجرتنا أو هجرناها، وأرحم وصلاً من امرأة أخذتنا في أحضان المخدع يوماً، وأصدق من صديق ظنناه قريناً، فخذلنا يوم المحنة. فكيف لا تغدو الدّابة للعابر سرّاً إذا كانت أقرب صلة من أمّ، وأحبّ من معشوقة المخدع، وأصدق من كلّ قرناء الزور؟ ألا تستعير الدابة خصال هؤلاء لتعير، في نهاية المطاف، لصاحب الطريق امتداداً لجرم صاحب الطريق؟ كيف يريدني مولاي أن أتنكّر اليوم لجرمي

الذي حملني بالأمس، وأتنصّل مِنْ عضو من أرحم أعضائي؟

ـ لا أملك إلاّ أن أُكبر فيك الوفاء.

ـ حرص الإنسان على أعضائه مِنْ حرص الإنسان على عافيته، ولا أحسب الإنسان يستحق الإكبار جزاء اعتنائه بعافيته، لأن الإنسان ليس شيئاً غير العافية.

أجال الداهية في المجلس عينين صغيرتين خبيثتين، فرأى القوم في المقلتين القديمتين ذلك السحر المميت الذي ينبثق من مقلتي الحيّة عندما تريد أن تفتك بعدوّها أو عندما تقرّر أن توقع بفريستها. تمادى الإيماء المميت وازداد ألقاً عندما أبصر القوم في عين الداهية ظلّ ابتسامة لئيمة حذّرت من هولها الأجيال، وقرأت فيها القبائل شركاً أوقع باللئام، وأهلك أكثر الدهاة دهاءً. تململ القوم برغم طغيان مراسم الوقار، فأغمض الداهية عينيه ليخفي عن الأنظار شارة الخطر. ولكن إغماضة العينين لم تستغرق زمناً طويلاً، لأن اللئيم لوّح بإيماء آخر عندما فتح عينيه ليتكلّم:

ـ تحضرني حيلة كثيراً ما استعان بها أسلافنا الأوائل علّ الغريب يجد بها من مأزقه مخرجاً.

ـ مملوك مولاي آذان صاغية.

ـ الطلسم والمنفى، وللغريب الخيار!

ـ اعترف أن عبارة مولاي هي الطلسم.

ـ سألقي في أذن الغريب بالأحجية، فإن فكّ طلسم اللغز، كسب الرهان، وأقام بيننا بكامل جرمه، وإن خسر الرهان، احتمل شطر جرمه على شطر جِرمه الآخر، وانطلق إلى المنفى.

انطلقت من صدور الرجال دمدمة مكتومة، وهلّل بعضهم بأصوات مسموعة، واستحسن بعضهم الآخر حيلة الاحتكام إلى الحظوظ بعبارات اليقين والثناء على ميراث الأوّلين، فأوضح اللئيم:

ـ القدماء كما ترى أوصونا بالاحتكام إلى الخفاء لحسم أمر كل خصومة، فما رأي الغريب؟

ابتسم الغريب ابتسامة خبيثة أيضاً. ابتسم ابتسامة أشدّ خبثاً. بل أجمع الرواة أن أهل المجلس أبصروا في عين ذلك المخلوق الرهيب، في ذلك اليوم الرهيب، ألقاً قرأوا فيه سيماء الثقة بالنفس، سيماء اليقين، سيماء الفوز الأكيد، حتى إنّهم كذّبوا

أنفسهم، لأن الإنسان لا بدّ أن يكذّب نفسه عندما يرفض الاعتراف بيقين لا يملك لدفعه احتيالاً.

في ذلك اليوم تكلّم سليل الأغراب، فسمع القوم في اللسان نغمة الشجعان عندما يفتح لهم القدر على دهليز الموت باباً، فيبتهجون، ويندفعون، ويجدبون جذب الممسوسين:

- مرحى، يا مولاي، مرحى!

كرّر سليل الغرباء النداء مرّتين، ثم ترنّح على طريقة أهل الوجد ليغالب المسّ، ولم يقترح إلاّ بعد عراك طويل مع الحنين:

- لم نُخلق في الصحراء، يا مولاي، إلاّ لنتعارك بالأحاجي، ونتحدّث بالألغاز، ونحتكم عند الضرورة إلى الخفاء. والعار ليس أن نخسر الرهان، ولكن العار أن نشكّك في اليقين الذي تطوّق به الأقدار أعناقنا عندما نخسر الرهان. بلى يا مولاي. أن نخسر الرهان على يد الأقدار أهون من أن نخسر الرهان الذي ارتأيناه لأنفسنا، لأن الرهان الذي خسرناه بمشيئة الأقدار بطولة حتى لو كان خسارة، والرهان الذي خسرناه بمشيئة أنفسنا جبن حتى لو كان فوزاً.

- يروق لي أن أسمع هذا.

ـ ولكن فليأذن لي مولاي بالإفصاح عن حاجة هي للرهان دائماً شرط.

ـ وضع شروط الرهان حقّ من حقوق الطرف الذي رحّب بالرهان.

ـ لا شرط لمملوك مولاي إلاّ أجل يمهلني به لتدبير بعض أمري.

ـ من حقّ الضيف على المضيف أن يستمهله في كلّ أمر.

ـ بالمهلة الموعودة أحسن المضيف على الضيف أضعافاً.

عمّ سكون مستعار من سكون الصحراء في هجعتها الأبديّة، فرأى أهل المجلس في مقلة ربّ نعمتهم شارة يقين جسور.

ثالث الأيّام - الوصيّة

21 ـ الخَصْم

في الواحة ذاع صيت المباراة، وثرثرت الألسن بسيرة النزاع، فاقتنص في عيون الأخيار الرثاء وسيماء الإشفاق، وقرأ في أعين الأغيار وعيداً ببئس المصير. تسكّع في الأزقّة ليلة انتشار النبأ، فتبيّن شبح الخصم تحت ضوء القمر، يتمسّح بحيطان جانب الضريح الغربي، يطرح في المدخل نذوراً للأفعوان، ويهتمل بتمائم مجهولة انقلبت طلاسم عسيرة مع تدفّق الأزمان، فعجز حتّى دهاة السحرة وأهل العلم بالغيوب عن فكّ رموز لغتها المنسيّة. تجاهله وهمّ بالانحراف شرقاً، ولكنّ العرّاف ازدرد هتملته المجهولة، وهبّ ليعترض سبيله. تحت ضياء سلطان الليالي التمعت في مقلة الكاهن بسمة ماكرة. طوّق أنفه بطرف لثامه الكئيب، ودمدم صدره بصوت غامض قبل أن يعتصم بلغة الدهاة التي تخفي إذا شاءت أن تفصح، وتفصح إذا شاءت أن تخفي:

ـ أسرّ لي طير النحوس في الليلة الظلماء، وسمعت المنادي يطوف بالنبأ في السوق، فأدركت أن الكلّ باطل، لأن التربان لا بدّ أن يعود ترباناً، والهباء مصيرنا الأخير، فلماذا لا أسمع المناحة، ولا أرى في يمين قرين الهلاك الوصيّة؟

ـ بعيدٌ ما كان بعيداً، والعميقُ العميقُ مَنْ يجده(*).

ـ هل أصدّق النبأ؟

ـ صدّق أو لا تصدّق!

ـ الحقّ أقول لك: عندما ألقى الطير بالنبأ في أذني قلت لنفسي إن وراء الأكَمَة ما وراءها، لأن الإنسان لا يرمي بنفسه إلى التهلكة بلا سبب.

ـ بعيدٌ ما كان بعيداً..

ـ دعنا من الأحاجي، وحدّث خصمك القديم بالسرّ قليلاً لأن خصوم اليوم هم قرناء الغدّ إذا كانوا خصوماً باليقين.

ـ لم أخترك خصماً قطّ، لأني أعلم أننا نختار أقراننا فنفجع في الأقران، ويختارنا خصومنا فنربحهم خلاّن وفاء يوم تزول علّة الخصومة.

(*) سِفر الجامعة (4:24).

ـ يروق لي هذا. الخصومة فانية، والخلّ فانٍ، وليس أوفى لنا من أخلاّء جربونا وجربناهم يوماً في الخصومة، فاصدقني القول: أَتُقْدِمُ على المنافرة لثقةٍ في النفس، أم لجهلٍ بالسيرة القديمة، أم لسرٍّ أعظم شأناً من الثقة ومن السيرة؟

ـ نحن قوم نستنكر الكشف عن النوايا.

ـ لم يفلح مخلوق، في كلّ أزمنة الصحراء، في فكّ الطلسم الذي ينتظرك، فاحترس!

ـ أُكبر فيك حسن النوايا.

ـ لقّنتني النبوءة عِلْماً يقول إن الذهاب إلى بيت الهلاك دائماً بطولة.

ـ المجد للنبوءة!

ـ سأنحني لك إكباراً برغم الخصومة. سأنحني لك إكباراً بالفوز أو بالخسارة، وسأتباهى دائماً بخصومتي مع إنسان استهان بالتهلكة؛ واختار البطولة.

ـ لو لم تَخُن النبوءة لما خَسَرْتُك قطّ.

ـ جلال النبوءة في عدم حاجتها لأغيار يدافعون عنها. سرّ النبوءة في قدرتها على مكافاة المريدين، والاقتصاص من المرتدّين.

ـ ها أنت تعترف بالانتماء إلى أهل الردّة.

ـ في النبوءة سرّ آخر لا يعلمه إلاّ أهل النبوءة. في النبوءة حِلْم يكفي لإغراق الخطاة بسيول الغفران. الشأن مع النبوءة أيسر، ولكن الشأن مع الإنسان دائماً هو الأعسر: أنسيت أن من أشعل نيران الفتنة بيننا هو الإنسان؟

ـ أتسمّي الحسناء إنساناً؟

أطلق العراف ضحكة. حاول أن يكتم الضحك، ولكن القهقهة أفلتت غصباً. مسح بطرف لثامه دمعاً، ولجلج بتميمة قصيرة لدفن الشرّ المخبوء في الضحك، ثم عاد ليغدق الثناء على العبارة:

ـ مرحى! مرحى! اعترف لك أنّي حُمْتُ طوال أعوام لأقول قولاً كهذا، ولكن النبوءة لم تسعفني. القول الحكيم أقرب للساننا من حبل الوريد، ولكنه لا يهبنا نفسه أبداً إذا لم تسعفنا النبوءة بالإلهام.

ـ هذا سرّ الحكمة.

ـ ما زلت أتساءل أي مخلوق هي الحسناء إذا كانت أمّنا الصحراء قد رفضت أن تصنع منها رجلاً، فرفضت أن تعترف بنفسها امرأة أيضاً.

ـ الحسناء ليست إنساناً، وليست حيواناً، الحسناء ليست خُستاً، وليست مِسْخاً. الحسناء ليست جِنّاً، وليست ربّاً.

ـ إذا أبت الحسناء أن تعترف بانتمائها إلى هذه الأضداد، فلا شكّ أنها سلطان يستطيع أن يَجُبّ كلّ هذه النّحل.

ـ بلى. للحسناء خصال كلّ هذه السلالات، وليس لها أيّ شيء من خصال هذه السلالات أيضاً، لأن كبرياءها المميت يلزمها بعدم الاعتراف بأيّ شيء.

ـ فلنقل إن الحسناء، كالخفاء، ليست في الصحراء أيّ شيء، وبرغم ذلك فإنّها، في هذه الصحراء، هي كلّ شيء.

ـ أحسنت. لأنها لو لم تكن في الصحراء كلّ شيء لما أفلحت في إشعال أشرس أجناس الفتنة بين الرجال، ولو لم تكن في الصحراء خيتعوراً، وبهتاناً فظيعاً، لاستطعنا أن نجد في أحضانها كنز السعادة الذي وعدتنا به دائماً.

ـ أعترف لك أني لم أجد في أحضانها السعادة أيضاً برغم أنها فتنت بيني وبين النبوءة قبل أن تفتن بيني وبين الرجال.

ـ نحسب أننا سننال منها السعادة مقابل أفدح القرابين، فننال منها البلبال، بل قد نخسر في الصفقة أنفسنا أيضاً.

ـ أعترف لك أن خسارتي ستكون أعظم لولا يقيني بِحلْم النبوءة. ولكن يجب أن أعترف لك أيضاً بأني لا أعلم ما الذي سأفعله في هذه الصحراء لو لم أجد الحسناء إلى جواري.

ـ هذا سرّ تفوّق الحسناء.

ـ البطولة ليست أن نذهب إلى بيت الهلاك، البطولة هي أن نتخلّى عن الحسناء.

ـ هيهات أن ندّعي القدرة على الذهاب إلى بيوت التهلكة، قبل أن نتعلّم حيلة التخلّي عن الحسناء. التنصّل من أحضان الحسناء كلمة سرّ في فم كلّ بطولة.

ـ هذا ما يدفعني لإكبارك مرّتين: بالأمس عندما غسلت يديك من سلالة الحسناء، واليوم عندما بلغني نبأ قبولك النزول إلى ساحة نزاع مميت.

ـ لا ينبغي أن نُكبر إلاّ الخفاء.

ـ أوصني!

ـ أيليق أن نوصي الحكماء؟

ـ ألا يُوصَى الحكماء إذا ضلّوا؟

ـ لا يُوصَى الحكماء حتى لو ضلّوا.

ـ أَو تغفر لي سوء الظنّ؟ أَوَ تَغفر لي حملة كانت للبلبلة سبباً؟

ـ متى يحقّ لنا أن نغفر، إن لم نغفر ساعة الفراق؟

سكت العراف. أنزل على عينيه طرف اللثام العلوي ليخفي الإيماء في مقلتيه. تراجع إلى الوراء خطوات. تمتم قبل أن يستدير:

ـ وداعاً!

22 ـ الشَرَك

في عيني العجوز قرأ مرثية أخرى.

تطلّع إليه طويلاً، طويلاً، ثم نكس أرضاً ليقول كأنه يقرأ نبوءة مشؤومة في لوحٍ مجهول:

ـ يدهشني أن ترتضي الدخول في الرهان وأنت أعلم الناس بأن الأحجية شَرَك.

ـ أيضيرنا أن نهلك بشَرَك الأحجية إذا كنّا سنهلك يوماً بشَرَك أرذل من الأحجية؟

شيّع إليه نظرة يأس. تلفّت يمنة ثم يسرةً. شبك يديه وراء ظهره لدفع الحرج. احتجّ:

ـ أتكابر أنت، أم أنّك تتغافل؟

تبسّم بغموض، ولكن العجوز عاجله بسؤال آخر قبل أن يتمكّن من الإجابة عن السؤال:

ـ ألا تعلم أن لغز الداهية ليس ككل الألغاز؟ ألا تعلم أن لغز الداهية ليس لغزاً؟ ألا تعلم أن سؤال الداهية قد خذل قبل اليوم كلّ مكابر؟

ـ أليس من حقنا أن نختار أشراكنا إذا كنّا نعلم أن الأشراك ستختارنا إن لم نخترها؟

ـ أن تختارنا أشراكنا يوماً، أنبل من أن نرمي بأنفسنا إلى الهلاك اليوم، خوفاً من أن تختارنا أشراكنا غداً.

ـ أليس الهلاك بشَرَك المباراة، أنبل من الهلاك بشَرَك الظمأ؟

ـ الهلاك بالظمأ قَدَر العابر.

ـ اختارت لي الصحراء الظمأ قدراً، واخترت لنفسي المباراة قدراً.

ـ عجباً!

ـ السر، يا مولاي، في الاختيار. نذهب إلى كل مكان بنفوس راضية، نذهب إلى الهلاك أيضاً بنفوس راضية عندما نفلح في اختيار أقدارنا، لأننا لن نفلح أبداً في صنع حياتنا إن لم نفلح في صنع أقدارنا، ولن نفلح في صنع أقدارنا إن لم نختر أقدارنا.

ـ حسناً، ولكني لم أجد للمجازفة علّة. أيعقل أن تكون الدّابة سبباً؟

ـ الدّابة حُجّة.

ـ حُجّة؟

ـ الدّابة حجّة لكلينا.

ـ يقصر عقلي عن فهم هذا.

ـ الدابّة حجّة الزعيم في التخلّص من الرسول، والدّابّة حجّة الرسول في إرساء أساطين الرسالة.

ـ إفصح!

ـ يؤسفني ألاّ أُفصح، لأن ما يُعلم لا يفلح.

ـ ما أكبر توق الصحراويين إلى الأحاجي، ما أكبر عشق الصحراويين للألغاز.

ـ بعيدٌ يا مولاي، ما كان بعيداً، والعميق العميق، يا مولاي، من يجده!

ـ أتتمادى في التغنّي بألغازك استخفافاً بي، أم تحتال على نفسك باللسان إمعاناً في دفن السرّ؟

ـ الاحتيال لإخفاء الكنز حقّ من حقوق صاحب الكنز.

نكس العجوز إشارة التسليم. سكت أيضاً إشارة زهده في المجادلة. ولكنه لم يفته أن يستجدي الوصايا. لم يفته أن يتسقّط تلك الكنوز التي يعتقد الصحراويون أنها لا تزدهر إلاّ في قلوب الهالكين ليقينهم بأن اليقين لا يستدرج إلاّ بلسان أولئك الذين حدّقوا في مجاهل الخفاء بعين الموت. لهذا السبب لم يستغرب صاحب الوصيّة لهجة الاستعطاف التي سمعها من فم العجوز عندما تكلّم همساً:

ـ هل أهب لنفسي الحقّ في طلب الوصيّة؟

ـ الوصيّة التي ننالها على سبيل الهبة، ليست وصيّة!

ـ يُقال إن الحكمة لا تجري على لسان لم يختر الموت مصيراً.

ـ حكمة من اختار الموت مصيراً لم تُخلق للأحياء، لأن صاحب الحكمة يخاطب الأموات.

استسلم العجوز مرة أخرى. فرّ ببصره بعيداً، قبل أن يعلن:

ـ سأختنق بغصّة مريرة قبل أن أستطيع أن أقول: وداعاً!

ـ أظنني سمعت قولاً كهذا منذ قليل.

احتكما إلى الصمت، فطوّح بهما الصمت إلى سكون الخلاء المجاور، حيث قالت الصحراء كلمتها كلّها بلسان السكون الذي يقول كل شيء، برغم أنه لا يقول شيئاً، لأنها هي التي علّمت الأجيال أن ما يُقال هو البهتان، وما لا يُقال هو القول اليقين.

23 ـ الوصيّة 2

نَصَبَ له الدّاهية شَرَك هلاك، فصمّم أن ينصب للدّاهية شَرَك هلاك. قرّر الزعيم أن يقضي عليه باستدراجه إلى الأحجية المميتة، ولكنه سيعرف كيف سيستدرج الزعيم إلى المصير عملاً بالوصيّة الخفيّة. اغترّ الداهية بلغزه القديم، بتميمته المكنونة، وفاته أن فوق كلّ ذي علم عليم. لم يغترّ بالسرّ وحده، ولكنه اغترّ بالسنين ككل الخلق، فحَسَب نفسه خالداً لأنه طوى من الأزمان أجيالاً، وفاته أن الأجيال في حساب الأبديّة بهتان، والخفاء سلطان لا يبيح للمخلوق خلوداً حتى لو استقطع من عمر الأزمان دهوراً تحسبها الأنام خلوداً. خان الداهية الدهاء يوم ظنّ أن لا غلبة لغالب، ولا زوال لمولود، ونسي، كما نسي دهاة الأمم التي سلفت، أن الغالب لا يَغْلِب إن لم يُغلَب، والمولود لا يولد إن لم يَزُل. يروق للخفاء أن يلهو بناموس الصحراء الأقدم، فيطيل غلبة الغالب إلى أجلٍ غير

مسمّى، كما يروق له أن يتلهّى أكثر، فيهب الغافل آجالاً تحسبها الأقوام أبوداً أطلقت عليها اسم «الأعجوبة»، ولكن الناموس لا بد أن يستعيد سلطانه على الصحراء يوماً، لأن الخفاء الذي ابتدع الناموس لا ينسى إلى الأبد، فيقلب غلبة الغالب هزيمة، وهو أيضاً لا يهمل وصاياه الأولى إلى الأبد، فيضع حدّاً للآجال (التي سمّتها ألسنة القوم أعجوبة) ليقطع دابر خرافة الأعجوبة بضربة واحدة.

حام حول الضريح منذ أوّل يوم، لأنه أعلم الناس بسرّ الثعبان. حام حول معقل الأفعوان منذ أول يوم، لأنه أعلم الناس بحقيقة الأفعوان. حام حول الكيان الخفي، حام حول البنيان العريق، حام حول حَرَم الأسلاف منذ أولِ يوم، لأنه أعلم الناس بطبائع الكنوز، وبرسالة الثعابين. حام حول الضريح الجليل كل ليلة، وتمسّح بجدرانه البائدة مع حلول كل مساء، وتلبّس مسوح الظلمات مراراً ليتفحّص البنيان، ويتبيّن المدخل، ويجسّ ساق الشجرة (التي تنتصب كعمود ركيزة هائلة) وحَسَبَ على الحارس القديم أنفاسه كي يرسم في قلبه لمسلكه صورة تعينه على النيّة.

ولكن النيّة لم تكن لتكتمل حقّاً لو لو يهتدِ إلى الإيماء في

عين الغلام، إلى الحلقة الذهبية المخبوءة في حدقة الغلام، إلى الكنز الذي يندسّ في أكثر أركان البدس أماناً، وفتنة، ومناعةً. لم يكن عسيراً على العقل أن يشرع في وضع حجر الأساس لبنيان مكيدة كانت لها الرؤيا أول أركانها. بلى. السرّ في الرؤيا، لأن الرحلة لم تبدأ إلاّ بالرؤيا. النبوءة لم تطوّقه بالوصايا إلاّ بإلهام المنام. ولم يكن ليصدّق الرسالة في تلك الأعوام لو لم تلتئبه الرؤى بلجاجة ذبّان القيلولة. لم تتمادَ الرؤيا فحسب، ولكن الرسول الذي حدّثه في البدايات بالعبارة المستعارة من لسان الأحاجي، لم يجد مفرّاً من الإفصاح في آخر المطاف، فخاطبه بصريح العبارة: «السرّ، كلّ السرّ، في القربان. لا نخفق في أمرٍ إلاّ إذا أخفقنا في اختيار القربان، ولا نفلح في أمر إلاّ إذا أفلحنا في اختيار القربان. واعلم أن الفوز بقدر القربان: إن عَظُم القربان، عَظُم الفوز، وإن هان القربان، هان الفوز، فافهم! كنز الإنسان يكمن في الإنسان، لأن سرّ الإنسان هو الإنسان، فافهم! يحاول الإنسان أن يحتال فيخفي كنزه بعيداً عن يد أخيه الإنسان، ولكن التضليل، ومحاولة تضييع الأثر حيلة لا تنطلي على الناموس، والداهية الحقّ هو الذي يفتّش عن كنز الإنسان في وطن أخيه الإنسان لعلمه بسجيّة الإنسان الذي خلق هلوعاً ولا يستطيع أن يحتمل خلوة تنأى به

عن ربوع أخيه الإنسان فافهم! . إذا شئت الوقوف على سرّ الكبائر، فاطلب سرّ الصغائر، لأن الحتوف التي لا تتحصّن بالإشارة، لا تستقيم في لغة العبارة، فافهم! سرّ الواحة من سرّ ربّ الواحة، وسرّ ربّ الواحة من سرّ الهامة التي تهجع إلى جوار ربّ الواحة، وسرّ الهامة التي تهجع إلى جوار ربّ الواحة من سرّ المخلوق الوضيع الذي يحوم حول جدار الهامة، لأن حتوف الأبطال في كعوب الأبطال، والأكابر لا يؤخذون إلاّ بالأصاغر، وجدران الأبنية لا تتداعى إلاّ بتلف حجارتها السفلى، فافهم! ولكن حذار أن تغفل عن لغة الإيماء، لأن كلمة السرّ علامة في العين!».

فرّ من الرسول كما فرّ قبلها من الرؤيا. استثقل الحِمْل، واستفظع العبء، فتجاهل الأمر، واستبعد الوصيّة. خرج ليختلي بنفسه في الفلاة، وتأمّل الأهوال التي ستجرّها على رأسه المهمَّة، فخاطب الخفاء قائلاً إنه مخلوق لم يخلق للنزال، ولا للتطاول في العُلا، ولا يريد من دنياه إلاّ النزر اليسير الذي يحققه الأغيار عادةً بالركون إلى حسناء تنعم عليهم دفء أحضانها، وتنجب لهم من بطنها ذريّة. ولكن الخفاء كابر واستنكر وسلّط عليه رسلاً في الرؤى سفّهوا له كلّ حجّة،

واستهانوا بدعواه، ورأوا في تسليمه جبناً وكذباً ووهماً، ونقلوا له وصيّة صارمة تقول إن الدعة بدعة خبيثة لا صلة لها بالسعادة، والإنسان الذي لا يجد حقيقته في البلاغ، لن يستطيع أن يجد حقيقته في أحضان الحسناء، فما كان منه إلاّ أن كابر، واستعلى، وأنكر. كابر لأنه لم يرد أن يرى نفسه إلاّ كما رآها. واستعلى لأنه لم يحتقر في سيرته شيئاً كما احتقر أصحاب الطلب، وأنكر لأنه لم يجد في دنياه طعماً أشهى من أحضان الحسناء. أنكر، وتمادى في الإنكار فسلّطت عليه قوى الخفاء جندها، وطاردته بمردتها الأشقياء، وكادت له بعتاة الجنّ، ولكنه استمات واستبسل ولم يُهزم إلاّ في اليوم الذي بلغت فيه مكيدة الخفاء شعفتها، فأرسلت السيل المارد ليخطف كنزه من بين يديه، ويفرّ به إلى وطن المجهول، فلم يره بعد ذلك اليوم قطّ.

كانت الغيوم قد تنادت فوق شعاف الأجبال الشمالية البعيدة، وأسقطت فيوض غيثها في تلك الأوطان القصيّة، ثم دفعت بالسيول المجنونة إلى صحارٍ جنوبية تنعم بشموس أبديّة، لأن الطوفان في الصحراء اعتاد استخدام سلاح المباغتة في المرّات التي يكون فيها أداة لتنفيذ مشيئة خفيّة. استغفلته

الشموس الأبديّة ليلتها أيضاً، فهجع مع المعشوقة في عرض الوادي. ولم يفق من غيبوبة السبات إلاّ بعد أن اقتحم السيل الخباء، وانتزع من أحضانه المرأة انتزاعاً. وبرغم جنون الموج، وبرغم ظلمات الهزيع الأخير من الليل، وبرغم هجوم الغيلة الذي أفقده العقل كما يحدث مع كل من أُخِذ أخذ الغرّة، إلاّ أنه اشتبك مع المارد في شجار ضارٍ قبل أن يصرعه الغمر أرضاً، فانفلتت من بين أصابعه كفّ حميمته، ولم يكتشف إلاّ بعد فوات الأوان أن سقطته لم تكن إلاّ حيلة ابتدعها المارد ليسلّ الغنيمة من بين يديه. غالب طوفان الموج بجنون، واستطاع أن ينهض بأعجوبة، ولكن الماء طرحه أرضاً مرّة أخرى، ودحرجه عبر الوادي مسافة طويلة جدّاً. ولو لم يدفع الخفاء إلى يده أحراش الرتم التي تشبّث بها في آخر غمضة، لذهب في رحلة القدر أيضاً ليصير للسيل المجنون غنيمة أخرى، ليشارك بذلك حميمته الشقيّة مصيرها الفاجع.

ولكنه كابر وأبى أن يتخلّى عن المعشوقة برغم الهَوْل. تشبّث بأعراف الرتمة، وبصق روثاً وحصباء وأوحالاً، وخيّل له أنه سمع صراخاً ينبعث من جزع الوادي الجنوبي، فجُنّ. جُنّ لأنه وجد نفسه وحيداً، مهجوراً، أعزل، في ليلة. جُنّ لأنه

انسلخ عن جرم كان به لصيقاً انسلاخ جلد الشاة عن جرمها. كلاّ، كلاّ. لم يكن ذلك انسلاخاً. ذاك لم يكن انتزاع جلد عن جرم. ذاك كان اجتثاثاً. ذاك كان تمزيق الجسم الواحد إلى نصفين اثنين، فاكتشف، في غمضة، سرّ القران. اكتشف، في ومضة كلمعة الإلهام، أن المرأة التي تنام إلى جوار الرجل في المخدع لا تشارك الرجل المخدع فحسب، ولكنها تشارك الرجل جسده أيضاً. بل إنّها لا تشارك الرجل جسده كما يلتئم الجسد بالجسد، ولكن جسديهما يتداخلان تداخل الماء بالماء، يتداخلان ويتمازجان إلى الحدّ الذي يستحيل فيه على أحدهما أن يميّز، يقيناً، جسده من جسد الآخر. بل إنّ الأمر لا يقف عند هذا الحدّ، لأنّ تداخل الجسد بالجسد يقود إلى تداخل أكثر التباساً وإبهاماً ووجعاً. تداخل الجسد بالجسد يفضي إلى اختلاط الدم بالدم. واختلاط الدم بالدم يفضي إلى اختلاط أعظم شأناً، لأنه لا بد أن يدرك وطناً أبعد، لا بد أن يدرك مجاهل أظلم، لا بد أن يبلغ تلك الأدغال المجهولة التي أجمعت القبائل على تسميتها روحاً. وإذا بلغ الامتزاج هذه التخوم، فإن العودة إلى الوراء تصير أمراً عسيراً جدّاً. إذا بلغ الامتزاج هذه الأدغال، فإن الانفصال لا يصير عسيراً فحسب،

ولكنه يغدو مستحيلاً. لهذا السبب استولى الضياع على أولئك الذين جرّبوا البَيْن. لهذا السبب تغنّت الأجيال بالأشعار التي تكيل المديح لأولئك العشّاق الذين فرّقت بينهم الأزمان، وفقد القرين منهم القرين، وبرغم ذلك استطاع القرين أن يدبّ بين الناس محقّقاً، بذلك، أعجوبة البقاء على قيد الحياة بعد غياب القرين. هذه هي البطولة في عرف الشعراء. البطولة ليست أن تحسن استعمال السيوف والرماح كما يراها البلهاء والحمقى وضعاف النفوس. البطولة هي أن تجد شجاعة تبقيك على قيد الحياة بعد غياب المحبوب. لأن الأمم اعترفت لأهل البَيْن بحقّ الجنون، كما لم تنكر على الآخرين الذين نجوا من مصير الجنون حقّ الانتحار الذي رأته دائماً بلاءً أهون من الجنون. الخوف من هذا المصير هو الذي شكّك أبناء الصحراء في الحبّ، وجعلهم يرون في العشق بعبعاً مخيفاً. لأن الأمر كان بالإمكان أن يهون كثيراً لو دفعوا البلبلة وحدها للعشق ثمناً، ولكن عرفوا، عبر تاريخهم الطويل، أن الحبّ زهرة حقّاً، ولكنها ليست ككلّ الأزهار، لأنّها لا ترتوي بالمياه، ولكنها تنتعش بالدموع، ولا تتغذّى بأضواء الشموس، ولكنها تنمو بالبلبال، ولا تُشترى بالكنوز، ولكنها تُنال بصفقة يدفع العاشق

مقابلها جوهرة اسمها الروح. والقبائل تعلم أيضاً أن قدر الإنسان أن يخسر تلك الصفقة التي يدفع الروح ثمناً لها حتى لو نال مقابل الصفقة معشوقاً، حتى لو نال مقابل الصفقة امرأة، حتى لو نال مقابل الصفقة روحاً، لأن الروح هي الجوهرة الوحيدة التي نخسرها إذا بعناها، ونخسرها أيضاً إذا اشتريناها، لأن الروح سرّ لا يباع ولا يشترى. لأن الروح سرّ إذا بعناه خسرناه، وإذا ابتعناه خسرناه أيضاً. لؤم العشق أنه لا يكتفي بالأوجاع ثمناً، ولا بالبلبلة ثمناً، ولا بالبلبال ثمناً. هول العشق أنه لا يتنازل أبداً، ولا يقبل بغير الروح ثمناً. لهذا السرّ رددت القبائل القول القائل إن العاشق لا يملك أمر نفسه، لأن الإنسان الذي لم يُؤتَ الروح مرّتين، لا يستطيع أن يشتري العشق إذا لم يهب المعشوق نفسه. وإذا رهن العاشق جوهرته التي لا تشترى ولا تباع، فإنه لن يستطيع أن يحرّر الجوهرة من الرهن أبداً. لأن الجوهرة التي لا ننالها إلاّ مرّة واحدة، لا نستطيع أن نستردها إذا وهبناها مرّة. لهذا السبب عرفت القبائل أيضاً أن العاشق الذي تنازل ووهب روحه لامرأة، لن يسترجع روحه من المرأة إلاّ بمعجزة، إلاّ إذا هلك، ثم بُعث من الهلاك حيّاً، ليحقّق أعجوبة الميلاد مرّتين. يستطيع هو أيضاً اليوم، بعد

مرور كلّ هذه السنين، أن يقول لنفسه أنه هلك. هلك وبُعث من رحلة الهلاك حيّاً. ولو لم يبعث من الموت حيّاً لما صدّق قط أنه يحيا، لما صدّق قطّ أنه هو نفسه الذي فقد المعشوقة في ذلك اليوم المشؤوم ففقد بفقدها سرّه، هو نفسه، وبرغم الفقد لم يفقد العقل بلعنة الجنون، ولم يُضِع الذاكرة ببليّة النسيان. لم يشك قطّ في تحقيق الأعجوبة التي تسميها ألسنة الحكماء الميلاد مرّتين، لأن أصحاب الوصايا لا يطوّقون بالوصايا أبداً إن لم يحققوا أعجوبة الميلاد مرّتين. أصحاب الوصايا لا يصطفون للبلاغ إذا لم يعبروا البرزخ، ويحترقوا بحمم المجهول، ليعودوا من معقل الغول بكنز الوصيّة. ولكن إذا كان من حقّه أن ينعم بالنسيان، فلن يستطيع أن يهب نفسه حقّ نسيان الساعة العصيبة التي تعلّق فيها بأعراف الشجرة، وأدرك أنه ضاع برغم أنه نجا. أدرك أنه فَقَدَ من حيث ظنّ أنه كسب. لأن الجوهرة تدحرجت وسافرت بعيداً. لأن الجوهرة سافرت إلى الأبد، فخاض نضالاً بطولياً خارقاً قبل أن يبلغ السفح، ثم خاض نضالاً أكثر ضراوة في ملاحقة السيل المارد في رحلته المجهولة إلى الأراضي السفلية. ركض بمحاذاة الشطّ الليل كلّه باحثاً عن كنزه الضائع. ركض نهار اليوم التالي أيضاً. ولكن السيل أيضاً

امرأة، لأنه لا يتنازل عن كنوزه أبداً. السيل أيضاً عاشق رهيب رسالته اختطاف الأرواح من كل جنس وملّة ليفرّ بها إلى وطن المجهول. السيل نال المعشوقة، كما نالت المعشوقة روح المعشوق. ولكنه لم ييأس من المطاردة إلاّ بعد مرور أيام عصيبة لم يلتقط فيها نفساً، ولم يغفُ لحظاً، ولم يبلل حلقومه بجرعة، ولم يلتقم في فمه طعاماً، فانهار أخيراً. انهار في جرف يجاور الوادي، وبدأ يعوي.

عوى عواءً فاجعاً، عوى عواء ذئاب نالت منها المجاعات لينفّس الوجع، ولكنه لم يسمع سوى ثرثرة السيل الغامضة، ولم يرَ إلاّ سماءً لا مباليّة. أشعل في قلبه زند المجهول إلهاماً يقول إن سيل الوادي لم يكن له خصماً، ولكن السيل رسول الخفاء الذي اختاره يوماً للوصيّة، فلوى العصا في يده، واختار الحسناء وصيّة. أجل. الخفاء. الخفاء هو الخصم الأفظع من كل خصم، فويل لمن كابر يوماً وظنّ أنه يستطيع أن يتخذ من الخفاء خصماً. بل الويل لمن لوى العصا في كف الخفاء وعصى له أمراً. ولكن قساوة الامتحان أنسته يومها قداسة الخصم، فصرخ في السماء بصوت الجنون:

ـ أيرضي مولاي أن يهب القلب ثم يستردّ القلب؟ أيرضي

مولاي أن يهبني كنزاً، ثم يستعيد كنزه؟ ألا يدري مولاي أنه أكل لحمي، وشرب دمي، واختلس روحي؟ ألا يخشى مولاي أن يرى نفسه في المنام وهو ينهش لحم الإنسان، ويلعق دم الإنسان، ويغلّ روح الإنسان في سلسلة طولها سبعون ذراعاً؟

ولكن السماء الصحراوية المكابرة، اللامبالية، الأبديّة، لم تستجب لندائه الفاجع، فسقط أرضاً سقوط الأموات.

24 ـ الآبَـاء

تحدّث الخلق فقالوا إن الزعيم له مُهلِكٌ أَخرج بالدّابّة أم لم يخرج، وما سيرة البهيمة إلاّ حُجّة. تحدّث الخلق فقالوا أيضاً إنهم لم يرثوا عن الأجداد ولو استثناءً واحداً يؤكد نجاة المخلوق من مكيدة الأحجية. أقبل عليه، في المساء، الولد أيضاً وأسرّ له بلسان الأغيار عن حقيقة النيّة الخفيّة. حدّثوه بأمر الغلام، قبل أن يقبل عليه، فقالوا إنه طاف الأزقة والبيوت والحقول باكياً. سَاءَلَهُ المارّة عن علّة البكاء، ولكنه لم يجبهم قطّ، مما استثار أهل الفضول، وشوّق الأنداد، فلاحقوه في طوافه عبر الأزقة والدروب والحقول في جمهرة كبيرة. استنطقوه عبر الرحلة كثيراً، ولكنّه انْهمَّ بمرثيته، وغاب في تلحين بكائه كما يُلحّن الغناء، فلم يفلحوا في استجواب، فغمّه النبأ كثيراً، وهمّ بالبحث عن الولد كي يدسّه في جؤجوئه، ويكفكف له بقلبه دمعاً. هَدْهَدَ في الصدر الأمنية، ولكنه، لعلّة

مجهولة، لم يحتضن الصبي ليدسّه في الجؤجؤ عندما أقبل عليه في المساء. لم يحتضنه، ولم يدسّه في الجؤجؤ ليكفكف له الدمع بقلبه لأنه أعدّ للمحبوب مصيراً آخر عندما وضع بين يديه عجين التمر المجدوح بمسحوق العشب المميت ربّما ليقينه القديم بأن الإنسان سلالة لا تستطيع أن تنقذ مَنْ أحبّت إذا لم تدس في لقمة مَنْ أحبّت سُمّاً. بل إنه لم يشك يوماً في أن الإنسان لا يستطيع أن يدّعي حبّ من أحبّ، ولا يستطيع أن ينال المعشوق أبداً، إذا لم يتدبّر أمر الخليل ويفعل الأعاجيب، في سبيل أن يضع لحياة المعشوق حدّاً. ذلك أن المعشوق، كالحسناء، لا يُنال بالحياة، ولكنه يُمتلك بالموت. لهذا السرّ استنكرت القبائل القديمة العشق، ولكنها لم تنكر على العاشق إماتة المعشوق. أدرك أهل القدمة هول العشق لعلمهم بالمنقلب الذي سينقلب إليه أهل العشق، ولكنّهم تحلّوا بالتسامح كلّما بلغهم نبأ كلّ عاشق أجهز على معشوق. ويقال إن الأعراف في تلك الأزمان كانت تبيح دسّ السموم في أطعمة المحبوب، برغم أنّها تحذّر من الوقوع في أشراك عشقٍ ترميه بنعوت مريعة كالسقم، والخَبَل، والجنون. وما زالت بعض قبائل الصحاري الجنوبية والغربية تطلق اسم «القربان» على كلّ من أصابه الدّاء، لأنها على يقين أن المصاب الشقيّ قد حكم على نفسه بالهلاك،

سواء نال حتفه على يد مَنْ أحبّ، أو أقدم على إهلاك المعشوق. وما زال الشعراء يرددون الأغاني القاسية التي تروّج للشرع القائل بأننا نمتهن الحبّ عندما نسعى لامتلاك مَنْ نحبّ، لأننا لا نحبّ حقّاً، إن لم نضحِّ بمن نحبّ.

لم يتحرّر من سيماء البكاء عندما أقبل. في العينين احمرار، وفي الجفنين ورم، . في المقلتين حزن. سأله أيضاً: «ما يبكيك؟»، فحدجه باستنكار، ثم دعك عينيه قبل أن يحتكم في جوابه بألسنة العقلاء: «الدموع قوت اليتيم». أضحكته الجابة، فألحق السؤال بسؤال.

ـ ألم تنعم برؤية الأب؟

ـ كلاّ. دنياي هي أمي.

ـ بلغني حنينك لرؤية الأب.

ـ من منّا، يا مولاي، لا يتلهف لملاقاة الأب؟

ـ صدقت. لا نتوق لملاقاة شيء، كما نتوق لملاقاة الأب.

ـ أيحلم مولاي بلقاء الأب أيضاً؟

ـ كلّنا نحلم بملاقاة الآباء.

ـ حدثني، يا مولاي: كيف هم الآباء؟ من هم الآباء؟ لماذا يأتي بنا الآباء إلى الصحراء، ثم يهجرون الصحراء ويتركوننا؟

حدثني يا مولاي: من أين يأتي الآباء، وإلى أين يذهب الآباء؟

- الآباء، يا بني، هم أرباب الأبناء، والأبناء هم فناء الآباء.

- ماذا يقول مولاي؟

- يأتي بنا الآباء من وطن لهم في صحراء أخرى اسمها المجهول، فنتركهم حتى يغفوا، فنتسلّل إليهم خلسةً لنختلس السرّ من صدورهم، فيهاجرون. يهاجرون لأنهم لا يجدون في الصحراء ما يفعلون لأننا نتولّى عنهم الأمر، فنفعل عنهم ما كانوا يفعلون. لهذا السبب يختفون، لأن الأب لا بد أن يذهب إذا جاء الابن.

- ألا يستطيع الآباء أن يجتمعوا بالأبناء؟

- لا تستطيع الصحراء أن تجمع الآباء بالأبناء يا بنيّ. الصحراء تقبل الآباء ما سعوا في طلب الأبناء، فإن نالوا الأبناء، فإن أقبلوا إلى الصحراء بالأبناء، أزاحتهم الصحراء، ليخلوا المكان للأبناء.

- ولكن ما حيلة الصحراء مع الآباء الذين لا يجيئون للصحراء بالأبناء؟

ـ الصحراء لا تعترف بهؤلاء آباءً.

ـ إلى أين يذهب الآباء الذين لا يجيئون للصحراء بالأبناء؟

ـ الآباء الذين لا يجيئون للصحراء بالأبناء يبقون أبناء إلى الأبد.

ـ ألا يهاجر الآباء الذين لم يأتوا للصحراء بالأبناء كما يهاجر كل الآباء؟

ـ بلى يا بني. الآباء الذين لم يأتوا للصحراء بالأبناء يهاجرون أيضاً، ولكنهم يهاجرون أطفالاً، كما يجيئون أطفالاً.

ـ بعيدٌ أمر الآباء، يا مولاي، بعيدٌ.

ـ بعيدٌ، يا بنيّ، ما كان بعيداً، والعميق العميق من يجده.

تطلّع إلى العين ليتفقّد العلامة في العين، فاكتشف تضعضع العلامة في العين. ارتجّ رجّاً عنيفاً، وأدرك أن الميعاد حلّ، والأوان قد حان، لأن الكنز الذي كان للأخيار دائماً شرك الأشراك، هو الذي تولّى الأمر الآن، وقرّر أن يأخذ منه الغلام الذي لم يختره، المحبوب الذي لم يختره، الوليد الذي لم يختره، فزمّ هواه، وأحجم عن المضي في التحدّث عن سيرة الآباء والأبناء، لأنه لم يشأ أن ينبئه عن حقيقة الأبناء الذين لا نأتي بهم إلى الصحراء كي نهبهم الحياة، ولكننا لا نأتي بهم إلى الصحراء إلاّ لنلقمهم لقمة اسمها الموت.

وضع بين يديه عجينة التمر المجدوحة بمسحوق العشب المميت، وأنشأ يتطلّع إلى المحبوب وهو يلوك اللقمة ويتحدّث عن أمرٍ لم يسمعه، يتحدث عن سيرة لم يفهمها، يتحدث، ويتحدّث، ويتحدّث فلم يتبيّن رواية اللسان، برغم أنه لم يفته تلجلج اللسان ما إن بلغت اللقمة الجوف، فسرت السموم في البدن. استرخت عضلة اللسان، وتلعثم البيان، وتكاسلت الأطراف، واقتحم النعاس المقلتين، وغابت العلامة في المجهول، وتنزّل على البرّ سلطان النسيان. كفّ الفكان عن المضغ، وانكفأ الابن الخالد إلى الأمام، ليسقط في حجْر الأب الخالد، ليثبتا معاً حقيقة السيرة الأولى التي أعطت للعاشق حقّ إزالة المعشوق، وطوّقت أعناق الآباء بواجب إبداع الأبناء للصحراء لا لإعطائهم الحياة على سبيل الهبة كما يظن الجهّال والبلهاء، ولكن لتقديمهم للموت قرباناً لا طلباً لسرّ الموت، وإنما لطلب طلسم اسمه الحياة.

25 ـ البين

احتمل وعاء المعبود، وتسلّل بعد منتصف الليل. تحصن بعتمات الجدران في مسيرة عبور الأزقّة والدروب المؤدية إلى أعلى. تطلّع إلى البدن المطروح بين يديه مرّات كثيرة. كانت جحافل الأنجم في السماء العارية تتبادل، كعادتها، أسرارها بإيماء الأضواء فتسكب من فيوضها نصيباً يفضح، في سيماء المعبود، تسليماً عميقاً، خفيّاً، كأنّه يستعير غموضه من استعلاء السّماء الأبديّة، أو ينتحل السماء من لا مبالاة الصحراء الأبديّة.

وبرغم خفّة الجرم الهزيل، إلاّ أنه ركن، في المسافة التالية، إلى أحد الجدران، وأقعى ليلتقط أنفاساً. أقعى ولكنه لم يطرح الجرم أرضاً. احتضن الحِمْل، وتطلّع إلى سيماء السكينة في الوجه، فأدرك سرّ الموت الذي لا يحمل للخليقة شروراً، ولكنه يبلغ بالعابر (الذي لا ينطلق إلاّ ليعبر) نهاية مطاف كل عبور، ويهب المتعبين من وعثاء الأسفار، فوق ذلك السكينة.

فلماذا يجيء الإنسان إلى الصحراء إذا كان لا يريد أن يعبر؟ ولماذا يعبر الإنسان الصحراء إذا كان لا يريد أن يبلغ الوطن، الحدّ، البرزخ، الركن الذي لا بدّ أن ينتهي إليه كل عابر أخذ على عاتقه تأدية رسالة اسمها العبور؟ فلماذا يعبر الصحراويون إذا كانوا لا يريدون أن يصلوا؟ ولماذا يرتجف الجبناء من الوصول؟ وما الذي يفزع الخلق في بعبع الوصول؟ أم أن السكون هو ما يذهل، والسكينة هي الهبة التي تشلّ العقول؟ أم أن الشرّ الذي تخشاه القبائل ليس في هذا كلّه، ولكنه في تلك الغفلة المريبة التي أطلقت عليها الأجيال اسم النسيان؟ أيحقّ لنا أن نرى النسيان هولاً وبلاءً إذا كنّا أعلم الأنام بأن بعبع النسيان لم يسبّب لنا ضرراً عندما سكنّاه يوماً قبل أن يأتي الأوان الذي جاء بنا إلى الصحراء؟ فما يضيرنا أن نعود إلى واحة النسيان إذا كنّا نعلم أيضاً أن العودة لن تكلفنا إلا شقوتنا، ولن نخسر فيها إلاّ أوزارنا وأغلالنا ونكبتنا التي لن يكون عقال العقل (الذي نتباهى به في خصامنا مع الكائنات) إلاّ رأسها؟

ولكن ما لا ينبغي الاستهانة به حقّاً هو البَيْن. ما لا يُطاق في الانفصام هو البَيْن. خبث الهلاك ليس في الهلاك، ولكن البلوى في فجيعة الفراق. ولو كان الفراق هيّناً لما كان للصحراويين همّاً منذ أقدم العهود. ولولا هذا الداء لما احتاج

أهل الحكمة لأن يحتالوا عليه بالخلوة التي لم تُبتدع في الصحراء إلاّ لترويض الأنفس على الانفصال، والتدرب على التخليّ تمهيداً لتقبّل انفصال اليقين ساعة حلول الوداع الكبير. لهذا أكبرت الأغلبية على أهل الانقطاع شجاعتهم، في حين سخر من هذا الخيار أغيار كثيرون لأنهم رأوا في التخلّي الذي يسبق التخلّي حمقاً ما دام المخلوق لا يستطيع أن يحتال على قَدَره، ليفرّ من قَدَره ـ ومهما تنازع الفريقان، فإن الإيحاء المبهم في الفراق لا يزول، والمرارة التي يتركها في الحلق البَيْن لا يقدر على إبادتها حتى سلطان التسليم العظيم، برغم اليقين بأن هذه الفجيعة لم تعد شأناً من شؤون الأموات، ولكنها شأن من الشؤون الموجعة الكثيرة التي تطوّق رقاب الأحياء، لأن الأحياء هم الذين اختاروها يوم اختاروا مصيراً يختلف عن مصير الأموات بالبقاء، بعدهم، على قيد الحياة.

ألا نبكي عندما نولد لأننا نفارق النسيان؟ ألا نبكي عندما نموت لأننا نفارق الذاكرة؟ فإلى أيّ مآلٍ ستؤول الصحراء فيما لو عاهد الخفاء الأحياء بهبة الالتقاء في وطن النسيان؟ ألن يهجر أهل الصحراء وطنهم في الصحراء ليلتئموا في وطن الميعاد؟

ولكن الخفاء، كالصحراء، لا يعد بشيء حتى لو استطاع أن يهب كلّ شيء. وقد يهب كلّ شيء دون أن يعد بأيّ شيء،

فلا يمتلك من عوّل عليه إلاّ الانتظار.

أمّا أصحاب الوصايا فلا يستطيعون أن يهبوا أنفسهم حقّ الانتظار. أصحاب الوصايا يرفضون الانتظار، لأنهم لا بدّ أن يعجّلوا بدفع الثمن، وينحروا القربان، ويرووا السبيل دمّاً، إذا شاؤوا أن يتحرّروا من الوزر، ويزيلوا عن كواهلهم عبء الأمانة، ويبلّغوا الرسالة. بهذه العلّة اختار أن يقايض وزراً بوزر، فيحمل عبء بدن معبوده الصغير، ليزيل به عبء الرسالة. لهذه العلّة استخفّ بالمرارة، واحتمل وزره بين يديه، وارتقى الجبل، وركع بجوار الجدار الذي ينبثق منه النبع، ليستودع معبوده في جوف معبود آخر يستوطن حيطان الضريح الذي يتدفق منه الجدول، استدراجاً للداهية، وتعطيلاً للسّحر، وضرباً للغز، وتدبيراً لتميمة الجولة الأخيرة.

26 ـ الترياق

كما يتبلبل أهل الخلاء عندما يستيقظون آخر الليل على استغاثة هجوم السيل، كذلك تبلبل أهل الواحة وفقدوا صوابهم في فجر ذلك اليوم الذي شهد مصرع المعبود. ويُقال إن الولولة التي انطلقت من جهة الضريح هي التي أيقظت سكان البيوت المجاورة، فهرعوا إلى المكان. وعندما وجدوا الثعبان يلفظ زبداً مريباً، ويلتفّ حول عمود الشجرة المنصوب في مدخل الغار، أطلقوا نداء الاستغاثة الذي أيقظ الواحة كلّها، فهرع إلى السفح أهالي الحقول، وأقبلت جموع البيوت المجاورة برجالها وأطفالها ونسائها، كما لم يغب عن المكان أغراب الأسواق، وأصحاب القوافل المهاجرة، بل لم يمضِ إلاّ زمن قصير حتى فوجئت الجموع بقدوم أعوان الزعيم يحملون على أعناقهم جلالة الداهية الذي تربّع على أعواد محفّة ملفوفة في ستور الخزّ تحفّ به نمارق الجلود، ومفارش الكتّان والأصواف والحرير،

فيبدو، في هذا العش الوتير، هزيلاً، ضئيلاً، كطفل صغير. قبل أن يقبل الموكب المهيب سبقه جند الاستطلاع إلى المكان، ولكن رهط العسس لم يثر انتباه إلاّ القلّة بسبب انشغال الناس بالبلاء الذي أحاق بالمعبود، واستبعاد الأكثرية لتنازل زعيم الأبد عن سكينة أيام الأفول الذي يسبق البعث الجديد، وانهمامه بأمر البنيان الذي اعتاد أن يستعيد به الحياة. لهذه الأسباب انطلقت من صدور القوم همهمات العجب ما إن اقتحم الموكب المكان، فوشوشوا، وتهامسوا، وأسرّ بعضهم في آذان بعض بفضول أنساهم أن يفسحوا الطريق. بل ربما أنساهم حتى المصاب الذي انتشلهم من مخادع نسائهم، وأجبرهم على الانسلاخ عن أجساد قريناتهم، لا لعلمهم بأوان اعتلال عافية الزعيم، ولكن لإدراكهم بأن الداهية الذي لم يحمّل نفسه عناء الخروج من حدود حصنه السماويّ يوماً، لم ينزل إلى حضيض السفوح اليوم إلاّ لوجود خطر لا يتهدّد المعبود وحده، ولكنه يتوعّد الواحة بأسرها.

تدافعت الجموع حول الضريح، واكتظّ الفِناء الذي يلي المدخل بالخلق، وفاض الزحام على الساحة، فانتشر البشر على السفح كله، وضاق بهم السفح الجبليّ أيضاً فدفع بهم إلى

الأزقّة المجاورة، وإلى الدروب التي تتلوّى في صعودها إلى أعلى، أو الدروب الأخرى التي تتعرّج في نزولها إلى أسفل. واستمرّ تدفق الخلق مع ارتفاع الشمس واقتراب الضّحى، ودفعت البيوت بنصيب جديد، فامتلأت الأركان، وضاقت بهم حتى السفوح فلفظتهم الأعالي إلى الأحاضيض، فانتشروا في السهل الملاصق للقدم الجبلي في جنبيه الشرقي والجنوبي، فلم يملك أهل الفطنة إلاّ أن يسائلوا أنفسهم في أيّ جوف أخفت الواحة اللئيمة طوال هذه الأعوام حشود مخلوقات تماثل في عددها عدد حبّات الحصباء.

كانوا يهمهمون، ويهتملون، ويهيمنون، فتتحوّل الهمهمات والهتملات والهيمنات هرجاً وضجيجاً بسبب كثرة الحشود، كما أنشأوا يرتجّون ويتمايلون كأنهم يتراقصون على إيقاع طبل مجهول كلّما تحركوا أو تلفّتوا أو أومأوا. كانت أبصارهم معلّقة بعجيزة الشجرة القديمة التي تلوّى المعبود على ساقها فراراً من أوجاعه التي يحملها في جوفه، في حين تعلّقت أبصار جموع أخرى بالمحفّة المحفوفة بسيماء الرخاء التي يتوارى بين وسائدها جرم الداهية البئيس الذي مضى يتوجّع أيضاً ويغالب أوجاعه ليتطلّع إلى قرينه الشقيّ الذي يتشبّث بالجذع، ويصيح

صياح المعزى، يشتعل إيماء الجنون في مقلتيه اللتين لم ترَ الأجيال فيهما سوى الوداعة والسكينة واللامبالاة؛ يفزّ الزَّبَد من بين فكيه، ويطوّق العمود بضراوة وحوش الأدغال، فتتحطّم أعراف اليبيس في أعالي الشجرة، ويتصدّع الجذع ويتشقق ويستغيث بطقطقات تنذر بالسقوط. كان يكف عن الولولة المنكرة أحياناً، فيغمض عينيه بتسليم من نال العافية أخيراً، ويلقي برأسه إلى أسفل، فيتدلى حتى يكاد يلامس الأرض، ولكنه لا يلبث أن يفزّ كالممسوس، وينتصب برأسه القبيح في وجه القوم حتى تتناثر ضرائب الزّبد المشبوه على رؤوس الناس، ويطلق ذلك العواء الموحش الذي لم تسمعه الأجيال من فكّيه حتى في الأعوام التي يتوجّع فيها ليلد نفسه في المواسم التي يبدّل فيها جلده. مع استمرار معاناة الداهية على الشجرة، لاحظ أهل الفطنة تضاعف معاناة الداهية في المحفّة. قالوا إنّ الزعيم لم يستجب لمصاب قرينه الأزلي بالأوجاع، والآهات، والأنين فحسب، ولكنه ازداد ضآلة، ووهناً، وشحوباً. وأكّدوا أيضاً أن الوميض اللئيم الذي لم يفارق عينيه حتى في أوان أسوأ أعوام الزوال تضعضع وتراجع حتى كاد ينطفىء. ويضيف الرواة أن الأعوان بذلوا جهداً شاقّاً كي ينبئوا مولاهم بنبوءة سُمعت من فم أحد دهماء الزحام تتحدّث عن

السموم، وتقول إن الثعبان قد ابتلع مخلوقاً. وبذل الأعوان جهداً أكبر كي يفهموا من المولى أمره باستحضار السحرة والكهنة والعرافين وعلماء الغيوب. ويقال إنه تحامل على نفسه، واستمات استماتة بطولية ليتمكّن من النطق بالسؤال الذي ما زال إلى اليوم يتردّد على ألسنة قبائل الصحراء ليسوقوه مثلاً يصدقون به القول:

ـ أيعقل، يا قوم، أن تميت السموم صاحب السموم؟

احتار السحرة، وطأطأ الكهنة، واستولى الخجل الكاذب على أدعياء العلم بالغيوب، وعمّ السفح السكون، حتى يئس الخلق، وبدأ الداهية يرتجّ ويرتجف في محاولة بطولية لاستنطاق اللسان. عندها انسلّ من الزحام شبح صارم، يرفل في أثواب الكآبة، ويتقنّع بلثام السواد أيضاً. تقدّم من موقع الزعيم فتكلّم بلسان الجسارة:

ـ بلى يا مولاي. في أجناب الصحراء سموم تستطيع أن تميت صاحب السموم.

غالب المولى الوهن مرّة أخرى. أطلق حشرجة يائسة فانحنى عليه رجال الحاشية ليلتقطوا من فمه الوشوشة. أخفق في الإيضاح بالبيان المسموع فتطوّع أحد الأعوان ونقل نبأ مولاه

إلى الجموع بنداء الذهول واليأس والوعيد:

- أيّ سُمّ في وسعه أن يميت صاحب السُمّ يا شقيّ؟

ولكن الشبح الصارم لم يتزعزع، ولم يتنازل عن نبوءته القاسية. بل سمع القوم في لهجته نغم اليقين عندما قال:

- بلى يا مولاي. في وسع سُمّ اسمه الإنسان أن يميت صاحب سمّ اسمه الثعبان.

سَرَت في الزحمة همهمة، وعلت الهمهمة في هرجة، وانقلبت الهرجة ضجّة حقيقية. لوّح رجل الحاشية بيده في الفراغ فزمّ القوم فضولهم، وقمعوا في النفوس الجشع إلى القول، فتساءل الرجل نيابة عن الزعيم:

- ماذا تقول؟

- ينقلب السّحر على الساحر، ويميت سمّ اسمه الإنسان، صاحب سمّ اسمه الثعبان، يوم تتكأكأ أجرام النحوس، لتلتئم في منازل النحوس، فيكتشف صاحب الكيد كنزه في العلامة.

- عن أي علامة تتحدّث يا شقيّ؟

- لكل كنز طلسم، والطلسم الذي يفضح سرّ صاحب الكنز مخبّأ في العين.

ـ ألا تريد أن تكف عن إلقاء الأحاجي، وتتكلّم بلسان أهل اللسان؟

ـ تكلمت بلسان الأحاجي، ليقيني بأن الأحاجي لا تستكشف إلاّ برطانة الأحاجي!

ـ إفصح!

ـ هيهات أن ينفع في الداء ترياق الخلق، إذا طاف في الأسواق نذير الخلق مبشراً بنداء المراثي!

ـ أليس إلى الخلاص سبيل؟

ـ ألا يرى مولانا أن المعبود قد ابتلع في جوفه السمّ المجبول بالعلامة؟

ـ هل من سبيل لتحرير أسير الجوف من جوف صاحب الجوف؟

ـ وهل يستطيع مولاي أن يُدخل بعيراً في سَمّ الإبرة؟

ـ ماذا يريد الداهية أن يقول؟

ـ وهل يستطيع الداهية، يا مولانا، أن يقول، إذا كان كلّ ما يجب أن يُقال منذ زمان بعيد قد قيل؟

ساعتها انبثق من صميم الجموع شبح آخر، صارم أيضاً،

كئيب أيضاً يطوّق الحَشَا بلثام موسّم بالتعاويذ، ويدس كفّه اليسرى بضريبة جلدية مزدانة بالرموز الخفية أيضاً. تقدّم حتى وقف بجوار الشبح الجسور، وانحنى إلى الأمام قليلاً ليقول بلهجة كالاستخفاف:

ـ سمعت لغواً، يا مولاي، يتحدّث عن الدّاء، فهرعت إلى مولاي بالشفاء!

تزعزع المكان بغمغمة، وعلا في السفح الهرج، وتنقّل الهرج في الصفوف كالوباء حتى بلغ الأعالي، واجتاز ليدرك الأحاضيض. ندّت عن صدر الداهية شهقة، وأفلت من صدره صوت:

ـ أنت؟

ـ بلغني يا مولاي نبأ البلاء، فأسرعت إلى مولاي بالجواب عن الأحجية!

توجّع المعبود في الأعالي بصياح الشكوى وتبلبل الخلق في الأسافل بالفضول والافتراض والأسئلة، في حين تململ جرم الداهية في عشّه الحميم وغالب أسباب الزوال ببسالة الأبطال، ولكنه أخفق ولم يهرع لنجدته اللسان. قيل إنه غمغم وبرطم وتمتم طويلاً، ولكن الخلق أجمعوا أنهم لم يسمعوا من

فمه ساعتها إلاّ حشرجة مريبة تذكّر بحشرجات أنام يعانون من سكرات النزع الأخير. ويقال أيضاً إن صاحب الوصيّة لم يمهله قطّ، فكشف عن النوايا لأوّل مرّة عندما تغنى بالسيرة كأنه يروّض لحناً من لحون الشجون:

- يدبّ سليل الأجيال على أربع في زمانه الأوّل، ويدبّ سليل الأجيال على اثنتين في زمانه الثاني، ويدبّ لغز الأجيال على ثلاث في زمانه الثالث. أفلا يرى مولاي أن يومه الثالث قد أدبر، ولم يبق له إلاّ أن يهجع إلى جوار الأسلاف، لأن الطلسم بَطُل، والتميمة أتلفتها القدمة، ولم يبق لمولاي إلاّ أن يعرف أن لغز الإنسان هو الإنسان، ولم يكافأ مولاي بحياة الأجيال إلاّ للدهاء الذي علّمه أن الإنسان هو اللغز الوحيد الذي استعصى على الإنسان، فحقّ له أن يحتال به على الإنسان ليخلق منه الأحجية الخالدة، كما احتال يوماً ليتخفّى في جرم الأفعوان الأبدي ليحرس كنز الوصايا.

عمّ سكون الأبديّة. ماتت في الصدور حتى الأنفاس، فلم تُسمع نأمة أو وشوشة أو همسة، لأن القوم الذين أُخذوا بالقول، أُخذوا أيضاً بحال الداهية الذي أنشأ ينتفض، ويرتجّ، ويزيح الأغطية ليلتقط الهواء، فأيقن كلّ من رآه عن قرب أنه لا

يختنق فحسب، ولكنه يحتضر، لأن الشحوب الذي استبدّ به يومها لم يكن شحوب الأحياء، ولكنه سيماء الأموات. وبرغم العراك المميت، برغم الاختناق، برغم حلول الموت، إلاّ أن الداهية القديم احتال ليهتف في وجه الغريب:

ـ من أنت؟

انحنى صاحب الوصيّة إلى الأمام مرة أخرى. قال بلسان الاستخفاف مرّة أخرى:

ـ لا يليق بسلطان الدهاء أن ينسى ناموس الدهاء الذي جعل فوق كل صاحب دهاء داهية.

استبسل صاحب النعش في نعشه الوتير ليهتف بصوت موجع:

ـ من أنت؟

فردّد الأعوان النداء:

ـ من أنت؟

فتلقّف الدهماء النداء من فم الأعوان:

ـ من أنت؟

فانتقل النداء من جموع المكان إلى جموع الأركان:

ـ من أنت؟

فانتقل النداء من حلوق الخلق ليترنّم به صدر الجبل:

ـ من أنت؟

فأجاب الغريب ببرود الآلهة:

ـ لو لم يكن الغريب رسول بلاغ، هل يستطيع أن يجيء بالشفاء لمولاه؟

هبّ أحد الأعوان:

ـ أتجيئنا بالبلاء، ثم تتحدّث عن الشفاء؟

ـ بلى. الهلاك ترياق الدنيا. الهلاك لدنيانا دائماً ترياق!

تلقّف الخلق الوصيّة من فم صاحب الوصيّة ولجلجوا طويلاً بترياق الدنيا. ويقيناً أنهم كانوا سيثرثرون وقتاً أطول لو لم ينتبهوا، في آخر الأمر، بسبب الأفعوان الذي هوى أرضاً فلتةً، فتفقده بعضهم ليجدوه جثّة. ساعتها أطلق القرين المسجّى في عشّ المحفّة أنيناً فاجعاً، وألقى في سمع القوم، قبل أن ينطفىء، بالوصيّة الأخيرة:

ـ ما أعسر أن يولد الإنسان! ما أعسر أن يحيا الإنسان! ما أعسر أن يزول الإنسان!

ثم تلوّى، وتوجّع، ووشوش بصوت الهمس:

ـ نحن تعساء لأننا لا نملك إلاّ أن نشقى بكلّ أيّام دنيانا الثلاثة: نشقى بأمسنا لأننا لا نستطيع أن نحيا بأمسنا، ونشقى بيومنا لأننا لا نستطيع أن نحيا بيومنا، ونشقى بغدنا لأننا سنهلك بغدنا؛ فكيف لا نشقى بثالوث الأيام إذا كنّا أعلم الخلق بأننا خلقنا لكي نموت لا لكي نحيا؟

27 ـ الحسناء

حام حول الأنقاض. طاف بين الأنقاض. احتمى بالظلمات وقطع المسافة بين حصن الداهية الذي هلك، وبين معقل حارس الكنز الذي هلك. تطلّع إلى جدران الحصن الذي انقلب لصاحب الحصن ضريحاً، فأيقن بصواب الوصية التي قالت إننا لا نشقى لنقيم جدران البنيان لنسكن البنيان، ولكننا نشقى لابتناء البنيان لنهجع إلى الأبد بين حيطان البنيان. نحن لا نتخذ البيوت لنحيا في البيوت، ولكننا نتخذ البيوت لنموت في البيوت. هذه هي الوصيّة التي اختلق الصحراويون الرّحال ليحتالوا عليها. هذه هي الوصيّة التي عبر العابرون المنافي ليجتنبوها. هذه هي الوصيّة التي استجاب بسببها للنداء، فنحر في قلبه سعادة أهل الدعة، وانطلق عبر الآفاق ليحمل البشارة إلى قوم ركنوا للدعة. هذه هي الوصيّة التي لم يبخل عليها الناموس المفقود بالمديح، واستعار أكثر الأمثولات غموضاً لإعلاء شأنها. ذلك أن الأوّلين

كانوا أوّل من نبّه إلى الخطر يوم وجدوا في الركون إلى الأركان أوتاداً، ورأوا في كل وطن، خلا الخلاء، معتقلاً يستوجب الحذر. الأجداد هم الذين لقّنوا الأحفاد فقالوا إن تشييد الواحات خطيئة، لأن قدر سليل الصحراء أن يموت بإثم الاستقرار، ويحيا بفضيلة الانتقال. مَنْ يتنقّل لا يهرم، ولا يتربّل، ولا يبيد، ولا يهلك. مَنْ يتنقّل لا يشقى، لأنه لا يجد للشقاء وقتاً، ولا يعتلّ، لأن الأسقام لا تطارد المهاجرين، ولا يختنق بوساوس الوحشة، لأن الوحشة غول لا يباغت إلاّ المسترخين. فهل يستطيع أن يقنع نفسه، اليوم، بأداء الأمانة، ويقول للملأ إنه بلّغ؟ كلاّ، كلاّ. يستطيع أن يجزم بيقينه في التحرّر من شطر الوزر، ولكنه لم ينتهِ من أمر الشطر الثاني من الوزر. يستطيع أن يتباهى بأداء نصف المهمة، ولكنه لن يبيح لنفسه الخروج قبل أن يستخرج من الأعماق الوصيّة الخفية التي صارت يوماً لقيام المعتقل سبباً. بلى، بلى لن يهنىء نفسه بالانتهاء، ولن يغسل يديه من الأمر قبل أن ينتزع السرّ من المعقل الذي يتخفّى فيه السرّ. لن يهبّ واقفاً، ويرنو إلى الآفاق ليهب نفسه لسلطان الرحيل، قبل أن يستأصل العرق، قبل أن ينتشل من الجوف جذر العبوديّة، قبل أن يقضي على الحلمة اللئيمة التي يستعير منها القوم البلهاء نعيمهم المشؤوم الذي

استدرجهم طوال هذا الزمان، واستبقاهم رهائن وضيعة في قبضة مارد مميت كذبوا فأسموه استقراراً.

رابط في الأعالي كثيراً. وشاهد القوم وهم يدفنون الداهية الذي اختلق الواحة، وابتدع، باختلاق الواحة، بدعة الاستقرار. تأمّل الجموع مراراً وهي تخرج من المثوى أسراباً أسراباً، وسمع أقوال القوم التي تفيد بأن أحداً منهم لا يصدّق. تسكّع بالجوار وأصاخ السمع أكثر، فلم يكن عسيراً أن يقتنص اللغط: «أيعقل أن يهلك؟ ألم يكن معبوداً؟ متى كانت المعبودات تهلك؟ هلاك المعبودات سوء لم نعرفه. هلاك المعبودات في عقائد الأولين فأل سوء!». خرجت الجموع في الأيام الأولى من الحصن أفواجاً أفواجاً، لتعود إلى المثوى في الأيام التالية أفواجاً أفواجاً. خرجت الجموع في الأيام الأولى طلباً لمكان تدفن فيه ضياعها، وعادت الجموع على أعقابها، في الأيام التالية، لتطرح عند ضريح الحصن نذورها، لأنها تاهت عند الخروج ولم تجد قشّة تستعين بها على ضياعها. لا يتمسّح العُبّاد بأضرحة المعبودات ليفرّوا، وينطلقوا، ويتحرّروا، ولكن أهل الاستقرار يتمسّحون بحيطان المعبودات لكي يركنوا، ويسترخوا. مصرع الزعيم ألهاهم عن مصرع الثعبان،

فاستغفلهم، وهرع إلى الضريح. تركهم ينعون فقيدهم في الأعالي، وطاف حول المعقل الرهيب. لم يجد للاختلاء به سبيلاً في الأيام الأولى، لأن صبياناً ودهماءً ونساءً وأصحاب فضول حاموا حول بدن الثعبان ليشبعوا فضولهم بمرأى الهيكل العظمي الفظيع الذي تبدّى بتحلّل الجرم، فأفسدوا عليه خلوته. ترصّدهم طويلاً في ليالٍ شهدت انمحاق القمر، وتسكّع بالجوار انتظاراً لانسحابهم بانهزام الليالي واقتراب السَّحَر، فيتلكأون، ويتباطأون، ولكنهم ينصرفون أخيراً. ينصرفون بأسرهم باستثناء شبح غامض، ملفوف في ألحفة السواد، يمكث في عتمة الجدار الليل كلّه، ولا ينصرف إلاّ بعد مطلع الفجر. راقبه من مكمن بجدار أحد الأزقّة، فاكتشف في الشبح جنيّة حقيقيّة. يروق للجنيات أن يتسكّعن حول الأنقاض. يروق للجنيّات أن ينتحبن فوق الهياكل التي هوت تحت الأنقاض. يروق لسلالات الجنيّات أن يسكن الأنقاض. ولو لم تنتوِ الجنيّة اتخاذ الأنقاض سكناً، لما اعتكفت في المكان كل ليلة، فلا تندحر من المكان إلاّ بتعويذة الضياء المخبوءة في قبس الفجر. سئم الانتظار، فاقتحم عليها المكان في ليلة. حام حولها مرّتين، وحاول أن يتبيّن فيها السيماء مراراً. ولكن السيماء احتجبت بلحاف السواد، والجنيّة اعتصمت بلا مبالاة تليق بملّة الجنّ، فلم يزده

إصرارها على التزام السكوت إلا يقيناً بحقيقة هويتها، فدنا منها، في مرّة أخرى، وساءلها بلسان مَنْ أُوتي علماً بمسلك سلالة الجان:

ـ أجنيّة أنتِ، أم كاهنة ضاقت بسلالة الإنس؟

في مرّة لم تستجب، وفي مرّة أخرى انتشلت نفسها من غفوة الوجوم بعسر، فسمع صوتاً فزّ له قلبه:

ـ أصوتاً سمعته يوماً أسمع اليوم، أم وهماً أكابد كما كابدتُ أوهام الرّؤى؟

ارتجّ عليه حتى ترنّح. مال بجرمه إلى الأمام ليتبيّن السيماء، ولكن السيماء توارت بحجابين: حجاب اللحاف، وحجاب الظلمة. وشوش فوق رأس الشبح بلغة الإيماء:

ـ أتحسن سليلة الجان استعارة أصوات الحسان، بعد أن أحسنت التنكّر باستعارة جرم الإنسان؟

ـ ألا يُقال إن الحسناء ليست سوى سليلة جان تتنكّر في بدن إنسان؟

ـ ألا تستطيع مولاتي أن تكشف لي عن وجهها لأقطع الشكوك باليقين؟

ـ ألا يستطيع مولاي أن يدنو منّي لأجسّ في يده العلامة؟

زلزلته العبارة، ولكن الجنيّة لم تمهله. مدّت في العتمات يداً لميسة، وتناولت معصمه الأيمن، ولكنها تخلّت عن المعصم، وتسللت إلى الجانب الأيسر. استولت على المعصم أوّلاً، وانتقلت من المعصم لتتشبّث بالكفّ، بالجرم المحشور في لفافة الجلد. زفرت زفرة سخيّة، فنفثت في وجهه أنفاس عطر لم ينكره، فزفر أيضاً. زفر زفيراً كشهقة محتضر يلفظ أنفاس النزع الأخير. سمعها تتمتم بلهفة عضلة عاشقة:

ـ أكاد أجزم. أكاد أقسم. أكاد أقطع الشكّ باليقين..

فكّت خيط الجلد ببراعة الأنامل المدرّبة على نمنمة رموز المعبودات القديمة بحبيبات الخرز، وأنشأت تجوس بين الأصابع لتحتوي بأناملها الإصبع وراء الإصبع وهي تلهث حتى أدركت الإصبع الأخير، الإصبع السادس تعلّقت بالإصبع السادس ثم همدت. همدت أمداً انحبست فيه الأنفاس، فأدرك سرّ الزعزعة، فركع أرضاً. غابا زمناً. غابا بعيداً. عادا إلى الوراء في طلب الزمان الضائع. احتكما إلى الذاكرة لاسترجاع الحنين المفقود، حتى إنهما لم يجدا للكلم معنى عندما هتملت بالسؤال:

ـ أهذا أنت؟

فتلجلج وتهدج واضطرب وهو لا يجد تعبيراً إلاّ أن يحاكيها ويردد السؤال:

ـ أهذه أنتِ؟

تشبّث بيديها. سقطت ضريبة الجلد التي أخفت سرّ الكفّ عن أعين الأقوام زماناً، وتلقّف راحتيها في راحتيه، وانحنى فوق رأسها ليتفقّد السيماء، فارتجّت ووشوشت:

ـ أعلم أنك على قيد الحياة، ولكنّي لم أنتظر أن ألقاك هنا.

ـ أمّا أنا فيئست منذ زمن بعيد. لقد أيقنت أني أضعتكِ إلى الأبد.

ـ ولماذا تكابر؟ لماذا لا تعترف أنك أضعتني حقّاً؟ أتنكر أنك أضعتني في يوم سبق يوم السيل؟ أتنكر أنك أضعتني يوم بدأت الوسوسة، واستبدلت بي جنوناً تسميه وصيّة؟

ـ المرأة هي المخلوق الوحيد الذي يملك الحقّ في أن يسمّي الوصية جنوناً!

ـ بلى. ما تسمّيه وصيّة يسمّى في لسان المرأة خيانة للجمال. أتنكر أن الوصيّة خيانة لربّ اسمه البهاء؟

ـ كيف تريدينني أن أعترف بالوصيّة خيانة لناموس البهاء، إذا كانت الوصيّة هي البهاء؟

ـ لا تجتمع الوصيّة مع البهاء في قلب واحد. لا تجتمع الوصيّة مع المرأة في قلب واحد.

ـ ذاك جدل سوف يطول. ولكن ما أعلمه أننا لا نختار وصايانا، ولكن وصايانا هي التي تختارنا.

ـ ما أعلمه أنك خسرتني إلى الأبد. خسرتني لأنك لا تعلم أيّ كنز خسرت. خسرتني لأنك لا تعلم أي كنز هي المرأة.

ـ ما جدوى أن نعلم، إذا كنّا لا نعلم حقّاً إلاّ بعد فوات الأوان؟

ـ صدقتَ.

ـ ولكن لماذا لا تتحدثين عن سيرة النجاة أولاً؟

ـ النجاة، كما ترى، برهان آخر على العلاقة التي تشدّ المرأة إلى الكنز، لأن المرأة، ككلّ الكنوز، تستنكر الإخفاء، فتظهر يوماً مّا، في مكانٍ مّا، ما ظلّت على قيد الحياة.

ـ أتتحجّبين عن مكروه؟

ـ وهل تقدّر النجاة من المكروه لمخلوق جرفه السيل؟

ـ ماذا أصابك؟

ـ أيدع المارد ضحاياه دون أن ينتزع منهم المكوس؟

ـ ماذا تقولين؟

ـ فقدان البصر كان، في رحلة النجاة، قرباني.

ـ ماذا؟

ـ الحسناء التي امتلكتها يوماً، لم تعد حسناء كما ترى.

توجّع بأنين كَرَزّ ناءٍ. ترنح يمنة ويسرة كممسوس الوجد، ثم تمتم ببراءة البلهاء:

ـ هل آلمتك النجاة كثيراً؟

ـ الألم قَدَر النجاة. الوجع إتاوة كل نجاة.

ـ أأطمع في نيل الغفران إذا علمت أني...

قاطعته بقساوة لم يعرفها في مسلكها يوماً:

ـ لم أرجمك بالخطيئة يوماً، حتى أهبك الغفران اليوم، لأن خصامي، كما تعلم، خصام مع النبوءة، وما خلافي مع صاحب النبوءة، إلاّ لعلّة استسلامه للنبوءة.

احتوى أنامل يديها. شدّد قبضته على يديها، تمسّح بطرف ثوبها، استنشق عطر جسدها الممزوج بالعطر المستحضر من

أزهار شجرة الرّتم. الشذى طوّح به بعيداً. الشذى طار به بعيداً، فأدرك الوطن الذي أخفق في إدراكه بالذاكرة ساعة شاء أن يستعيده بالذاكرة. الشذى رائحة أقوى من الريح، وسرّ أدهى من الذاكرة، وجنّ أحيل من الجنّ. ولكن سعادته لم تستغرق طويلاً، لأنه سمع من فمها اعترافاً:

ـ الحق أني لم أكن أملك الحقّ في أن أغفر لك حتى لو شئت أن أغفر لو لم يكن لي الكنز الذي اختلسته منك في الفراق عزاءً.

ـ عن أيّ كنز تتحدّثين؟

ـ أتحدّث عن الكنز الوحيد الذي تستطيع المرأة أن تناله من الرجل.

ـ ماذا تقولين؟

ـ بلى. نلت منك الولد، فكان لي طوال هذا الزمان أكبر عزاء.

ـ ماذا؟

ـ ولكن لعنة النبوءة لم ترحمني.

ازدرت ريقاً شحيماً، وحدقت في الظلمات بعينيها الخاويتين، وأكملت بشجاعة الأبطال:

ـ نبوءتك لاحقتني، ولم تهنأ بالاً حتى استردّت منّي الوليد بالقوة..

فتح فمه فوجد الفم خاوياً. فتح فمه ليستنطق عضلة اللسان، ولكنه وجد الفم خاوياً من عضلة اللسان. غصّ الحلق بالمرارة واشتعل الجوف بالحسرة والحريق. ولكنها لم ترحمه:

ـ ابتلع الوحش الوليد، وخسرت رهاني مع القدر، وها أنا أجلس إلى الرميم كل ليلة، لأتبيّن عظام الوليد من عظام الأفعوان، برغم يقيني بأني هُزِمتُ إلى الأبد، ولن تستطيع حتى أنت أن تغيّر من أمري..

انقلبت غصّة المرارة بلبلةً، وتحوّل حريق الجوف بلبالاً، وشلل العضلة مكيدة، فلم يجد ما يفعله إلاّ الجلجلة بالضحك. تزلزل بقهقهة جنونيّة، قاسيّة، منكرة.

28 - النزيف

وصيّة الناموس الضائع تحدّثت عن سيرة النزيف. وصيّة الناموس الضائع أرهبت الأجيال بنبوءة النزيف، لأن الأنام الذين سيأتون لا يكتفون. ردّدت الأجيال سيرة التّهم، فكان كل جيل يعيد رواية السيرة بالجلال الذي يليق بكل نبوءة، ولكنه يغفل عن الأمارة، ويحيل البلاء إلى يوم سيأتي، مؤجّلاً الإشارة إلى الغد المجهول، فيفوت القوم المنكر الذي يأتيه أبناء القوم كل يوم في حقّ أمّهم الأرض، وينسون دائماً وصيّة أخرى تقول إن العداء بين الإنسان والجان لم يستعر في الصحراء إلاّ بسبب جُرم الإنسان في حقّ أمّه الأرض، فلم تجد الأم الصحراوية العظيمة مَنْ يهبّ للدفاع عنها، ويثأر لها من أشرار الخلق، إلاّ الأبناء الذين أنجبتهم من سلالة الجان. وبرغم ذلك فإن الناس يروون. يروون الوصايا، ولكنهم لا يستوعبون الوصايا ولا يرتدعون. لا

يرتدعون لأنهم لا يكتفون. ولا يكتفون لأنهم لا يعلمون أن الركون إلى الأرض، والاستقرار على ظهرها، هو الذي أوجد في نفوسهم عدم الاكتفاء، فوجدوا أنفسهم يفتضون بكارة أمّهم الأرض ليبحثوا في جوفها عن معادن النحوس، وينقبّوا عن كنوز البهتان، ونسوا أن الثروة التي انتزعت من بطن الأم غصباً لا بد أن تنقلب في رقبة صاحبها شؤماً، والنِّعَم التي لم تهبها الأمّ طوعاً، تتحوّل في أيدي مريديها نقمةً. وبرغم النهب البشع إلاّ أن القوم لم يكتفوا.

لم يكتفوا لأنهم لم يفهموا أن السرّ في خيانة ناموس الترحال. لم يكتفوا لأنهم لم يفهموا أن داء عدم الاكتفاء ضرب من المكوس الذي يقتضيه الاستقرار. لم يكتفِ القوم بالكنوز لأنهم ما لبثوا أن استنفدوا، بسبب الاستقرار، كل المياه التي طرحتها لهم الأرض على سطحها. استنزفوا مياه البحيرات، استنزفوا مياه المستنقعات، استنزفوا مياه العيون والمنابع. استنزفوا سخاء نالوه بالمجّان، ولم يهنأوا إلاّ بعد أن أتوا من الغنيمة على آخر قطرة، ولكنهم لم يكتفوا أيضاً. لم يكتفوا، لأنهم اكتشفوا أن هذا السرّ الذي استهانوا به (لأنهم نالوه بالمجّان) كنز أنفس من كنوز الهباء والشؤم والأكاذيب التي بقروا

بطن أمّهم الأرض في سبيل استخراجها والتباهي بامتلاكها بين الأمم. لم يكتفوا فانقلبوا على أعقابهم، وانكفأوا أرضاً. التجأوا إلى صدر أمّهم الأرض لأن الوليد المدلّل المسمّى إنساناً لا يجد ما يفعله في أزمان المحنة إلاّ اللجوء إلى صدر الأم حتى لو كان وليداً عاقاً أجرم في حقّ الأم. دسّ الظامئون أنوفهم في التربان مرّة أخرى ليطفئوا نار الظمأ. بقروا بطن أمّهم الأرض ليرتووا من دم أمّهم الأرض، فلم تبخل عليهم الأم حتى بالدّم. لم تبخل عليهم الأم بدم القلب، فوهبتهم الدم بسخاء من شرايين القلب. تدفّق الدم من شرايين القلب بغزارة، فظنّ القوم أن دم قلب الأم لا يستنزف ولا ينفد، فأسرفوا، وأسرفوا، ثم أسرفوا. نسوا أن الإسراف علّة تستطيع أن تبدّد رمال الصحراء من وطن الصحراء، وتزيل الأجبال من مواقع الأجبال، وتفني الأرض كلّها. أسرف القوم وتمادوا في إسرافهم، ولم يتوقّفوا حتى استنزفوا آخر قطرة من الدّم المستعار من قلب أمّهم الأرض. ساعتها تزعزعت الأرض وعرفت لأول مرة في تاريخها الأعراض التي لا بدّ أن يعرفها كل من استنزف دماً. أصاب الأم الدوار فترنّحت. ترنّحت الأرض لأول مرّة، فتزلزل المخلوق المدلّل، واستنكر، وسبّ الأرض سبّاً دميماً، لأن الأرض عندما اهتزّت أطاحت دون أن تدري بتلك الألعاب المضحكة التي

أقامها فوق صدرها ليلهو ويطلب تسلية تطرد عنه غول الوحشة، وتلهيه عن نفسه.

عرف سليل الصحراء الزلازل، ولكنه تجاهل سرّ الزلازل. استنكر سليل الصحراء هزّات الأرض، وأبى أن يعترف بآثامه التي كانت سبباً لهزّات الأرض. أشبع أمّه الأرض سبّاً كلما عاندت الأم الإغماء، وهاجمتها نوبة من نوبات الدوار التي لا بدّ أن تهاجم كل مَنْ سفح آخر قطرة من دم القلب. ولكن المخلوق المطوّق بلعنة الظمأ لم يكتفِ، ولم يرتدع، ولم يقرأ الخطر في العلامة، لأنه مجبول بلعنة أخرى اسمها اللّهو. هبّ المخلوق ينقّب في جوف أمّه الأرض عن جرعة دم تتخفّى في شريان هنا، أو وريد هناك، في عرق هنا، أو في أوعية هناك. هبّ لنحر أطراف الأرض مدفوعاً بحمّى اللّهو لا بظمائه إلى ماء لم تبخل به سماء الصحراء على ملل العابرين لو ارتضى نفض غبار الاستقرار والانضمام إلى أمم العابرين. لأن الدهاة قد جرّبوا أن الركون إلى الأرض يولّد آفة قبيحة اسمها اللهو. فباللّهو يتطاول سليل الاستقرار في البنيان ليقيم جدران حجارة يسمّيها بيتاً، وباللهو يحتمي بجسد امرأة يسميها قرينة، وباللّهو ينجب من المرأة دميةً يسميها، بهتاناً، ذريّة. وباللّهو يقفز

الممسوس إلى سلاح يسميه فأساً ليطعن أمّه الأرض ليسمي هذا الجرم بئراً يتزوّد منه بالماء. وباللهو أيضاً يبتدع هذا المكابر أحيل الحيل ليفرّ من نفسه، وينأى عن حقيقة أمره حتى لا يكتشف أن كل ما يفعله ليس سوى لهو في لهو في لهو، إلاّ عندما يقرّر أن يلهو، إلاّ عندما يقرّر أن يتخلّى عن العناء ويروّح عن النفس بالغناء. يغنّي المكابر ليلهو، فيرمي به الغناء إلى أوطان الحنين فلا يكتشف المخلوق النبوءة إلا في وطن الحنين. في وطن النبوءة يعرف المخلوق نفسه. من وطن الحنين يعود التائه بالوصيّة التي تكشف له حقيقة نفسه. هناك يعلم المكابر الضائع أنه مخلوق مخدوع ومكابر وضائع، لأنه لا يفعل شيئاً إلاّ أن يلهو ساعة يظن أنه لا يلهو، ولا يدري أنه لا يكف عن الحمق، ولا يتوقّف عن لهوه المميت إلاّ ساعة يحسب أنه يلهو. يكتشف سليل الصحراء وصيّة البهتان في وطن الحنين، ولكنه عندما يتوقف عن الغناء، ويعود من وطن الحنين، ينسى. ينسى ويندفع عائداً إلى معاقرة حماقاته الأولى، لأن النسيان ترياق لم يخلق إلاّ ليداوي المخلوق الذي يريد أن يتجاهل حقيقة نفسه.

ينزل المكابر من عليائه إلى حضيض رغباته الجنونيّة.

يحتمل الوليد العاق أسلحته المميتة ويندفع ليمزّق صدر أمّه الأرض. يطعن، ويطعن، ويطعن، وينسى في حمّى لهفته إلى اللّهو أنه لا يحفر بئراً، ولكنه يطعن أمّاً. ينسى أنه لا ينتشل تراباً، ولكنه يسلخ جسداً. ينسى أنّه لا يحطّم في الأسافل حجارة، ولكنه يهشمّ عظاماً. ينسى أنه لا يستخرج من شقوق الجوف ماء، ولكنه يغتصب الجوف، يستنزف من الخلايا والأوردة والشرايين بقايا الدّم. ينسى كل شيء في حمّى اللّهو، وينزل إلى أبعد الأعماق ليستولي على آخر قطرة في البدن المنكوب. ولا يتوقف عن جنونه إلاّ ساعة لا تعود فيها الأم قادرة على الاحتمال، فيغلبها الاستنزاف، فتقذف في وجه المخلوق قيئاً أسمته الأجيال حمماً وبراكين.

وبرغم البراكين، فإن الوليد لا يشفى من الداء، والحمم النارية تخفق في مداواة جنونه. يمضي الوليد في السيرة. يندفع للتنقيب في أبعد المجاهل لا إشباعاً لحاجة، ولكن لوضع حدّ لفضول لا يُحدّ. يحفر، ويحفر، ويحفر. يمزّق أحشاء الأم التي أنجبته، ويقضي على الأنسجة التي غذّته وأطعمته وخلقته، فتتفجّر الأرض صديداً كئيباً رجراجاً لزجاً، خاثراً، فيتسابق القوم لاستخدام الكنز الجديد، لاستخدام الصديد الكئيب، في

أغراض اللّهو. ينسى الإنسان في حمّى الاحتفاء باكتشافه الجديد أن الأم بدأت تحتضر، وصديدها لم يكن إلاّ علامة من علامات النزع الأخير. مباراة اللّهو تنسيه حقيقة الأمر، فيغيب عن بال الأبله أن رضيع الأم الصحراوية لا يحيا طويلاً إذا جفّ ثدي الأم، فكيف يحيا الرضيع إذا هلكت الأم؟

29 ـ الكنز

استنار بالمشعل، وجاس في مجاهل الغار. اقتحم ظلمات القدمة، وذهب في طلب معقل الكنز. تتبّع مسير اللسان اللعوب ليبلغ منبع السلسبيل. غمرته رطوبات الجوف، ونثرت في وجهه حيطان الأعماق رذاذ البلل، فتنشّق عطر المجهول، واستلذّ بعطر السائل الخفيّ، فبأيّ حقّ نحمّل الماء وزر أن يطيق الدّنس؟ وكيف نتوهّم أننا نستطيع أن ننال الماء بدون قربان؟ وكيف لا نعلم أيضاً أن الماء لا يدبر أيضاً إلاّ بقربان؟ بلى، بلى. لا يضيره أبداً أن يريق دم الإبن الأبدي، إذا كان دم الإبن الأبدي هوالإتاوة الوحيدة التي يستطيع أن يمنع بها الماء، أن يوقف بها جري الماء، أن ينقذ بها دم الأم من أوجاع النزيف. بلى، بلى. ليس عليه أن يبخل بالدّم أبداً، إذا كان الدم هو الترياق الوحيد الذي يستطيع أن يداوي داء أرض لم تبخل بالدّم في سبيل إرضاء طيش ابنها الضّال. ألقم حارس الكنز وليده

دون أن يعلم بحقيقة الوليد، وليس عليه أن يستشعر الندم، ليقينه بأن ما ارتأته له الأقدار الخافية هو الصواب، مهما بدا له أن ما يرتأيه لنفسه هو الصواب. عليه أن يمتثل لناموس المشيئة، لأن المشيئة تريد بنا خيراً في أمرٍ يبدو لنا سوءاً، وتجنّبنا سوءاً، في أمرٍ يتبدّى لنا خيراً.

فلماذا عليه أن يتضعضع أو يتزعزع أو يتراجع عن أمرٍ انقلب في قلبه رسالة ووصيّة ومبدأ حياة؟ ألن تكون فجيعته الحقيقية في الاستسلام لشكوك البلهاء، والانتكاس إلى الوراء، لا في مصاب الذريّة، وفجيعته بوليده الوحيد؟ ألا يجب أن يدع الأوهام ويكتفي بالوصيّة وليداً؟ ألا يجب أن يدع الأوهام، وينبذ الألعاب، ويكتفي بالتخلّي مُلكاً؟ ألا يجب أن يدع الأوهام، ويركل الاسترخاء والحقول والاستقرار، ليكتفي بنيل الوطن الصحراوي في الرحيل؟ ألم ينزل المكان وبيده البلاغ، ليحرّر المكان من عبيد المكان؟ ألم يقطع في سبيل التحرير شوطاً، ولم يتبقَّ من المهمّة إلاّ أقل القليل؟ أجل. لم يتبقّ في الشوط إلاّ أقل القليل. لم يتبقّ إلاّ إنزال الطعنة التي ستجبر الكسر، وتداوي الجرح ، وتوقف في جسد الأم النزيف. بالطعن تجود الأرض على الأبناء بدمها، وبالطعن أيضاً تمنع الأرض دمها عن

أبنائها. الطعن كان دوماً سرّ الينابيع. مَنْ لا يتقن الطعن، لا يستخرج من الصلد مياهاً، ومَنْ لا يتقن الطعن لا يحقن للأرض مياهاً. بالطعنة يفزّ الماء من الصخر، وبالطعنة يحتجب الماء في الصخر. بضربة الفأس ينبجس الماء، وبضربة الفأس ينحبس الماء. بالأمس جاء الداهية واستخرج بالطعن من جسد الأم دماً أسماه ماءً، واليوم يجيء هو ليطعن أيضاً كي يحقن للأرض دمها، ويوقف نزيفها المميت. ها هو يسمع وشوشات السائل الخفيّ في رحلة الانبثاق. ها هو يسمع اللحن الحزين الذي يغنّيه الماء دائماً عندما يفزّ من شقوق الصخور، لأنه يعلم أنه مسافر إذا أُجبر على هجر دياره يوماً، فلن يعود إلى الوطن أبداً، لأن قدره سيكون منذ اليوم المنفى. ها هو عويل الكائن الغامض يشتدّ، ويعلو، حتى يتحوّل إلى عويل. ها هو يتأهب للانقضاض ليضع للمناحة الحدّ. ها هو يهوي على الصلد بفأسه ليضع للمهزلة الحدّ. ها هو يطعن، ويطعن، ويطعن، ليعيد التائه من المنفى، ويبني مجد السيرة الأولى. ها هو يصلح بفأس الهدم، ما أفسده داهية الأمس بحيلة الاستنزاف. هوى، وهوى، وهوى. . ولم يتوقف عن الطعن إلاّ بعد أن سكت اللحن، وكفّ النزيف عن النحيب.

30 - الرّحيل

تنفّس الصعداء، واستلقى استلقاء مَنْ ألقى عن كاهله حِمْلاً ثقيلاً، ثقيلاً، ثقيلاً. تنفّس، واستلقى، ولكنه لم يسترخِ. ذهب إلى الحقول، وعاد بدابته الأبديّة، وتأهب للرحيل. أقبل على العجوز ليسمعه امتناناً، ويمدّ له يد الوداع، فوجد في مخلوق عرفه وعاشره وقاسمه الماء والخبز والهموم، مخلوقاً آخر لم يره، ولم يعرفه، ولم يقاسمه لا ماءً ولا خبزاً ولا همّاً. تهدّل لثامه الكئيب فكشف عن شاربين مكللين بالبياض، ينحدران حتى يتواصلا في لحية بيضاء مخروطة كلحية التيس. تطلّع إليه بعينين ماكرتين يجول فيهما الاحمرار واللؤم ونوايا السّوء. ابتسم ابتسامة رعاعٍ لا يملكون لإخفاء الخبث حيلة، ثم تضاحك ساخراً قبل أنّ يقول:

- أرى في يد سليل الدخلاء رسن البهيمة التي تحتقر البرسيم، وتحيل الفصفصة الخضراء يباباً، ولا تقتات إلاّ على الجيف

ولحوم الجثث، فهل دابة مولاي من دواب الصحراء، أم وحش من وحوش الأدغال؟

أعقب قول الهزء بكركرة منكرة، فتكشّف الفم عن حفرة منفرة خاوية من الأسنان. أنكره وتلبّسته قشعريرة، وعلم ساعتها فضيلة اللثام كما لم يعلمها قبل ذلك اليوم. علم أن سوأة الإنسان الحقيقية ليست العضلة البائسة التي تتدلّى بين فخذيه، ولكن سَوْأَة الإنسان الكعثب الكريه الذي تنشقّ عنه شفتاه. علم أن سرّ قبح الإنسان يتستّر وراء الشقّ المتخفي بالشفتين ولم يكتسب الإنسان بهاء الإنسان إلاّ يوم اكتشف اللثام، فأحكم القناع حول عورة الفم. ولكن المسخ الذي تنكّر له في جرم العجوز لم يعبأ بقبح العورة، لأنه لم يكتشف سرّ العورة، فحاول أن يردّه بسحر العبارة إلى الصواب:

ـ يحزنني أن أسمع من فم صاحب الحَرَم لغو الدهماء!

ـ لغو الدهماء؟ أما زلت تستنكر أن ننعت دابتك بالشؤم بعد كل الخراب الذي حملته إلى ديارنا؟

ـ هذا لا يليق!

ـ أتجرؤ على التحدّث على ما يليق وما لا يليق؟

ـ جئت عابراً كي أمدّ يد الفراق لإنسان قاسمني همّ الدنيا يوماً.

ـ جئت كي تمدّ يد الفراق لإنسان قاسمك هم دنياك يوماً، وشقّ لك صدره ليريك قلبه عارياً، فختلته واختلست منه قلبه.

ـ ماذا تقول؟

ـ فليمهلني سليل الدخلاء كي أروي له السيرة من أوّلها ـ السيرة التي أعقبت ضياع القبيلة بأعوام. السيرة الذي ذهبت بالابنة لتقع في براثن الغرباء وكان بالإمكان أن تضيع إلى الأبد وتقضي حياتها جارية من الجواري التي تتنقّل بين الأحضان، لو لم يلهمها الخفاء يوماً، فتجد في قلبها ذلك الكنز المسمّى في بيان الأمم أشعاراً. أتقنت الصبية الغناء لأنها لم تجد ما تطرد به وحشتها في المراعي إلاّ ترويض اللحون، والترنم بأغاني الشجون التي أجّجها في قلبها البكر الظّمأ إلى الوطن. ولا شكّ لي في علمك بأن الإنسان لا يفلح في بدعة، أو صنعة، أو أيّ أمر من أمور العيش، إلا إذا صار له في حياته همّاً. الغناء صار لسليلة المنافي همّاً، لأنه كان لها منذ الطفولة تسلية في مصير التيه، ثم انقلب مع الأيام ليغدو على رأسها تاجاً وامتيازاً دفع بأبطال القبائل، وفرسان العشائر، لأن يتسابقوا للفوز بقلبها، لأن الفرسان، كما تعلم، ملّة أقوى عندما يتعلّق الأمر بملاقاة الأعادي، ولكنها أشد أجناس

المخلوقات ضعفاً عندما يتعلقّ الأمر بحسناء تخفي في الجؤجؤ سرّاً. فتاتي أيضاً نالت بالسرّ فارساً. فتاتي أيضاً حررت نفسها من الأسر بسرّ صغير اسمه الشعر، فلم تجد المسكينة مفرًّا إلاّ أن تتعشّق ربّ نعمتها الذي أنعم عليها بالعشق أيضاً إلى جانب التحرّر من العبودية. التحقت بمحرّرها قرينة، والتحق القرين بقبيلته، ولكن هيهات أن يطمع الإنسان في امتداد السعادة زمناً طويلاً. اشتكتهما عين الحسد إلى الخفاء، فتولّى الخفاء الأمر نيابة عن الخلق ليفسد على العاشقين دمية السعادة. سلّط الخفاء على العاشق وحياً، ولم يتركه حتى أحكم حول رقبته وهق الوصيّة المزعومة، فأصيب الشقيّ بالمسّ، ولم تفلح لا تعاويذ السّحر، ولا تمائم الكهنة في تحريره من الدّاء. ويُقال إن هذا الداء هو الذي دفع به للمبيت في قلب الوادي في تلك الليلة المشؤومة التي فقد فيها المعشوقة التي جرفها السيل. وبرغم بطولته في حربه مع المارد، وبرغم بسالته في طلب المحبوبة إلاّ أنه يئس في آخر المطاف، وسلّم زمام أمره نهائياً لوصيته المزعومة. ولكن الوصايا التي تأخذ من الأحياء الأحبّاء، هي الوصايا نفسها التي تعقد اللقاء بين الأحباء عندما يكون في عقد اللقاء نفعاً للخفايا. لم تنجُ المعشوقة من ضياعها فحسب، ولكنها

أنجبت للمعشوق وريثاً استعارته من صلبه في الليلة نفسها التي دهمها فيها رسول الخفاء. فهل تدري، يا شقيّ الأغراب، ماذا حدث في أرض الميعاد؟ فقدت المسكينة وليداً كان لها حياةً بيد المعشوق، بيد الأب الأبدي، الذي لا ينجب الأبناء ليهبهم الحياة ككلّ الآباء، ولكنه ينجب الأبناء ليقدمهم قرباناً لربّ مجهول يسمّيه وصيّة. يجب ألاّ ننكر أنها اهتدت إلى أب يئس من استعادتها يوماً بعد فجيعتها في الابن، لأن الاهتداء إلى الآباء لا يعوّل عليه إذا أعقب الفجيعة في الأبناء. فهل تريدني أن أنعم باسترداد قلبٍ فقد في التّيه قلبه؟ هل تريدني أن أقنع بذريّة أضاعت الذريّة؟ هل تريدني أن أحيا وأنا أعلم الناس بأن صغيرتي لا تحيا؟ ألا ترى أن الحياة على أمل استرجاع حبيب مفقود أيسر من حياة نستردّ فيها الحبيب، ولكننا نفقد الأمل في إسعاد الحبيب؟

انكفأ على وجهه حتى لامست لحيته التراب، وأغمض عينيه حتى فزّ منهما سائل كالقيح، وقبض بيديه التراب، ثم ارتجّ. ارتجّ بعنف قبل أن يضيف:

ـ ألا تدري أنك لم تقتل ابنك وحدك، ولم تقتل معشوقتك القديمة بقتل وحيدها، ولكنك قتلتني أنا أيضاً بجرمك البشع؟ ألا تدري أنّك لم تكتفِ بإفناء العائلة، ومحو سلالة كاملة من

الصحراء، ولكنك أفنيت كل السلالات؟ ألا تدري أنك لم تهلك الزعيم وحده، ولم تقضِ على المعبود وحده، ولكنك أهلكت الواحة كلّها، فأفنيت أعرق واحات الصحراء وأنبلها؟ ألا تستطيع أن تجيبني عن سؤال أخير يا سليل النحوس؟ زحف على ركبتيه مسافة. تمرّغ في الترّباء كاللديغ. أطلق أنيناً فظيعاً، طويلاً، فاجعاً. انتفض وارتجّ قبل أن ينهض على قدميه، ولكنه كان ما زال يرتجّ ويرتجف عندما أمسك بخناقه، وفتح في وجهه فماً زادته الآلام كآبة وبشاعة:

ـ مَنْ أنت؟ مَنْ أنت؟ مَنْ أنت؟

ساعتها تنزّل في عيني الغريب قناع آخر. ساعتها احتجبت مقلتاه بستورة مستعارة من أنسجة أخرى، فرمى الخلاء بنظرة المهاجرين الأبديين عندما يسلمون أبصارهم إلى رحاب الآفاق، ويكشفون عن نيتهم في الذهاب إلى الأبد:

ـ أنا، يا مولاي، ذلك المخلوق الذي يفعل شرّاً، لأنه يعلم أنه ينقلب خيراً، ولكنه لا يفعل الخير أبداً، خوفاً من أن ينقلب شرّاً!

«انتهت»

طرابلس الغرب ـ باريس ـ هونيباخ (الألب السويسري)

2 ـ 1 ـ 2000

مؤلّفات ابراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983.

3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986.

ـ رباعية الخسوف 1989 :

4 ـ البئر (رواية).

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التّبر (رواية) 1990.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990.

10 ـ القفص (قصص) 1990.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثانية 1991.

13 ـ ديوان النثر البرّي (قصص) 1991.

14 ـ وطن الرؤى السماويّة (قصص) 1991.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994.

17 ـ الفم (رواية) 1994.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997.

24 ـ الدمية (رواية) 1998.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999.

31 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلْبال، 1999.

32 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999.

33 ـ وصايا الزمان 1999.

34 ـ نصوص الخلق 1999.

35 ـ ديوان البرّ والبحر 1999.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000.

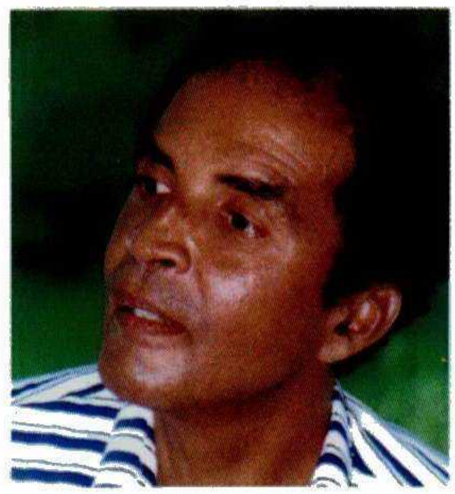
الفهرس

أوّل الأيام ـ الطّلسم

ثاني الأيّام ـ البلْبَلَة

ثالث الأيّام ـ الوصيّة

دار المُلتقى
للطباعة والنشر



إبراهيم الكوني

الدنيا أيام ثلاثة

«أسارع فأقول: ليست غرابة المكان هو ما يشدّ في روايات الكوني. فهذا الروائيّ فنّان بارع يتقن خطاب اللغـة، ويجيد إبداع الشخصـيات المؤثّرة، ويعرف، عميـقاً، كيف يبني رواية معاصرة على أعلى المسـتويات. إنه روائيّ عملاق فيما أقدّر، واعـتقد أنه واحدٌ من كبار الروائيين في الأدب العالمي المعاصر».

الناقد الياباني نوابواكي نوتاهارا من كتابه: «إبراهيم الكوني: عالم البداوة».

***

«يجمع إبراهيم الكوني بين مـوهبة الروح المبدعة، وبَين مـوهبة معرفـة الأدب العربي معـرفة عميـقـة. لقد حان الأوان الذي يجب فيه على أوروبا أن تتـعـرّف الى أعـمال هذا المبدع».

الناقد والروائي الإسباني خوان غويتسولو
من مقاله في الـ«نوفيل أبزرفاتور» الفرنسية عن رواية «التّبر».

***

«في «عـشب الليل» يطرح إبراهيم الكوني مـشكلة حـرية الفـرد إزاء المجـتـمع، ولكن، كعادته في كل أعمـاله، يطرح المشكلة من خلال العلاقة بالطبيعـة من جانب، وبالقدر من جانب آخر، فـتقف الصحراء الكبرى كمـفهوم استعاريّ اوّلاً، في الوقت نفـسه وكمكان يحمل سيماء محدّدة يضع حدّاً فاصلاً بين الشمال العربي، والقارة الافريقية».

الناقد السويسري فريدولين فورغر
من مقاله «مريد الظلمات» حول رواية «عشب الليل» بصحيفة «لاند بوت» السويسرية

***

«تمتلك في الصحـراء صغائر مـثل الريح، او الحيوان، او الألوان، او الومـيض، معنىً حياتياً في غاية الأهميـة. ففي عالم كهذا يصير أصغر سوء فهم سبـباً لهلاك محقّق. كما أن العلاقـة الحميـمة بالطبيـعة وبالآخـر (في درجة أدنى) تتكمّن مـشكلات اهل المدن وشكوكهم نحو أهل الصحراء..».

ستيفان فايدنر حول رواية «عشب الليل» بصحيفة «نيو تزوخر زايتونغ» السويسرية.

دار المُلتقى
للطباعة والنشر